

التفسير في العلوم الإجتماعية

دراسة في فلسفة العلم

دكتورة علا مصطفى أنور

دار الثقافة للنشر والتوزيع

ع. شجاع سيف الدين المراني - الضيالة

ت/ ٩٠٤٦٩٦

التفسير في العلوم الاجتماعية دراسة في فلسفة العلم

تأليف

د. علام مصطفى أنور

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

دار الثقافة والنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين الميزان - الغزالة
القاهرة ت / ٩٠٤٦٩٦٠



« شكر وتقدير »

بدأت هذه الدراسة على يد استاذى الدكتور زكريا ابراهيم رحمه الله . ومهما نسيت فلن أنسى فضله على وتشجيعه لى ، فقد ساعدنى فى اختيار هذا الموضوع ووجهنى فى فترة كنت فيها لم أزل بعد فى بداية الطريق ، فكان الأستاذ والمعلم والأخ الأكبر .

ولما تولتني الأستاذة الدكتورة أميرة مطر بالاشراف والرعاية اعطتنى من الثقة بالنفس ما دفعنى الى مزيد من العمل ومزيد من الجهد . ويكفى ما قدمته لى من وقت وما اتاحته لى من مناقشات وما افاضته على من علم وفكر . فكانت لى خير مرشد وخير استاذ .

واذكر للأستاذ الدكتور سيد عويس رعايته وتشجيعه المستمر ، فهو الذى فتح امامى مجال البحث الاجتماعى وارشدنى الى الأسلوب العلمى فى التفكير والعمل . ومنه تعلمت حب العلم والفكر واحترام العمل .

اما الأستاذة الدكتورة نازلى اسماعيل فاقدم لها خالص شكرى وتقديرى لتفضلها بالسماح لى ان اتردد عليها فاستزيد من حديثها علما ومن فكرها معرفة .

ويرجع الى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناائية وعلى راسه الأستاذ الدكتور أحمد خليفة الفضل فى اتجاهاى الى هذا التخصص . وانى لأشكر للمركز ولجميع العاملين فيه ما اتاحوه لى من فرص للمشاركة فى العمل العلمى وما قدموه لى من امكانيات وتسهيلات .

فلهم جميعا احترامى وتقديرى .

« المقدمة »

اهتمت الفلسفة على مر العصور بكافة أشكال الفكر ، ابتداء من الفكر الأسطوري وانتهاء بالفكر العلمى . وكان لابد للفلسفة فى تاريخنا المعاصر أن تمتد الى داخل كافة مجالات العلم آخذة فى الاعتبار العلوم الاجتماعية . فجاءت دراسة فلسفة العلوم الاجتماعية وليدة هذا الاهتمام من جانب الفلاسفة للاجابة على الامئلة التى يثيرها الواقع الاجتماعى والبحث العلمى ، والتى لم تجد اجابات شافية لها من جانب العلماء المتخصصين فى تلك العلوم . ان موضوع هذا الفرع الوليد للفلسفة هو العلوم الاجتماعية ذاتها ، ومهمته هو التحليل النقدى لمناهجها وافتراضاتها ومصادراتها ومعطياتها ، وذلك بهدف بناء نظرية تجيب على كافة الامئلة التى يستدعيها الواقع الاجتماعى . فاذا كانت « فلسفة العلم » هى القاعدة التى يقوم عليها العلم الطبيعى ، فلا اقل ان تكون « فلسفة العلوم الاجتماعية » هى القاعدة التى تقوم عليها العلوم الاجتماعية .

وقد شغل موضوع التفسير الفلاسفة منذ القدم فحاولوا دائماً الاجابة على امئلة تدور حول هذا الموضوع . ومهمتنا فى هذه الدراسة تناول موضوع التفسير داخل سياق العلوم الاجتماعية .

ويميز البعض احياناً بين « علوم اجتماعية » و « علوم انسانية » فيفضل بعضهم التعبير الأول على أساس أولوية المجتمع على الفرد ، ويفضل البعض التعبير الثانى على أساس ان الإنسان هو موضوع الدراسة فى المرتبة الاولى . الا أننا نريد ان نبين ان تفضيلنا للتسمية الاولى

لا يعنى اطلاقا اولوية المجتمع على الفرد وانما هى تعبير يفترض الفرد داخل المجتمع . فانا لا نستطيع ، حقيقة ، الحديث عن الانسان خارج اطاره الطبيعى وهو المجتمع ، ونتفق هنا مع رأى كلود ليفى ستورس فى عدم تفرقته بين علوم اجتماعية وعلوم انسانية . وتتضمن العلوم الاجتماعية كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية واللغويات وعلم النفس والتاريخ .

ان مجرد حديثنا عن العلوم الاجتماعية باعتبارها علوما يعنى فى الدرجة الاولى انها تحاول تطوير نظريات لتفسير الظواهر التى تدرسها ، فالعلم يهدف فى المقام الاول الى كشف ما هو خفى وتوضيح ما هو غامض . وتحديدنا لهذه العلوم بانها اجتماعية يشير الى ان الظواهر موضوع الدراسة لها اطار معين تحدث فيه ، هو المجتمع بما يشملها من افراد وانظمة وعلاقات . ولم تكن العلوم الاجتماعية لتستطيع ان توجد بدون وجود الوقائع الانسانية القابلة للملاحظة والتحليل والتفسير . واننا لا ننكر صعوبة هذه الوقائع وصعوبة ادراكها ، فان هذا الادراك ذاته هو واقعة اجتماعية جديدة تدخل كعامل مؤثر على الدراسة . ان العالم الاجتماعى الذى يتناول الوقائع بالدراسة . ما هو الا نتاج ظروفه وعصره ، فقد يعانى عالم النفس الذى يدرس البشر من مشكلات نفسية ، وقد تؤثر الحقبة التاريخية التى يعيشها المؤرخ على تحليلاته ، وقد يتأثر عالم الاجتماع بالأمرة التى يعيش فيها وبالطبقة التى ينتمى اليها تماما مثل تآثر عالم الاقتصاد بالنظام الاقتصادى الذى يوجد فيه ... وهكذا ، ومن هنا تأتى كثير من المشكلات فى العلوم الاجتماعية .

ويساعد التفسير الى حد كبير على حسم مشكلات العلوم الاجتماعية فهو يثير اسئلة تحتاج اجاباتها الى توضيح الموقف المنهجى سواء فى علاقة العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية او فى داخل المجال الخاص بالعلوم الاجتماعية ذاتها .

وقد حاولنا ان نضع مشكلة التفسير فى اطارها الواسع حتى لا تكون الدراسة مجرد سرد لأنواع التفسيرات فى العلوم الاجتماعية ، ومن هنا حرصنا على الالمام بكافة جوانب الموضوع . فكانت البداية متمثلة فى الحديث عن العلم بشكل عام من حيث موضوعاته ومناهجه وعلاقته بالانسان والمجتمع ، ثم استطردنا لبيان الوضع داخل العلوم الاجتماعية ذاتها من حيث منهج البحث الملائم ومن حيث موضوع الدراسة محاولين ان نبين الخلافات التى لا زالت قائمة . وقد ارتبط بهذا الحديث عرض لبعض المشكلات المنهجية الهامة فى العلوم الاجتماعية .

وقد خصصنا الفصل الثانى للحديث عن التفسير ذاته ، من حيث الآراء المختلفة التى تدور حوله سواء خارج العلم أو داخله وبصفة خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية . وقد حاولنا تفصيل شروط التفسير وحددناها فى شرطين اساسيين هما المطلب المنطقى والمطلب المعرفى ، مما دعانا الى عرض اشكال التفسير وهى الشكل الاستنباطى والشكل الاحتمالى والشكل الاحصائى ، وذلك مع ربط التفسير ببعض العمليات المنهجية الأخرى وهى الوصف والتنبؤ والتعميم .

اما الفصول الثلاثة التالية فقد خصصناها لعرض المواقف والاتجاهات الرئيسية المختلفة . ولابد لنا ان نلاحظ منذ البداية ان هذه الاتجاهات لا تمثل الموقف الكامل فى العلوم الاجتماعية وهو ما لا تتسع له هذه الدراسة ، وانما حاولنا بقدر الامكان الالمام باهم الاتجاهات السائدة .

ويرجع تعدد الاتجاهات الى الخلاف الذى ذكرناه من قبل حول منهج البحث الملائم كنتيجة لاختلاف النظرة حول موضوع الدراسة . وإبرزنا خلال العرض بعض الشخصيات الرئيسية التى رأينا انها تلعب دورا بارزا فى مسار كل اتجاه . فمضينا نستكشف الطريق الذى سار فيه التفسير عند الوضعيين من خلال أطوار قانون كونت ، ثم عرضنا للدور الذى يلعبه المجتمع فى تفسير دوركايم مؤكدين على أهمية كل من

المسبب والوظيفة فى هذا التفسير . وختمنا الاتجاه الوضعى بعرض للوضعيات المحدثة والسلوكية فبينما موقف كل من النزعة الفيزيائية والنزعة الذرائعية والنزعة الطبيعية وانتهينا بوجهة نظر السلوكية .

وانتقلنا مع الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم الى موقف مختلف تماما ، موقف يؤكد على الحدس والتحليل والموصف كأدوات رئيسية فى المنهج . وقد اسلمنا الفهم الذاتى عند دلتاى ، وحرصه على اعتناق القيم والمعانى الكامنة فى عقل الفاعل الى النمط المثالى الذى قدمه ماكس فيبر حيث يلتقى الفهم الذاتى بالمعنى داخل التفسير وقد استطردها مع هوسرل لكشف الخبرة المعاشة من خلال دراسته للوعى والمياهيات وتأكيد على مبدأ الذاتية بما تتضمنه من رد فنونولوجى وتعليق للحكم . وانتهينا بالنظر فى فكر شوتز الذى لاقى العالم الاجتماعى على أساس المنهج الفنونولوجى واضعا الفنونولوجيا فى صميم الواقع بهدف كشف عالم الحياة اليومية .

وقد حاولنا فى الفصل الخاص بالوظيفية والبنوية ان نبين الأسس التى قام عليها التفسير لدى الاتجاهين ، مما دعانا الى عرض دور الوظيفة كما تبنت لدى مالبينوفسكى وكيف تطورت مع راد كلنّف براون وبارسونز لى تلتقى مع البنية . وقد قصدنا فى عرضنا للاتجاه البنويّ اجلاء الغموض الذى احاط بهذا المنهج فركزنا اهتمامنا على البنوية اللغوية وبنوية ليفى شتراوس .

ولم نترك اى اتجاه او موقف بدون محاولة تفحصه من خلال نظرة نقدية تظهر ايجابياته وسلبياته . وقد حاولنا فى الخاتمة ان نستفيد من النواحي البناءة فى كل اتجاه لتقديم تصور سليم للتفسير .

الفصل الأول

فلسفة العلوم الاجتماعية

تمهيد : العلم •

أولا - الآراء المتعارضة حول منهج البحث الملائم للعلوم الاجتماعية :

(أ) الاتجاه الأول : وحدة المنهج فى العلوم الاجتماعية
والعلوم الطبيعية •

(ب) الاتجاه الثانى : هناك مناهج للعلوم الاجتماعية متميزة
عن مناهج العلوم الطبيعية •

ثانيا - الظاهرة الاجتماعية أو موضوع الدراسة :

(أ) الموقف الطبيعى •

(ب) الموقف اللا طبيعى •

ثالثا - مشكلات منهجية :

(أ) شكل البحث الاجتماعى •

(ب) التعميم والتنبؤ •

(ج) القيم •

تمهيد العلم :

كان للتقدم المذهل الذى حققته العلوم الطبيعية Natural sciences اثره على التصور العام للعلم . فقد اصبحت صورة العلم هى الصورة الموجودة فى مجموعة العلوم التى قطعت فى آن واحد شوطا بعيدا من التقدم النظرى والتطبيقى والمنهجى وهى المسماة بالعلوم الفيزيائية . وعلى هذا الاساس اصبحتنا نشعر ونحن نقرا عن العلم ومناهجه ان فلاسفة العلم قد اقاموا هذا النموذج على غرار الصورة التى تطالعنا بها العلوم الطبيعية . واصبح هذا النموذج عند الكثيرين هو المثال الذى لابد للعلوم الاجتماعية من اصطناعه للوصول الى التقدم فى مجالاتها المختلفة .

ويتفق فلاسفة العلوم بشكل عام على ان موضوع العلم يجب ان يكون ظواهر توصل جميع الدراسين الى اتفاق بشأنها مما يجعلها تستحق ان تنتمى الى قضايا العلم . فالعلم - ليس الا - دراسة للأحكام التى يحدث اتفاق عام بشأنها (١) وكل حدث جزئى Particular event مستبعد من دراسة العلم لأن العلم يدرس علاقات معينة بين أحداث معينة (٢) . ويؤكد لندبرج نفس المعنى : فيقول ان محتوى العلم فى شكله الناضج ليس الا مجموعة من القضايا التى تأكدت صحتها ، وهى مرتبطة بحيث يبدو النسق فى ضوء قواعد معينة (منطقية) متسقا مع ذاته ومتفقا مع الملاحظة التجريبية . وكلما اتسع نطاق تطبيق تلك القضايا أى كلما اتسعت مجموعة الظواهر التى تغطيها تلك القضايا زاد تأكدنا

(1) N. Campbell : What is Science ? New York, Dover Publications 1952 , p. 27.

(2) Ibid, p. 37.

من المعرفة الخاصة بالجمال الذى تغطيه (٢) . فالعلم هو الاكتشاف التدريجى للعلاقات الموضوعية الموجودة فى العالم الواقعى . أو هو محاولة للمعرفة من أجل تفسير ما هو موجود . وهو فى محاولته هذه يقدم العالم المبنى *Construit* فكلمة تقدم العلم ابتعدت الوقائع العلمية عن الوقائع الواقعية أى عن المعطيات المباشرة للدراك العادى . ويقبول جينز : « ان الفيزياء تحاول اكتشاف أنماط الأحداث *Patterns of events* التى تتحكم فى الظواهر الملاحظة ولكننا لا نعرف أبدا ما تعنيه هذه الأنماط أو كيف بدأت وحتى إذا أخبرنا ذكاء خارق عن الموضوع فإننا نجد التفسير غير معقول . ان دراستنا لا تستطيع أن تضعنا فى اتصال مع الواقع ومعناه الحقيقى ، والطبيعة لابد أن تبقى الى الأبد خافية عنا (٤) » .

وعندما يكشف العلم عن قوانين الطبيعة والعلاقة بين الظواهر فهو يستجيب لرغبة الإنسان فى المعرفة والفهم ، وفى هذا يكون متميزا عن التقنية *la technique* التى هى مجموعة الاجراءات التى تهدف الى احداث نتائج مرغوبة مستخدمة فى ذلك قوانين العلم *Islande* والخلط الموجود لدى الناس بين مفهومى العلم والتقنية يرجع الى أن العلم يصل اليهم فى صورة تطبيقاته العلمية .

ومهما حاولنا تعريف كلمة علم فى النسق الفلسفى او المعرفى فانه

(3) G. A . Lundberg The Postulates of Science and their Implications for Sociology. In M. Natanson (ed) Philosophy of social Sciences : areader New York : Random House. 1963 p. 34 .

(4) Sir James Jeans . Physics and philosophy. Camioridge : The University Press, 1943 p. 16.

من الواضح انه يبدأ من استخدام الملاحظات السابقة بهدف التوصل الى التنبؤ بالمستقبل ، فالعلم يبدأ بالفعل عندما نستعين بالمبادئ العامة لاختبار الواقعة ، وعندما نستخدم الموضوعات العملية والعلاقات النظرية المرتبطة بها من اجل التحكم فى الفعل الانسانى . ان تعريف العلم يتطلب دائما وجود قوانين عامة ، ثم محاولة للتجربة او الملاحظة . واخيرا تحكم عن طريق التطبيق العملى (٥) .

وعلى حين ان بعض العلماء المعاصرين لا يزالون يرون فى العلم مجرد اداة للسيطرة على الطبيعة ، نجد علماء آخرين يرددون افكار الفيتاغوريين عن جمال العلم ، فيقولون ان العنصر الاساسى فى المعرفة العلمية انما هو ما تنطوى عليه من انسجام جمالى . ومنذ عهد قريب صرح العلامة « ماكس بورن » بان اللذة التى يجدها فى العلم لى ا شبه ما تكون باللذة التى يجدها المرء فى ان يستمتع بجمال غروب الشمس (٦) . تماما مثلما أعلن العالم الرياضى « هنرى بوانكاريه » من قبل بان العالم لا يدرس الطبيعة لان هذه الدراسة نافعة ، بل هو يدرسها لانه يجد لذة فى ذلك ، وهذه اللذة ترجع الى ان الطبيعة نفسها جميلة . واذا لم تكن الطبيعة جميلة فانها لم تكن لتستحق ان تعرف . ولما كانت الحياة نفسها تستحق ان تعاش . ويوضح بوانكاريه ما يعنيه بجمال الطبيعة : فهو ليس هذا النوع من الجمال الذى يخاطب الحواس بل هو الجمال الذى ينبع من النظام المتناسق بين الاجزاء ، ويستطيع ذكاء خاص ان يدركه . ان الجمال الفكرى يكتفى بذاته ، ومن اجل هذا

(5) B. Malinowski. A. Scientific Theory of Culture in P.P. Wiener (ed .) Readings in Philosophy of Science New York : Charles Scribner's Sons. 1953pp.387 - 393, p. 392.

(٦) د. زكريا ابراهيم : قيمة العلم بين النظرية والتطبيق ، الفكر المعاصر ، عدد ١٠ ، فبراير ١٩٦٦ ، ص ص ٢٦ - ٣٣ ، ص ٣٦

الجمال وحده وليس من أجل شيء آخر يستغرق الباحث فى أعمال
طويلة وعسيرة (٧) .

وفى الواقع ان العلم حركة اجتماعية ، وان العالم مندمج فى
المجتمع ملتزم بالتاريخ ، فليس فى وسعنا ان نقيم حاجزا أخلاقيا بين
العلم النظرى المحض والعلم التطبيقى العلمى . فليس ثمة تفكير علمى
خالص ، بل هناك حركة علمية اجتماعية تحمل فى طياتها نتائج معينة
ودلالات خاصة وآثارا محددة (٨) . فالعلم لم يتطور فى فراغ بمعزل
عن المجتمع ، فنحن نحاول ان نرى تطور العلم والحكمة فى اطارهما
الاجتماعى لانه لا يمكن ان توجد حقيقة خارجة وما كان العلم ليستطيع
النمو بدون المجتمع (٩) .

ويتطور العلم بصفة مستمرة فهو ليس مجرد تراكم من المعلومات
او مجموعة الأنسقة النظرية المختزلة من التجربة ، ولكن النظرية العلمية
هى طريقة لتعقيل التجربة كما تتبدى فى حقبة معينة ولكنها لا تكف
عن التطور مع اتضاح تلك التجارب وازدياد خصوصيتها . ان العلم إذن
ليس تراكما استاتيكا من المعلومات الفكرية ولكنه يتجدد باستمرار وينقد فى
ضوء الخبرة (١٠) ، وفى ضوء الظروف النقدية والتاريخية . مثال ذلك
تطور الفيزياء من الميكانيكا الكلاسيكية الى ميكانيكا الكم على يد
« ماكس بلانك » فى اوائل هذا القرن . فلم تجلب ميكانيكا الكم ادراكا

(7) H. Poincaré Science et Méthode Paris, Ernest Flammarion . 1908 p. 15.

(٨) د. زكريا ابراهيم : المرجع السابق : ص ٢٨ .
(٩) جورج سارتون : تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ترجمة محمد
خلف الله وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ، ص ٢٦ .

(10) D. H. Theobald. An introduction to the Philosophy of
Science. London Methuen Co. Ltd. 1968 p. 12.

جديدا للعالم فحسب بل طرحت تفسيراً جديداً تماماً للظواهر فيه ،
ولأول مرة ترك المجال مفتوحاً لدخول الصدفة في العلم بصورة
تامة (١١) .

إن العلم ككل - النشاط نفسه بأهدافه ومناهجه وأفكاره - يتقدم
عن طريق التغيير والانتقاء Variation and Selection . ولا يتقدم
العلم بالتعرف فقط على صدق ملاحظات جديدة ، ولكن عن طريق ادراكها
ولهذا الغرض نقدم مبادئاً للاطراد وتصورات للنظام الطبيعى ومثل
عليها ... الخ ، كلها اشكال فكرية توضح الاشياء التى نقبلها باعتبارها
مطلقة ومرضية للعقل (١٢) .

ويرى بوانكاريه أن هناك دائماً انتقاء للوقائع Selection des faits
والوقائع التى يجب أن نبحثها هى الوقائع البسيطة التى يكثر تكرارها .
إن المنهج هو انتقاء للوقائع وبالتالي يجب أن ينصب الاهتمام على
وضع منهج . إلا أننا عندما نطبق القاعدة التى تقوم على البدء بالوقائع
المطرده نجد أن الوقائع لا تخبرنا بشئ جديد ، فيصبح الاستثناء وليس
الاطراد هو المهم . وعندئذ سوف تكف عن البحث عن التماثلات لتتعلق
بالاختلافات . وسوف نبحث فى هذه الاختلافات عن أكثرها ظهوراً
ليس لكونها أكثر جذباً ولكن لأنها تعطينا معلومات أكثر . وهكذا عند
تطبيق قاعدة معينة علينا أن نبحث منذ البداية عن الحالات التى تكون
فيها هذه القاعدة على خطأ . وفى هذه الحالة لا يكون هدفنا مجرد
التشابهات أو الاختلافات وإنما هو التشابهات Similitudes

(١١) ف . ريد نيك : ما هى ميكانيكا الكم ، موسكو ، راد مير
للطباعة والنشر ١٩٧١ ، ص ١٥ .

(13) S. E. Toulmin. Foresight and Understanding . An Inquiry
into the Aims of science. New York : Harper Torch Book
1961 . p. 12 .

الكامنة وراء الاختلافات الظاهرة . وهكذا نجد ان العالم لا يختار بطريقة عشوائية الوقائع التى يخضعها للملاحظة ، انه لا يقوم بحصر كل الحشرات الخاصة بنوع معين ، لأن عدد الحيوانات مهما كانت قيمته قد يخضع لتغيرات عديدة . وانما يبحث العالم عن تركيز خبرة واسعة وفكر واسع على حجم ضئيل ، لذلك نجد ان اى كتاب فى الفيزياء يضم عددا محدودا من التجارب الماضية ومئات الآلاف مثلها من التجارب المحتملة التى نعرف مقدما نتائجها(١٣) .

الا ان العلم لا يتمثل كما يقال فى مجموعة وقائع ، وانما يستخدم العلم هذه الوقائع لاقتراح وتأييد التفسيرات . ان هدف العلم اذن هو التفسير . ان تعبيرات مثل تصور ، نظرية ، قانون تتصل بالعلاقة الموجودة بين الوقائع ومعنى هذه العلاقة : انها تتيح للعالم اطارا يستطيع من خلاله ان ينظر الى المدى الواسع للوقائع الملاحظة والتعدد الموجود فيها ، ثم يفكر بعد ذلك فيما قد تعنيه ، ومن هنا تصبح النظرية تقريرا تفسيريا معبرا عن العلاقة بين التصورات . وعندما يقوم العالم بعرض تفسير لما قد لاحظته فعليه ان يقنع بقية العلماء ان الوقائع هى كما عبر عنها ، وان كافة الوقائع المتصلة بالموقف قد خضعت للبحث . وهذا يثير العديد من الاسئلة : فهل من الممكن تكرار الملاحظات ، وهل ما رآه هو يتضح ايضا امام الآخرين الذين لاحظوا نفس الظاهرة ، وهل يتضمن تقرير الباحث كل ما كان يمكن ملاحظته ام ان هناك احتمال فى كون بعض العوامل الاضافية قد اغفلت ولم يؤخذ تأثيرها فى الاعتبار ؟ لقد دعت كل هذه الاعتبارات الى وضع متطلبات وقواعد متصلة بالعمل العلمى هو ما يطلق عليه اسم « المنهج العلمى »(١٤) .

(13) Poincaré op. cit. p. 13 - 14.

(14) T. Freides Literature and Bibliography of the Social Sciences. California : Mehille publishing Co. 1973 p. 5 - 6.

يتمثل العلم اذن اساسا فى مناهج بحث فكلمة علم تشير فى العادة الى اية طريقة منظمة فى البحث (١٥) فالعلوم كما نعرفها هى موضوع بناء نظام للتصورات Concepts اساسا للتفسير وايضا لوصف مظاهر جديدة للعالم كما تظهر فى البحث التجريبي . والاسئلة التى تثيرها هى : كيف نتحدث فى هذه الموافف الجديدة ؟ وكيف تبدو ؟ وهل نستطيع ان نعاملها كما لو كانت كذا او كذا ؟ هل نستطيع تكوين فروض على اساس هذا او ذاك من النماذج (١٦) . ان التفكير العلمى يتخذ نقطة بدايته من المشاكل المستوحاة من اشياء ملاحظة وحوادث توجد فى التجربة العادية وهو يهدف الى فهم هذه الاشياء الملاحظة عن طريق اكتشاف نظام يؤلف بينها . ويتمثل اختبارها النهائى - من اجل القوانين التى تستخدم كأدوات تفسير وتنبوء - فى ارتباط التفكير العلمى مع هذه الملاحظات (١٧) . ان المهم فى العلم ليس هو تنظيم المعلومات وتصنيفها فحسب بل المهم هو ربطها والعمل على تفسيرها ايضا . . . ان السمات المميزة للبحث العلمى هى التفسير ، واقامة علاقات الارتباط او التوقف بين القضايا التى قد تبدو فى الظاهر غير مترابطة ، والعمل على تنظيم العلاقات القائمة بين عناصر المعرفة المتباعدة او المشتقة بطريقة منهجية واضحة . فالمثل الأعلى الذى يهدف اليه اى علم انما هو الوصول الى درجة عليا من التفسير المنهجي Systematic explanation حتى يتحقق له ربط معلوماته بطريقة استنباطية دقيقة ، كما هو الحال

(١٥) د. زكريا ابراهيم : مشكلات فلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ص ١٢٩ .

(16) Theobald . op. cit. p. 56.

(17) E. Nagel . The Structure of Science. Problems in the Logic of Scientific Explanation New York : Harcourt, Brace and World Inc . 1961 p. 79.

فى الهندسة البرهانية او علم الميكانيكا (١٨) . وعلى الرغم من أن بعض العلوم - الاجتماعية والطبيعية - لا تملك نظاما سليما للتفسير كما هو موجود فى علم الميكانيكا الا أن فكرة الوصول الى تفسيرات لوقائعها دائما موجودة .

وتتجه الرياضيات نحو القيام بدور متزايد الأهمية فى العلوم سواء الطبيعية او الاجتماعية . ولكن هذا بالطبع لم يمنع كل علم من أن يتخذ له مناهج تتناسب مع مجالات بحثه . وتعتبر الرياضة أداة ولغة لكل العلوم أكثر من كونها علوما خاصة مستقلة - البيولوجيا مثلا تستخدم حساب الاحتمالات ، وعلم النفس وعلم الاجتماع يستخدمان اختبارات وإبحاثا تخضع نتائجها للمعالجة الإحصائية .

ومن الواضح أن الظاهرة تبلغ من التعقيد حدا لا نستطيع معه أن ننسبها الى سبب معين . ولذلك نلجأ الى فكرة الارتباط الإحصائي لكى نبين النسبة التى يسهم بها كل عامل من العوامل فى أحداث الظاهرة ، فنقول ان نسبة (او معامل) ارتباط العوامل الوراثية بارتكاب الجرائم هى كذا . . . ومن مزايا هذه الطريقة أنها تمكننا من تحليل الظواهر شديدة التعقيد ، وخاضة تلك التى تحدث فى مجال العلوم الانسانية ، حيث تتعدد عوامل الظاهرة الواحدة وتتشابك على نحو يستحيل فيه استخدام علاقة السببية المباشرة . كما أن من مزاياها أنها تتيح المقارنة ، بطريقة رقمية دقيقة ، بين هذه العوامل ، بحيث نستخلص مثلا ان العوامل المكتسبة أقوى تأثيرا فى ظاهرة الاجرام من العوامل الوراثية ، الخ (١٩) .

(١٨) د. زكريا إبراهيم : المرجع السابق ، ص ١٣١ .
(١٩) د. فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، الكويت : عالم المعرفة ،
١٩٧٨ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

ويعتبر علم الاجتماع أقل العلوم استخداما للتفكير الصوري Formal (الذى يتضمن الرياضيات) ، فهو يستخدم الرياضة بشكل أقل بالطبع من العلوم الفيزيائية وأقل من علم الاقتصاد ، وحتى علم النفس يستخدم الرياضة أكثر من علم الاجتماع . ومن أهم خصائص الرياضة التوضيح Clarification ، وعندما يتحقق لعلم ما درجة معينة من النضج العلمى فإن هذا يكون دائما مرتبطا ولو بشكل جزئى بالرياضة . ويعتبر أى فرع من فروع المعرفة علميا إذا ما تحدث بلغة خالية من الغموض والرياضة هى تلك اللغة (٢٠) .

وعلى الرغم من أن الرياضة تجعل العلوم الاجتماعية تقترب من العلمية إلا أنها لا تضمن الخطوات التى سبقتها ولا التاويلات التى تتلوها ، والمهم هو التاويل أو التفسير أى إدراك المعنى الخاص بالسلوك الاجتماعى .

أولا - الآراء المتعارضة حول مناهج البحث الملائمة للعلوم الاجتماعية :

تناول العلوم الاجتماعية بناء المجتمع والقوى التى تعمل فيه تماما مثل العلوم الطبيعية فى تناولها بناء المادة والقوى التى تعمل فيها . ويوجد ثلاث طرق للنظر الى بناء المجتمع :

الأولى : النظر الى المجتمع على أنه نوع من التطور وهى وجهة نظر بيولوجية للمجتمع باعتباره كائنا حيا لديه بناء من القيم والتنظيمات .

الثانية : النظر الى المجتمع على أنه من تأثير القوانين السببية التى

(20) R. Boudon . The Logic of Sociological Expanation
translated by T. Burns. London : Penguin Education 1974 p. 11.

قد تكون اقتصادية او تاريخية وهى نظرة حتمية للمجتمع فى حالة عدم توازن مستمر .

الثالثة : هى النظر الى المجتمع من وجهة نظر المخطط باعتباره نظام من المتغيرات نستطيع التحكم فيها لتغيير المجتمع كما نشاء .

وهذه النظريات غير قابلة للاختبار لانها نظريات فلسفية قد تقدم طريقا للبحث وطرقا للتأويل فى مواجهة مشكلة ما ، ولكنها غير قابلة للاختبار (٢١) .

وعندما يتصدى الدارس للعلوم الاجتماعية يقابل بمشكلة اساسية وهى عدم وجود اتفاق عام بين العلماء وفلاسفة العلم بشأنها . لقد بدأ هذا الخلاف فى القرن التاسع عشر وذلك حين بدأت العلوم الطبيعية تستقر وظهرت الدعوة بعلمية العلوم الاجتماعية وكان من الطبيعى أن تظهر وجهات نظر متعددة سواء بالنسبة لطبيعة موضوعات الدراسة وبالنسبة للمنهج الملائم للبحث .

ان هذا الخلاف لم يمنع العلوم الاجتماعية من التطور والنمو السريع سواء بالنسبة للمناهج وطرق البحث او بالنسبة للحصيلة الضخمة من المعلومات عن الظواهر الاجتماعية .

وحسب وجهة النظر الخاصة بإمكانية تطبيق مناهج الفيزياء نستطيع أن نصنف هذه المدارس الى الاتجاه الطبيعى او الوضعى Pro - naturalistic or positive والاتجاه اللاتبيعى او اللاوضعى anti - naturalistic or negative

وتأييد دارس المناهج للاتجاه الاول او الثانى او نظرية تضم الاثنين

معا يتوقف على آرائه عن طبيعة العلم الذى يدرسه وطبيعة موضوع
الدراسة وآراءه عن مناهج الفيزياء (٢٢) .

(١) الاتجاه الاول - وحدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية :

ينظر اصحاب هذا الاتجاه الى العلوم الانسانية باعتبارها فرعاً من
العلم الطبيعى . ومعنى هذا ان مادة العلاقات الانسانية اذا اريد لها
ان تكون علماء فلا مندوحة لها عن السير فى نفس الطريق المنطقى الذى
تسير فيه بقية العلوم الطبيعية ، وليس فى مادة العلاقات الانسانية
ما يتنافى مع استيفاء الشروط المنطقية الضرورية لكل بحث علمى ،
فالفرق بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية الأخرى هو فرق فى تعقد
التفاصيل وكثرتها ، مما يجعل مواقفها اعمر تناولا من المواقف الطبيعية
الأخرى ، ولكن ذلك يجعل تطبيق المنهج العلمى على العلوم الانسانية
اكثر صعوبة ولا يجعله من الناحية المنطقية مستحيلا (٢٣) وينتمى هذا
الرأى الى الاتجاه الطبيعى او الوضعى *or pro-naturalistic positive*
الذى ينادى بوحدة المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية
فالانسان ليس الا جزءاً من عالم طبيعى ويفسر فى نطاق التفسير العام
للنظام الطبيعى .

ويرى اصحاب هذا الاتجاه ان التمييز بين العلوم الاجتماعية
باعتبارها ايدىوجرافية *idiographic* تمتاز بتصورات فردية وتبحث

(22) Karl Popper. The Poverty of Historicism. London :
Routledge and Kegan Paul 1957. p. 2.

(٢٣) د. زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ، الجزء الثانى
فى فلسفة العلوم ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠٣ .

عن قضايا فردية جازمة أى تهتم بالوقائع الفردية عن الأفراد والأحداث والمواقف الحضارية ، وبين العلوم الطبيعية التى لها طبيعة نوموطيقية تعميمية وتمتاز بتصورات عامة وتبحث عن قضايا قاطعة ، هذا التمييز لا يعنى اختلافا أساسيا فى المنهج . فهناك مكونات تعميمية وإيديوجرافية فى كل العلوم الطبيعية والاجتماعية فالجغرافيا المادية هى علم طبيعى ولكنه إيديوجرافى كذلك التاريخ الجيولوجى لمسطح الأرض والفلك الوصفى . علاوة على ذلك فإن البحث عن قوانين موثوق بها فى العلوم الاجتماعية مستمر على الرغم من عدم نجاحه نجاحا أكيدا ، والنتيجة فى علم النفس وعلم النفس الاجتماعى والاقتصاد وعلم الاجتماع جديدة بالاحترام (٢٤) .

ويرفض أصحاب هذا الاتجاه التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية على أساس أن الأولى علوم دقيقة exact والثانية علوم غير دقيقة ، وفى الواقع أن الفرق بين النوعين من العلوم هو فرق فى الدرجة وليس من حيث المبدأ فالعلم يقال أنه دقيق إذا قدم التفسير والتنبؤ بطريقة معقولة وبالتالي بطريقة محددة للمفاهيم المستخدمة وظهر الاستنتاج عن طريق استخلاص منطقى - رياضى للغرض (وهو تقرير للواقعة المحتاجة الى تفسير أو تنبؤ) من البداهة evidence (وهو نوع من المعرفة المقبولة عن طريق الملاحظة) . أما عن استخدام العلوم الدقيقة للرموز الرياضية والقياس العددي فهذا عرض وليس خاصية أساسية . والدقة لا تنطبق على كل العلوم الطبيعية ولكن على بعض

(24) Hedbert Feigl . Principles of Concept Formation and Measurement. In R. Chisholm , R. Feigl W.F. Frankena and others (ed) Philosophy. New Jersey : Prentice Hall Inc. Engl wood Cliffs 1964.

مجالات الفيزياء ، فمثلا الهندسة المعمارية والطب يعتبران « علمين » ولكنهما غير دقيقين لأنهما يعتمدان على عمليات استنتاجية غير منهجية . بينما نجد ان علوما مثل الاقتصاد وعلم النفس يعطيان استنتاجات دقيقة وفى نفس الوقت لديهما اعتماد على احكام حدسية . فهذا يدل على ان ليس هناك حد فاصل بين العلوم الدقيقة وغير الدقيقة كما ان عدم الدقة ليس صفة قاصرة فقط على العلوم الاجتماعية (٢٥) بدليل ان بعض فروع العلوم الاجتماعية (اجزاء من علم السكان) متميزة بوجود نظرية رياضية مصاغة ومشابهة منهجيا للاجزاء الدقيقة فى الفيزياء (٢٦) . ويدعى الذين يفرقون بين العلوم الاجتماعية والطبيعية تفرقة من حيث المبدأ ان الأخيرة على الرغم من كونها غير دقيقة تماما الآن الا انها سوف تحقق الدقة تدريجيا بينما الأولى بسبب تعقد موضوع الدراسة وعدم الوصول الى الكمال فى معلوماتها القائمة على الملاحظة فلا بد ان تبقى غير دقيقة . الا ان هذه التفرقة المفترضة بين العلوم الفيزيائية بدقة مفاهيمها واستنتاجاتها وارتفاع الثقة بتنبؤاتها وبين العلوم الاجتماعية ذات المفاهيم الغامضة والتصورات الحدسية وعدم القدرة على التنبؤ ، هذه التفرقة زائفة - فى رأى ريكز - فضلا عن انها هى التى عوقت تطور العلوم الاجتماعية . ان المهم ليس ازالة عدم الدقة فى العمليات وفى القدرة التنبؤية ولكن الموضوعية هى المهمة هى التى تميز العلم عن العمل الحدسى (وهو المختلف عن العمل الحدسى الذى يؤدى الى اكتشاف) . ومتى وصلنا الى واقعة او فكرة جديدة مهما يكن اساسها الحدسى فلا بد ان تكون قابلة للخضوع للاختبار الموضوعى والتأكد من

(25) Nicholas Rescher Scientific Explanation. New York the Free Press 1970 p. 164 - 65.

(26) Ibid. p. 206.

قبل أى شخص . ان هذا المستوى من الموضوعية العلمية هو الذى تستند اليه العلوم الاجتماعية ولكن بطريقة ناقصة ، ويرفض ريكز اعتبار دقة الشكل والمنهج او درجة التنبؤ ركنين اساسيين للفرقة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية فيبقى لنا ان نبحث عن فارق معرفى خاص بقدرة كل منها على الوصول الى نفس مستوى الموضوعية . ويعتقد ريكز ان هذا الفارق لا وجود له وانه لا يمكن التفرقة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الفيزيائية على اساس منهجى ، ونستطيع بناء على ذلك اقامة اساس لمعرفة متمسكة لكافة العلوم غير الدقيقة سواء كانت اجتماعية او فيزيائية (٢٧) .

ويتبنى ماشلوب نفس الراى فهو يرفض الدقة بمعنى القياس او القدرة على التنبؤ بنجاح احداث مستقلة او التحول الى لغة رياضية . فالمعنى الصحيح للدقة exactness هو امكان بناء نسق نظرى من النماذج التى تحتوى على ابنية مجردة من المتغيرات ومن العلاقات بين المتغيرات ويمكن منها استنباط كل القضايا الخاصة بارتباطات معينة ، امثال هذه الأنسقة لا توجد فى كثير من العلوم الطبيعية - مثلا فى مواضع كثيرة من البيولوجيا - بينما توجد فى علم واحد على الأقل من العلوم الاجتماعية وهو علم الاقتصاد . اننا لا نستطيع التنبؤ بتطور أى نظام كما لا نستطيع القول انه ستوجد نظرية موحدة unified theory للعلوم السياسية مثلا ، او ان التعميمات فى علم الاجتماع ستندمج فى نسق نظرى شامل . أى ان صفة الدقة لا يمكن نسبها الى كل العلوم الطبيعية كما لا يمكن رفضها بالنسبة للعلوم الاجتماعية (٢٨) .

(27) Ibid. p. 166 - 167.

(28) Machlup. Are the Social Sciences really inferior in M. Natanson (ed) Cit, pp. 158 - 180 p. 168.

ويرى بوير أن المناهج فى مجالى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية متماثلة اساسا . فالمناهج تتكون من تقديم تفسيرات استنباطية حديثة واختبارها عن طريق التنبؤ ، وهذا ما يسمى أحيانا بالمنهج الفرضى - الاستنباطى - *hypothetical - deductive method* وإحيا يسنى بمنهج الفروض لانه لا يقدم يقينا بالنسبة للأحكام العلمية التى يقوم باختبارها ، بل ويمكن ان تحتفظ هذه الأحكام دائما بطابع المحاولة بالنسبة للفروض *tentative hypotheses* ان المهم فى مجال العلوم هو ان ندرك اننا نهتم دائما بالتفسيرات والتنبؤات والاختبارات وأن منهج اختبار الفروض دائما واحد (٢٩) .

لقد امر أصحاب هذا الاتجاه على ضرورة تطبيق مناهج البحث المستخدمة فى العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية . ويقدر تطبيق تلك المناهج بقدر ما تعتبر العلوم الاجتماعية واقعة فى مجال العلوم الطبيعية وبالتالي تعتبر علوما مستقلة *autonomous* . واعتبروا اى تقاعص فى هذا الاتجاه مسئولا عن البطء فى تقدم العلوم الاجتماعية فى مواجهة تقدم العلوم الطبيعية . وقد ذهب البعض الى ابعاد من ذلك عندما تصور أن التطور فى العلوم الاجتماعية لن يأتى من علماء اجتماعيين وإنما من آخرين خبراء فى مجالات أخرى والدليل على ذلك هو أن المساهمات فى علم النفس تاتى من افراد لهم خبرة فى الهندسة والفسيولوجيا والعلوم الطبيعية الأخرى . وهذا لا يعنى ان مساهمة العلماء الاجتماعيين سوف تكون غير ذات قيمة : انهم يساهمون ولا شك

(20) K. Popper. *Unity of Method in the Natural and Social Sciences* In D. Braybook (ed.) *Philosophical Problems of the Social Sciences* . New York : Macmillan Co. 1965, pp 32 - 41 , p. 33 .

وسوف يستمرون فى اظهار المادة والمشكلات والصعوبات فى ميدانهم .
ومع توفر المادة سوف يساهم العلماء الذين يملكون الاجهزة الفنية
technical equipments فى اهم انجازات العلوم الاجتماعية فى
المستقبل (٣٠) .

(ب) الاتجاه الثانى - هناك مناهج للعلوم الاجتماعية متميزة
عن مناهج العلوم الطبيعية :

سار الرافضون لفكرة الوحدة المنهجية على التفرقة التى وضعها
دلتاى ومن قبله ريكتر وفند لبند بين علوم ايدىوجرافية فردية وعلوم
نومطيقية عامة رافضين النظر الى العلوم الطبيعية كمثال أعلى للفهم
العقلى للواقع . انهم يؤكدون على وجود التعارض بين علوم مثل الفيزياء
او الكيمياء او الفسيولوجيا تهدف الى تعميمات عن ظواهر متكررة ويمكن
التنبؤ بها وبين علوم مثل التاريخ تريد ادراك الخصائص الفردية
لموضوعاتها . فالعلم فى رأى احدهم لا يبدأ من وقائع او فروض او حتى
من منهج ولكن يبدأ بمشكلة محددة . والعلم الاجتماعى لا يستثنى عن
هذه القاعدة . وبينما يواجه العلم الطبيعى مشاكل الواقعة فقط فان
العلم الاجتماعى يهتم بمشاكل الواقعة ومشاكل القيمة ايضا (٣١) .
ان العلوم تختلف لان الوضع فى ميادينها مختلف وما نتناوله بالدراسة
باعتباره مجالا للفيزياء قد يكون مجموعة من الظواهر حيث عدد
المتغيرات المرتبطة ذات المعنى صغير بحيث يسمح لنا بدراستها كأنها
تكون نسقا مغلقا نستطيع ان نلاحظه ونتحكم فى كل العوامل المحددة

(30) G. A. Lundberg Op. Cit. p. 39.

(31) F. S. C. Northrop . The Logic of the Sciences and the
Humanities. New York : The Macmillan Co. 1948 p. 255.

ونميز بينه وبين العوامل الأخرى التى تقع خارجه . ويكون من التناقض ان نفرض طريقا لم تفرق الا عن طريق شروط معينة ونطبقها على أنظمة تعتبر مختلفة بسبب عدم وجود هذه الشروط فى مجالها (٣٢) . فمن الخلل فى رأى هذا الاتجاه تطبيق المناهج التى ثبت نجاحها فى العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية لان ادخال تلك المناهج يؤدى فى العلوم الاجتماعية الى خلط كبير والنظرية العضوية مثال على ذلك . واذا كان هناك منهج يراد تطبيقه فلا بد من تحديده عن طريق خصائصه الفعلية المجردة فالفكرة فى كونه منهجا معترفا به فى علم ما قد يتأكد خطأها فيما بعد . كما ان المطلب الخاص بتطبيق منهج من علم آخر على العلم الاجتماعى كثيرا ما يفشل فى تحديد المدى الذى سيمتد اليه هذا المنهج : احيانا قد يفقد العلم الذى يأخذ بهذا المنهج استقلاله ويصبح فرعاً فى علم آخر (٣٣) .

ويقرر اصحاب هذا الاتجاه ان منهج العلوم الاجتماعية الملائم هو منهج الفهم بينما منهج العلوم الطبيعية هو التفسير ، وبينما يهدف التفسير - فى رأيهم - الى ايجاد علاقة من الخارج بين شيئين فان فهم الوقائع الانسانية يهدف الى الحصول على معنى من الداخل ، فلا يكفى الوصول الى قانون عام ولكن يجب ان اضع نفسى بشكل ما فى موضع هؤلاء الناس وافهمهم عن طريق التواصل . ويقول ناتانسون : ان الواقع الاجتماعى مكون من معان يعطيها الذين يقومون بالفعل على المسرح

(32) F. A. Hayek. The degrees of Explanation. in British Journal for the Philosophy of Science Vol . VI, August 1955 pp. 209 - 225. p.

(33) F. Kaufmann Methodology of the Social Sciences New York : Humanities Press 1965 p. 146.

الاجتماعى لافعالهم ومواقفهم . ان وعى الفاعل او ذاتيته هو دعامة الفعل الاجتماعى . والموضوع الرئيسى فى فلسفة العلوم الاجتماعية هو لقاء الضوء واعادة بناء للخصائص الرئيسية للنظرة الذاتية Subjectivity لانها تؤسس وتبنى العالم الاجتماعى (٣٤) .

فى العلوم الطبيعية نجد مسلسلة اطراد او اتساق الطبيعة ، فكون الواقع الطبيعى يخضع للبحث العلمى قد تاكد من خلال تاريخ العلم ويتيح أكثر من أساس مقبول لافتراض ان ذلك سوف يستمر فى المستقبل ، ولكن الافتراض يظل افتراضا وليس هناك دليل اكيد على ان المستقبل موفى يكون مثل الماضى . ولكن من أجل العمل العلمى يكتفى بالمسلسلة التى تقول بالاطراد . وفى العلوم الاجتماعية هناك موقف مشابه ففيه ايضا افتراض ان التحليل المنظم ممكن لأن الواقع الاجتماعى من حيث المبدأ مفهوم comprehensible ولكن قبل ان نحصر اهتمامنا فى معرفة الواقع لابد ان نحدد ما اذا كانت المعرفة نفسها ذات قيمة ففى اساس كل معرفة تعهد ما للقيمة التى فيه (٣٥) . ان الفينومينولوجيا المعاصرة - وهى من أبرز المذاهب المتبنية للاتجاه اللاتبيعى - تنادى بمنهج الفهم أى التوصل الى « المعانى » المعاشة عن طريق هؤلاء الذين يشتركون فى هذه الواقعة الاجتماعية أو تلك . وتعتبر العالم التواصلى intersubjective تكون نتيجة نشاط الوعى ، اما العلم الطبيعى فهو أحد مظاهر انتاج الوعى .

وبينما تتعامل العلوم الطبيعية مع علاقات ثابتة وموضوعات مادية قابلة للقياس وتخضع للتجارب فان العلوم الاجتماعية تفتقد للقياس

(34) M. Natansen (ed). *Philosophy of the Social Sciences*.
a reader. p. 186.

(35) Ibid. p. 20.

والتجارب وتتعامل مع موضوعات نفسية ومعنوية . ان الهدف الاساسى للعلوم الاجتماعية - فيما يرى شوتس - هو الحصول على معرفة منظمة « للواقع الاجتماعى » ويقصد به المجموع الكلى للموضوعات Objects والأحداث Occurences داخل العالم الاجتماعى الحضارى كما يشعر بها الناس العاديون الذين يعيشون حياتهم مع زملائهم ويرتبطون معهم بعلاقات تفاعل : انه عالم الموضوعات الحضارية والتنظيمات الاجتماعية التى نشأنا فيها والتى يجب ان نتلاءم معها . فمن البدء نحن القائمون بالأفعال فى المشهد الاجتماعى نختبر العالم الذى نعيش فيه كعالم طبيعى وحضارى فى نفس الوقت ، وليس باعتباره قاصرا علينا فقط ولكن باعتباره مشتركا لنا جميعا ، اما معطى حاليا او ممكن الوصول اليه من جانب أى شخص ، وهذا يتضمن اتصالا ولغة (٣٦) .

ان على النظرية التى تهدف الى تفسير الواقع الاجتماعى ان تطور اساليب خاصة غريبة عن العلوم الطبيعية وذلك لكى تتفق مع التجربة العادية للعالم الاجتماعى . وهذا فعلا ما قامت به العلوم النظرية للشئون الانسانية - اقتصاد ، اجتماع ، قانون ، لغويات ، انثروبولوجيا حضارية .. الخ (٣٧) . ان تخلف الدراسات فى العلوم الاجتماعية فى رأى هذا الاتجاه - ترجع فى الدرجة الأولى الى الاعتقاد بإمكان تطبيق مناهج العلوم الأكثر تقدما خاصة الفيزياء ، على العلوم الاجتماعية . ان الوحدة المنهجية فى رأيهم مرفوضة لأنها تقوم على افتراض غير مؤكد فحواه ان الطرق المستخدمة من قبل العلماء الطبيعيين هى وحدها العلمية -

(36) A. Schutz . Concept and Theory Formation in the Social Sciences in Natanson (ed). Op. Cit. p. 236.

(37) Ibid. p. 241.

ثانيا - الظاهرة الاجتماعية أو موضوع الدراسة :

اختلفت الآراء حول موضوع دراسة العلوم الاجتماعية وهو الظاهرة الاجتماعية فالبعض رآها فى بساطة الوقائع الطبيعية وقال انها تخضع للدراسة العلمية الدقيقة والبعض الآخر جاهر بتعقدها وصعوبة اخضاعها للمنهج العلمى بسبب اختلافها البين عن الواقعة الطبيعية ، وبين هذا الطرف وذاك آراء متعددة قد تعترف بصعوبة مادة الدراسة الاجتماعية ولكنها تقبل فكرة دراستها علميا . بل لقد تطرف البعض الى درجة عدم اعتبار العلوم الاجتماعية علوما على الاطلاق .

(١) الموقف الطبيعى :

يرى اصحاب هذا الراى ان الاختلاف الظاهرى بين المعطيات فى العلوم الاجتماعية والمعطيات فى العلوم الاجتماعية قد نشأ أساسا من الفشل فى الاعتراف بأن المعطيات المباشرة فى كل العلوم هى استجابات انسانية لآى شئ قد اثار تلك الاستجابات . فالمعلومات فى عالمنا تعرف عن طريق الاستجابات الانسانية ومنها نستخلص وجود اى ظاهرة وخصائصها . ان العادة أو الفكرة أو المعتقد كمعطيات تعتبر حقيقية ، وملموسة ، وملاحظة ، وقابلة للقياس اى تخضع للدراسة العلمية مثل قطعة الحجر أو المنضدة أو الحصان . والتطور العلمى يعتمد على نوع الرموز التى نطورها لتمثل الظواهر التى نستجيب لها فمثلا رموز مثل الشرف ، والواجب ، والوفاء ، تخضع مع السلوك الذى تمثله للملاحظة وتعتبر موضوعات للدراسة الموضوعية تماما مثل لعبة البيسبول أو طيران الطيور الموسمى ، أو انطلاق الشرارة الكهربائية (٣٨) . معنى ذلك ان

تصنيف الموضوع الى « طبيعى » او « مادى » او « حضارى »
او « اجتماعى » لا غبار عليه بشرط الا يترتب عليه افتراض ان هذه
التصنيفات تؤثر على الطريقة التى بها نتعرف على الظاهرة محل البحث .

ويؤكد جون ستوارت مل ان هناك خلطا لا شك فيه لدى الذين
يعتقدون ان افكار وحاسيس وافعال البشر ليست موضوعا للعلم كما هو
موجود بالنسبة لموضوعات الطبيعة الخارجية . فإى واقعة تحدث هى
موضوع للعلم حتى لو لم نتيين الآن القوانين التى تحكمها وحتى لو لم
تكن تلك القوانين قابلة للاكتشاف بواسطة امكانياتنا الحالية . ونستطيع
ان نأخذ كمثال فى العلوم الطبيعية ظواهر الأرصاد الجوية Meteorology
مثل المطر او اشعة الشمس وسوف نجد ان البحث العلمى حتى الآن لم ينجح
هى تأكيد تسلسل السوابق والنتائج فى تلك الظواهر حتى يكون فى امكانه
التنبؤ بحدوثها بشكل مؤكد او حتى بدرجة مرتفعة من الاحتمال فى
مكان ما من الكرة الأرضية . ولكن هذا لم يمنع ان تكون تلك الظواهر
معتمدة على قوانين وان هذه القوانين لابد ان تكون مشتقة من قوانين
أخرى معروفة مثل قوانين الحرارة والكهرباء والتبخير . الخ . كما لم
يمنع هذا من النظر الى علم الأرصاد الجوية باعتباره علما ، الا ان
صعوبة ملاحظة الوقائع التى تعتمد عليها ظواهره تجعل منه علما ناقصا
imperfect . وكذلك علم الفلك فقد كان علما غير دقيق حتى امكن
ادراج ظواهره تحت قوانين فتحول الى علم دقيق . وكذلك العلوم
الانسانية من الممكن اعتبارها فى مكانة علم الفلك قبل ان يصبح
علما دقيقا (٣٩) .

ان الفارق الاساسى بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية يكمن

(39) John Stuart Mill On the Logic of the Social Sciences
(book VI of Mill's A System of Logic) in Philip Wiener (ed.)
Readings in Philosophy of Science. Op. Cit. p. 247.

فى عدد العوامل التى لابد من اخذها فى الاعتبار اثناء عمليات التفسير والتنبؤ بالنسبة للأحداث الطبيعية والأحداث الاجتماعية ، الا ان هذا الاختلاف هو اختلاف فى الدرجة فقط . وكما ان الظواهر فى العالم الطبيعى ليست متجانسة كما يظن الكثيرون ، فان الظواهر فى العالم الاجتماعى ايضا ليست متغايرة بالصورة التى يخشى كثيرون ان تكون عليها . وعندما يبدو الواقع متضمنا عددا كبيرا من الاختلافات فنحن نبني عالما مثاليا من النماذج المجردة ونوجد فيها ما يكفى من التناسق لى نطبق العقل *reason* ونستنبط منها النتائج المنتظرة للأشياء المفترضة . ويتبع هذا التجانس المصطنع لأنواع من الظواهر فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية على السواء . ليس هناك اذن اختلاف بين ثبات حدوث الظواهر فى الطبيعة وفى المجتمع مادما نقوم بعملية *Theorize* لها . هناك فقط فرق فى الدرجة بين التغير فى ظواهر الطبيعة والمجتمع اذا كنا بصدد الحديث عن العالم الواقعى . ولكن لابد الا نفعل وجود عالم ثالث يقع بين العالم المجرى للنظرية والعالم الحقيقى غير الممكن التعامل معه ، وهو العالم الصناعى للمعمل التجريبي . فى هذا العالم هناك تغير اقل من العالم الطبيعى واكثر من العالم النموذجى *model* ، ولا يوجد هذا العالم الثالث فى أغلب العلوم الاجتماعية كما يفتقد فى بعض العلوم الطبيعية ، ويحدث الخطأ من مقارنة العالم الصناعى للمعمل الذى نستطيع ان نتعامل معه بالعالم الحقيقى للمجتمع الذى لا نستطيع التعامل معه (٤٠) .

ويرى بوبر ان موضوعات العلوم الاجتماعية هى موضوعات مجردة *abstract* فهى بناءات نظرية (حتى « الحرب » او « الجيش » تعتبر مفاهيم مجردة) . هذه الموضوعات المستخدمة فى تاويل تجربتنا

ليست الا نتيجة اقامة بعض النماذج *models* (وصفة خاصة للأنظمة *institutions*) من أجل تفسير بعض التجارب ، ويعتبر هذا منهجا نظريا مالوفا فى العلوم الطبيعية ، حيث نقوم ببناء نماذج للذرات ، او الجوامد ، او السوائل ... انه جزء من منهج التفسير عن طريق الرد أو الاحالة أو الاستنباط من الفروض (٤١) .

وإذا كان تحليل أى موقف اجتماعى واقعى يزداد صعوبة نظرا لتعقده فإن هذا ينطبق أيضا على أى موقف تجريبى واقعى . ان القول بأن المواقف الاجتماعية أكثر تعقيدا من المواقف التجريبية هو ادعاء ينتج عن مصدرين :

الاول : هو قيامنا بالمقارنة بما لا يجب المقارنة به أى المقارنة بين المواقف الاجتماعية الواقعية والمواقف التجريبية المعزولة صناعيا .

والمصدر الثانى : هو الاعتقاد فى ان وصف أى موقف اجتماعى يتطلب معرفة بالحالات العقلية وأحيانا بالحالات الفيزيائية لكل من يعنيه الأمر (٤٢) .

وإذا تسألنا كيف السبيل الى دراسة تلك الظواهر الانسانية فأننا نجد الاجابة لدى عدد من رواد هذا الاتجاه . ان لندبرج يرى ان التصورات والأفكار والأحاسيس تعبر عن نفسها من خلال سلوك رمزى او عصبى - عضلى وهذا يصدق على الظواهر الاستبطانية مثلما يصدق على الظواهر المفترض نشؤها خارج الملاحظ . ان افتراض عدم خضوع

(41) Popper. *Unity of Method in the Natural and Social Sciences* Op. Cit. p. 36.

(42) *Ibid.* p. 39.

المعطيات الخاصة بالوعى للدراسة الموضوعية تنشأ عن الحالة غير المتطورة لطريقة الدراسة . ان الخطأ - فى رايه - يكمن فى افتراض أن الطابع الهادف أو القصدي التى نحب ان ننسبها الى السلوك المجتمعى هى طابع جوهرى للسلوك بدلا من أن نقول انها طريقتنا الجميلة لوصفه . ولذا فمن الضرورى القيام بالبحث الدقيق لكل الظروف المؤثرة فى السلوك الملاحظ(٤٣) . وإذا استطعنا تطوير وسائل استجابية تتيح المراجعة والتأكد من الاستجابات الخاصة بأشياء نعتبرها الآن غير ملموسة فإنها تتحول الى اشياء ملموسة .. وسوف يساعد على التقدم فى هذا الموضوع وضعنا لهذا الكلام كفرض عملى *working hypothesis* ممكن حدوثه وليس آمنا خيار الآن الا قبول هذا الفرض اذا اردنا أن نخضع تلك المعطيات لمجال العلم(٤٤) . اما المناقشة الخاصة بكون المعطيات الطبيعية والاجتماعية « متطابقة » أو « متشابهة » ففى رأى لندبرج أنها غير ذات أهمية لأنه ليس هناك ظاهرة فى العالم متطابقة مع ظاهرة أخرى ، والاعتراف بأن الظواهر « الاجتماعية » مختلفة عن « الطبيعية » ليس له أهمية الا اذا حددنا اختلافها فى اى النواحي لأن كل الظواهر مختلفة فى نواح معينة . كما أن كل الظواهر متشابهة فى ناحية هامة وهى كونها جميعا مدركة عن طريق الحواس ويعتبر هذا الشبه هو الوحيد الذى يهمنا فى المناقشة الحالية لأننا نهتم بالطرق التى عن طريقها نستطيع التوصل الى المعرفة الصحيحة *Valid Knowledge* (٤٥) .

أما « ناجل » فيتناول الظاهرة الاجتماعية باعتبارها متغيرا

(43) Lundberg . Op. Cit. p. 66.

(44) Ibid. p. 58.

(45) Ibid. p. 68 - 69.

اجتماعيا ، ملاحظا ان هناك صعوبة هامة متعلقة بالبحث فى الظاهرة نفسها ، وتتمثل هذه الصعوبة فى الطريقة التى تجرى بها التجارب على موضوع دراسة اجتماعية والتى قد تدخل تغييرات على مادة الدراسة : فاذا افترضنا - كما يقول ناجل - ان القائمين بالدراسة قد دربوا جيدا ولا يدخلون تغييرات جوهرية على المعلومات التى يجمعونها فان المشكلة تبقى ما اذا كانت الاجابات فعلا تعبر - بسبب معرفة المستجيبين باستجوابهم - عن آراء واتجاهات كانوا يعتقدون فيها قبل المقابلة وسوف يعتقدون فيها بعدها . ان كون المستجيب يعلم بانه موضوع يهم السائل ، بالاضافة الى تفكيره فى النتائج التى قد تستخلص من اجاباته على موضوعات تشغله ، بالاضافة الى الطريقة التى تسير بها المقابلة ، كل هذا قد يأتى الى الموقف بمؤثرات يكون لها تأثير على الاستجابات التى تصدر عنه - المستجيب - وذلك اما عن طريق اعطاء اجابات مؤكدة على موضوعات لم يفكر فيها من قبل او عن طريق ذكر آراء لا تمثل معتقداته الحقيقية ولا تعبر عن سلوكه المعتاد . وبالتالي فاذا كان هناك فرض تجمع هذه المعلومات لتأكيد هذا الفرض لا يمكن ان يقيم على اساس هذه المعلومات . وعلى الرغم من أهمية هذه الصعوبة الا انها ليست فريدة وقاصرة على العلوم الاجتماعية وحدها ، فدارسو العلوم الطبيعية يستخدمون أدوات قياس قد تحدث تغييرا فى البعد المقياس فمثلا الحرارة التى نحصل عليها من ترمومتر وضع فى سائل لا تمثل حرارة السائل قبل وضع الترمومتر فيه ، لأن حرارة الترمومتر قبل وضعه فى السائل كانت مختلفة عن حرارة السائل وبالتالي فان درجتى الحرارة الاولييتين سوف تتغيران قبل أن يصبح الترمومتر والسائل فى حالة توازن حرارى . المشكلة اذن تنشأ فى كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية لأن التغير فى موضوع الدراسة يحدث بواسطة الطرق المستخدمة لبحث هذا الموضوع . وتستطيع العلوم الاجتماعية أن تستخدم طرقا للبحث بواسطتها لا تحدث هذه الصعوبة اطلاقا او تحدث بطريقة اقل

حدده - مثلا باستخدام طرق للملاحظة السلوك الاجتماعي دون أن يعلم المشتركون أنهم يخضعون للملاحظة ، أو باستخدام ما يسمى « بالطرق الاسقاطية » حيث يعلم الأشخاص أنهم يخضعون للدراسة ولكنهم لا يعلمون بأهدافها (٤٦) .

(ب) الموقف اللاتبيعي :

يرفض اصحاب هذا الاتجاه الاقرار بوجود اى تشابه بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية فهناك فارق واضح بين وحدة المجتمع ووحدة الطبيعة . ويقول « زمل » فى هذا الصدد : « ان رأينا مثل رأى كانت Kant وهو ان وحدة الطبيعة تنبع من ملاحظة شخص وهى تنتج عنه تجاه الأشياء الحسية وعلى اساسها وهذه الأشياء الحسية فى ذاتها متغيرة الخواص . وعلى العكس من ذلك فان وحدة المجتمع لا تحتاج الى ملاحظة فهى شئ مدرك بواسطة عناصره لأن هذه العناصر نفسها وحدات واعية مركبة » (٤٧) .

ويتفق اصحاب هذا الاتجاه مع الاتجاه الطبيعى فى القول يتعقد موضوع دراسة العلوم الاجتماعية الا أنهم يرون على عكس الاتجاه الآخر ان هذه الصعوبة لا يمكن التغلب عليها وانها قاصرة فقط على العلوم الاجتماعية ولا يوجد مثل لها فى مجموعة العلوم الطبيعية . ويرتبط تعقد دراسة الظواهر الاجتماعية فى المقام الأول - فيما يرى كوهين - بقلة تكرار تلك الظواهر لدرجة انها تصبح ظواهر تاريخية . فالحقيقة

(46) E. Nagel . Structure of Science . New York : Harcourt, Brace and World 1961, p. 466 - 467.

(47) G. Simmel. How is Science of Society Possible ? in M. Natanson (ed.) Op. p. 74.

الماضية لا يمكن ملاحظتها مباشرة وإنما يكتفى بتأكيد حدوثها عن طريق التفكير Reason في الاحتمالات المفترضة . ثم ان التغير الكبير الذي يحدث في الظواهر الاجتماعية يمكن النظر اليه على أنه صورة أخرى لتعقدها . فبينما كل منتيمتر من الهيدروجين يشبه الآخر فإن ملاحظة مجتمع ما لا يمكن تطبيقها على مجتمع آخر . ان التفكير في أمثلة من الواقع الاجتماعى يعتبر مجازفة فكرية لأننا من النادر ان نهرب من الانتقاء وبالتالي نجد انفسنا ننسب الى الكل ما هو صادق فقط بالنسبة الى اللحظات المختارة . حقا انه فى بعض المسائل الاجتماعية يمكن معاملة الأفراد باعتبارهم متشابهين : فى الاحصاءات الحيوية مثلا ، كل ميلاد او وفاة يعتبر مثل الآخر بغض النظر عن الفرد فى حد ذاته . الا ان تطبيق القواعد فى مجال العلوم الاجتماعية يعتبر محدودا جدا بالنسبة لتطبيق القوانين فى العلوم الطبيعية .

ويعتمد كوهين على « منطق مل » ليصور صعوبة الملاحظة المباشرة للظواهر الاجتماعية وصعوبة عزل عامل واحد فى زمن معين ، يقول « مل » انه يكفى أحيانا وجود ملاحظة واحدة أو تجربة واحدة للحصول على نتيجة قاطعة وفى حالات أخرى لا يكفى عدد كبير من الملاحظات للحصول على نفس النتيجة . ولتفسير ذلك يرى كوهين أن العلم الطبيعى يستطيع أن يعزل العامل ويتحكم فيه بحيث تأتى النتيجة مستبعدة لفرض ما من الفروض . ولكن فى حالة وجود أسباب متعددة وصعوبة عزل عامل واحد - كما هو الحال فى العلوم الاجتماعية - فإن استبعاد فرض واحد من عدد كبير من الفروض لا يعطى أى تقدم فى سبيل إقامة السبب المحدد . ان المواقف الاجتماعية متشابكة ولا يمكن للفرد ان يغير عاملا وإحداث دون التأثير على عوامل أخرى كثيرة . ومن هنا كانت صعوبة تحديد التأثيرات المعينة لعامل ما . كما أن سلوك الأفراد فى مجموعة كبيرة ليس كسلوكهم فى مجموعة أصغر وهذا يجعل من الصعب

تطبيق الطرق الرياضية - التى اتت بنتائج فى العلوم الطبيعية - على العلوم الاجتماعية لأن هذه المناهج تعتمد على قدرتنا على الانتقال من عدد صغير من الأمثلة *instances* الى عدد غير محدود بواسطة عملية الجمع أو الادمج *summation or integration* بالإضافة الى ذلك فإن القلة فى عدد الملاحظات يجعل تطبيق المنحنى الاحتمالى مصدرا لأخطاء خطيرة . وفى العلوم الاجتماعية هناك اختلاف فى الآراء اوسع مما هو موجود فى العلوم الطبيعية كما ان التجربة أصعب ومن هنا نجد أننا نتمسك بافتراضاتنا الأولى بحيث تشكل هذه الافتراضات ما نتقبله باعتباره حقائق أو وقائع كما ان النظرة الذاتية الى الوقائع تجعل العلماء المختلفين يرونها بصورة مختلفة ويرجع ذلك ليس فقط الى احتمال ان العلماء المختلفين لاحظوا اشياء مختلفة ولكن ايضا الى ان الوقائع الاجتماعية نفسها قد تغيرت (٤٨) .

ان موضوع دراسة العلوم الاجتماعية هو الفرد والمجتمع وهذان القطبان لا يتمثلان فى مجرد سلوك يخضع للدراسة بطريقة آلية وانما هناك علاقة دياكتيكية نحتاج الى منهج خاص لكى نفهمها . ان الداخل *Within* والخارج *Without* بين الفرد والمجتمع على نحو ما يرى زمل ليسا شيئين منفصلين وانما هما يحددان معا الموقف المتسق للانسان باعتباره حيوانا اجتماعيا . ان وجود الفرد اذا حللنا محتوياته ليس مجرد جزء اجتماعى وجزء فردى ولكنه ينتمى الى الفئة الأساسية والحاسمة والثابتة للوحدة التى نستطيع ان نقول عنها انها تركيب أو تعاقب خاصيتين متعارضتين منطقيا للانسان : الخاصية الخاصة بوظيفته

(48) M. R. Cohen Reason in Social Scial Science. in H. Feigl and M. Brodbeck (eds.) Readings in the Philosophy of Science. New York : Appleton Century Crofts Inc. 1953. pp. 664 - 667.

كعضو فى المجتمع ونتاج ومحتوى له والخاصية المقابلة التى تقوم على وظائفه ككائن مستقل والتى تتوجه الى حياته من خلاله هو ومن أجله هو . ان المجتمع لا يتكون من مجرد أفراد غير مجتمعين ولكن من كائنات تشعر من جهة بأنها موجودات اجتماعية كاملة ومن جهة أخرى - بدون ان تغير من محتواها - بأنها موجودات فردية كاملة . . . ان الصفات الفطرية والعلاقات الشخصية والخبرات الحاسمة تجعل لكل شخص فردية وعدم تكرار سواء فى تقدير الشخص لنفسه او فى تفاعله مع الآخرين (٤٩) .

يتركز اذن الموقف الثانى من موضوع الدراسة فى القول بتعدد موضوع الدراسة الاجتماعى ، ففهم الآخرين لا يمكن ان يصل الى درجة الدقة الموجودة فى علوم مثل الفيزياء والكيمياء لتمييز هذين الآخرين ببساطة موضوع الدراسة . كما ان طبيعة هذا الموضوع (الانسان) يجعل من الصعب التوصل الى احد الأهداف الهامة للعلم وهو التنبؤ .

ثالثا - مشكلات منهجية :

لقد واجه دارسو العلوم الاجتماعية مشكلات وعقبات فى سعيهم نحو اقامة مجالات اهتمامهم على اساس علمى . ان وجود علوم طبيعية متطورة على اساس منهجى سليم مثل بالنسبة لهم التحدى الذى يجب عليهم مواجهته للوصول بعلومهم الى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية .

ان دراسة المجتمع والسلوك الانسانى قديمة ولكن « النظرية » الاجتماعية التى نشأت من هذه الدراسة فى الماضى هى فى المقام الاول فلسفة اجتماعية وخلقية وعلى الرغم من التاريخ الطويل للاهتمام بالظواهر الاجتماعية فان الناتج العلمى يعتبر حديثا . وفى الواقع انه

(49) Simmel Op. Cit., p. 86 - 87.

لم يتكون بعد نسيج متكامل من القوانين العامة فى أى مجال من البحث الاجتماعى يماثل النظريات فى العلوم الطبيعية سواء من ناحية القوة التفسيرية او القدرة على التوصل الى تنبؤات يعتمد عليها (١) . ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة أبرزها عدم وجود اتفاق بين الدارسين حول اوضاع العلوم الاجتماعية ككل . الا ان هذا لا يعنى ان تلك العلوم لم تخط على ايدى العلماء خطوات واسعة فى سبيل وصف الظواهر ومحاولة تفسيرها من اجل اقامة سياسة اجتماعية سليمة . ومن المفيد بعد ان عرضنا للآراء الخاصة بالمنهج وبالظاهرة الاجتماعية ان نتعرض للصعوبات التى تواجه البحث الاجتماعى . وتدور تلك الصعوبات حول محاور ثلاثة :

(ا) شكل البحث الاجتماعى .

(ب) التعميم والتنبؤ .

(ج) القيم .

(د) شكل البحث الاجتماعى :

تحتاج العلوم المختلفة الى التجريب لكنى تثبت من كافة الفروض التى تصوغها وهى بصدد دراسة الظاهرة محل البحث . ويعتبر خضوع الفرض للتثبت عن طريق التجربة احدى الخصائص البارزة فى العلوم الطبيعية واحدى المزايا التى تتفوق بها . الا ان اختبار الفروض عن طريق التجارب ليست خاصية عامة فى كل العلوم الطبيعية كما انها لا تمثل حداً فاصلاً بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية - فيما يرى همبل - لأن الاختبار التجريبي experimental test يستخدم فى

علم النفس وبدرجة أقل فى علم الاجتماع ويتزايد استخدامه مع التطور العلمى . كما ان بعض الفروض فى العلوم الطبيعية لا تسمح بالاختبار التجريبى وفروض علم الفلك دليل على ذلك (٥١) .

ان استخدام التجارب فى العلوم الطبيعية يستند فى الدرجة الاولى الى القول باطراد الطبيعة : ففى الامكان فى ضوء ظروف متماثلة وتحت شروط معينة انتاج نفس النتائج . وفى العلوم الاجتماعية نواجه صعوبة هامة وهى ايجاد الظروف المتماثلة لأن الظروف تتغير من موقف الى آخر ويرجع هذا الى تعقد الظاهرة الاجتماعية ، وعلى حين أن الظواهر الطبيعية تخضع للتجريب بسهولة فإن التجريب على الانسان شاق وفى بعض الاحيان يكون مستحيلا ، لأن اخضاع نواح معينة من الذات الانسانية للتجريب ربما لى الى القضاء على كل ما هو مميز لها ، بحيث تختفى الظاهرة الانسانية المراد بحثها بمجرد ان تصبح موضوعا للتجريب (٥٢) .

يصف ناجل التجربة فيقول : يقوم المجرى بتطويع بعض المقومات (وتسمى بالمتغيرات variables أو العوامل factors) ، وفى الموقف يفترض أنها تمثل شروطا لحدوث الظاهرة موضع الدراسة . ويتغير بعض منها - الموقف المثالى يتطلب تغيير عامل واحد فقط - والحفاظ على الأخرى ثابتة ، يستطيع الملاحظ أن يدرس تأثير هذا التغيير على الظاهرة ويكتشف علاقات الاعتماد الثابتة بين الظاهرة

(51) C . G . Hempel Philosophy of Natural Sciences. New York Prentice Hall Foundations of Philosophy Series. 1966, P. 22 .

(٥٢) د . فؤاد زكريا : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، مجلة الطلبة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ ص ١٨٧ .

والتغيرات . هذه التجربة لا تتضمن فقط اجراء تغيير فى المتغيرات ولكن تتضمن ايضا احداث تأثيرات - كنتيجة لهذا التغيير - على الظاهرة موضع البحث . الا ان التجربة بهذا المعنى - فيما يرى نايجل - لا يمكن اجراؤها الا نادرا فى العلوم الاجتماعية لأن العلوم الاجتماعية لا تملك القوة على احداث التغيير التجريبي على المادة الاجتماعية ذات الاهمية العلمية ... واكثر من هذا فان التغيير المقصود على موقف اجتماعي يؤدى الى تعديل فى المتغيرات الأخرى المرتبطة . وتكرار هذا التغيير من اجل الوصول الى تحديد ما اذا كانت التأثيرات الملحظة ثابتة سوف يحدث على متغيرات ليست فى نفس الظروف الأصلية . ولما كنا لا نستطيع ان نحكم ما اذا كانت التأثيرات هى نتيجة للتعديلات التى حدثت فى الحالات الأصلية للمتغيرات او ناتجة عن التعديلات فى الظروف الأخرى للتجربة فانه يصبح من المستحيل علينا ان نحدد بواسطة التجربة ما اذا كان التغيير الذى طرأ على الظاهرة الاجتماعية يرجع الى تعديل فى متغير معين ام لا . وبالإضافة الى ذلك فان مدى التجريب فى العلوم الاجتماعية محدود جدا لأن التجربة المضبوطة ممكنة فقط اذا أمكن اجراء تغييرات ملحظة فى الظاهرة موضع الدراسة - وهو احتمال بعيد بالنسبة للظواهر الاجتماعية التى لا تتكرر وتعتبر فريدة تاريخيا(٥٣) .

ولكن هل صعوبة اجراء التجربة فى العلوم الاجتماعية تعتبر عائقا فى سبيل اقامة هذه العلوم على اساس من القوانين العامة ؟ فى الواقع ان العلوم التى تريد التوصل الى قوانين عامة تستخدم - فى حالة عدم قدرتها على اللجوء الى التجربة المضبوطة - ما يسمى بالبحث المضبوط Controlled investigation وهو عبارة عن البحث عن موافق

متغيرة حيث تكون الظاهرة اما واقعة بانتظام او تحدث فى بعض حالات وليس فى حالات أخرى ، ويفحص هذه العوامل فى تلك الأحوال يمكن معرفة ما اذا كان التغير فى هذه العوامل مرتبطا بالتغيرات فى الظواهر ام لا . ويطلق على البحث الذى يستخدم هذه الطريقة « بحث تجريبى مضبوط *Controlled emperical inquiry* » (٥٤) .

ولكن هل تخلو العلوم الاجتماعية فعلا من التجربة ، فى الواقع اننا نجد نوعين من التجريب فى العلوم الاجتماعية : التجربة العملية *laboratory experiment* والتجربة الميدانية *field experiment* ويوضح ناجل النوع الأول مبينا انه شبيه بالتجربة العملية فى العلوم الطبيعية . وهى تتضمن بناء موقف صناعى فى الحياة الاجتماعية شبيه بالموقف « الواقعى » فى بعض الجوانب ولكنه يتفق مع متطلبات فى العادة غير موجودة فى الموقف الواقعى من حيث ان بعض المتغيرات (وهى المفترض مسئوليتها عن حدوث الظاهرة) تخضع للتحكم فى الموقف المعلى بينما يمكن الحفاظ على بعض المتغيرات الأخرى ثابتة تقريبا . هذه التجربة وإن كانت مستخدمة فى مجالات من البحث الاجتماعى الا ان كثيرا من الدراسات الخاصة بالظواهر الاجتماعية لا تستعين بها . وقد كانت هذه التجارب مفيدة فى أبحاث علم النفس مثل الدراسات الخاصة بسلوك الأطفال . الا ان هناك تحذيرا هاما بالنسبة للتجربة العملية وهى انها لا تصلح وحدها للوصول الى التعميم ولابد من بسط البحث الى البيئات الاجتماعية الطبيعية *Natural Social environments* . اما النوع الثانى من التجارب وهو المسمى بالتجربة الميدانية فيتخذ كموضوع دراسة المجتمع « الطبيعى » *natural* بحيث يمكن التحكم فى بعض المتغيرات والتأكد عن طريق المحاولات المتكررة ما اذا كانت التغيرات الحادثة فى المتغيرات تنتج اختلافات

محددة فى بعض الظواهر الاجتماعية أم لا . وفى إحدى هذه التجارب الميدانية مثلا أجريت تعديلات فى طريقة تنظيم عمل جماعة من العاملين فى مصنع مع تحديد مختلف أنماط التنظيم فى البحث . وأمكن التوصل الى أن الجماعات التى تطبق عليها أنظمة « ديمقراطية » أكثر إنتاجية من الجماعات التى نظمت بطريقة أقل ديمقراطية . ولا شك أن للتجربة الميدانية مزايا أكثر من التجربة العملية إلا أن الصعوبة هى فى الحفاظ على متغيرات ثابتة (٥٥) .

التجريب إذن ممكن على نحو خاص فى العلوم الاجتماعية ، وعدم شيوخه لا يعنى استحالة . فإذا أمكن التغلب على بعض العوائق مثل ارتباط الفروض المتعارضة مع الوقائع الملاحظة وأمكن استبعاد بعض هذه الفروض وتحديد المتغيرات فإن التجربة تصبح ممكنة مع وضع طبيعة الظاهرة الاجتماعية فى الاعتبار .

(ب) التعميم والتنبؤ :

ارتبط التعميم فى العلوم الاجتماعية بوجهة النظر الخاصة بكل من الظاهرة الاجتماعية والمنهج الملائم للبحث . إن أغلب الذين رفضوا منهج العلوم الطبيعية باعتباره صالحا للتطبيق على العلوم الاجتماعية ، وطالبوا بمنهج يتلائم مع الطبيعة الخاصة للظواهر الاجتماعية جاهدوا بوجود عقبات فى سبيل إقامة القوانين العلمية (٥٦) . والذين نادوا بتطبيق نفس مناهج الفيزياء على الظواهر الاجتماعية ، واعتبروا

(55) Nagel op. cit. p. 456.

(٥٦) باستثناء الذين يعتقدون فى إمكانية قيام قوانين اجتماعية أرقى من قوانين العلم الطبيعى وذلك بالاستناد الى منهج الفهم انظر :

Kanfmann Op. Cit. p. 143.

الظاهرة الاجتماعية قابلة للدراسة مثلها مثل الظاهرة الطبيعية ، فقد صرحوا بإمكانية التوصل الى اقامة قوانين عامة يعتمد عليها فى مجال البحث الاجتماعى .

ان الذين رفضوا امكانية وجود قوانين فى العلوم الاجتماعية أقاموا هذا الرأى على اساس اختلاف تلك العلوم عن العلوم الطبيعية فاذا كانت القوانين الفيزيائية صالحة فى اى زمان ومكان فيرجع ذلك الى ان العالم الطبيعى يحكمه نسق من الاطرادات لا تتغير عبر الزمان والمكان بينما القوانين الاجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان . ان امكان التعميم ونجاحه فى العلوم الطبيعية يعتمد على اطراد الطبيعة Uniformity of nature . اما فى المجتمع فليس هناك اطراد يستطيع التعميم الواسع الاعتماد عليه . . كما ان الاطرادات الاجتماعية تختلف عن الاطرادات الموجودة فى العلوم الطبيعية وذلك لانها تتغير من مرحلة تاريخية الى اخرى والنشاط الانسانى هو القوة التى تغيرها فالاطرادات الاجتماعية ليست قوانين للطبيعة وانما هى من صنع الانسان ، والطبيعة البشرية تملك القوة أن تغيرها وربما التحكم فيها(٥٧) .

ويستند الرأى القائل بعدم وجود قوانين اصيلة او مباشرة على الاطلاق فى العلم الاجتماعى الى مبررات :

١ - ان حرية الارادة الانسانية تأتى بعامل من اللابقيين فى التكهات الاجتماعية in social prognoses ومن هنا فلا يوجد قانون لأن قرارات الأشخاص تتأثر بعوامل لا عقلية تتحدى الحساب الرياضى .

٢ - ان التجربة تلعب دورا اساسيا فى كشف القوانين الطبيعية

ولكن فى المجال الاجتماعى تصبح التجربة ممكنة فى حدود ضيقة جدا بحيث لا يمكن اقامة منهج على اساسها .

٣ - ان ما يسمى بالقوانين الاجتماعية يفتقر الى الصدق الموضوعى ، فالقوانين تختلف باختلاف « منظور » العالم الاجتماعى الى بعده الزمنى عن الاحداث التى يريد تفسيرها ، وباختلاف وضعه او محيطه الاجتماعى بالاضافة الى ان العلم الاجتماعى ليس متحررا من القيمة مثل العلم الطبيعى .

٤ - ان دقة القوانين الفيزيائية ترجع الى شكلها الرياضى ولكن الرياضة لا تنطبق على المجال الاجتماعى (٥٨) .

ويعتبر كوهين احد العلماء الذين يرفضون امكانية اقامة قوانين فى العلوم الاجتماعية ويقول فى هذا الصدد ان وجود تشابهات similarities فى مجتمعات مختلفة فى اوقات مختلفة استخدم كدليل على وجود قانون عام يصدق فى كل الظروف وعلى كل البشر . الا ان التشابهات فى العادات والتقاليد حتى لو لم تكن سطحية ليست قوانين . فما دام البشر يتشابهون فى الشكل والتركيب العضوى والسمات النفسية فمن الطبيعى ان نجد ان تعبيراتهم الاجتماعية بها نقاط تشابه (٥٩) . ويقيم كوهين المبرر الثانى للرفض على اساس تعقد الظواهر الاجتماعية وعدم تكرارها . فالقوانين الطبيعية تحتوى على عدد صغير من المتغيرات ، فاذا اصبح هذا العدد كبيرا او اصبحت الوظائف معقدة فان القوانين لا يمكن تطبيقها ويصبح العلم الفيزيائى مستحيلا . فاذا كانت الظواهر الاجتماعية تعتمد على عدد من العوامل

(58) Kanfmann op. cit. p. 143 - 144.

(59) Cohen Op. Cit. p. 687.

يصعب علينا التحكم فيها فلا يمكن ضمان الوصول الى قوانين تحكم ظواهر الحياة الاجتماعية . والظواهر الاجتماعية مها كانت محددة لا تستطيع ان تفرض على عقل محدود فى زمن محدود اى قوانين على الاطلاق . فلا يمكن اذن مهما حددنا الظواهر الاجتماعية ان نصل الى اى قانون لانه لا يوجد تكرار فى الظواهر (٦٠) .

ويقيم الراى المقابل امكانية وجود قوانين عامة فى العلوم الاجتماعية على اساس عدم وجود فارق بين قوانين تلك العلوم وقوانين العلوم الطبيعية . ويؤكد وجهة نظره بتفنيد الآراء المعارضة . وسوف نأخذ آراء فيلسوفى العلم جرانبوم Grunbaum وناجل Nagel كممثلين لهذا الاتجاه .

يرى جرانبوم ان السلوك الانسانى - الفردى والاجتماعى - اذا لم يعرض لتتابعات علة ومعلول أو سبب ونتيجة فإن هذا يعنى ان المنهج العلمى غير صالح لكشف طبيعة الانسان ، ولن يستطيع علم النفس او العلوم الاجتماعية الوصول الى مكانة العلوم . ويرجع هذا الراى الى ان هدف التفسير العلمى فى كافة العلوم باستثناء الرياضيات البحتة هو « تفسير » ظاهرة ماضية أو التنبؤ بحدث فى المستقبل وذلك بالإشارة الى ان تلك الأمثلة instances هى نماذج لقانون (أو قوانين معينة) وحدولها يرجع الى ان الظروف التى تستدعى تطبيق القانون متوفرة وبالتالي فإن انكار وجود تماثلات فى السلوك الانسانى الفردى والاجتماعى يعنى انه لا يمكن استخلاص دروس ذات معنى من الماضى وأن مستقبل الانسان متقلب ومجرب (٦١) .

(60) Ibid. p. 666.

(61) Grunbaum Causality and Science of human behavior in Feigl & Brodbeck (eds.) op. cit. p. 767.

ويناقش جرانبوم الرأى الذى يعتمد على القول بان كل انسان فريد ولا يشبه اى فرد آخر وبالتالي فان سلوكه لا يخضع للوصف السببى ولا يمكن التنبؤ به : ان كل جزئية فى العالم ولا شك فريدة سواء كانت شيئا ماديا او حدثا او كائنا بشريا ، ومن الواضح ان تفرد الأحداث المادية لا يمنع من كونها متصلة بالقوانين السببية لأن القوانين السببية الموجودة الآن تربط بعض مظاهر مجموعة من الأحداث بمجموعة أخرى ... وما دامت العلاقة بين السبب والنتيجة هى علاقة بين أنواع من الأحداث ، فإنه ليس من الضرورى ان تكون كل خصائص سبب ما مكررة بالكامل لكى تعطى نفس النتيجة . ويترتب على هذا انه حينما يفترض عالم النفس وجود قوانين سببية للسلوك الانسانى . فان هذا الموقف لايتعارض مع وجود اختلافات متعددة بين البشر ولا يؤثر على تفرد وكرامة كل فرد (٦٢) .

ويرفض ناجل الصعوبة التى كثيرا ما تناقش كعائق فى سبيل اقامة قوانين عامة فى العلوم الاجتماعية وهى الطابع المشروط « تاريخيا » او المحدد « حضاريا » للظواهر الاجتماعية . ان هذه الصعوبة تستند الى المناقشة التالية : على الرغم من ان كثيرا من المجتمعات فى الماضى والحاضر لها تنظيمات متشابهة - التنظيم الأمري ، تعليم الصغار - الا ان هذه التنظيمات بوجه عام قد قامت كاستجابة لبيئات محيطة مختلفة ، كما انها تشتمل على تقاليد حضارية متنوعة حتى ان الابنية والعلاقات الداخلية تختلف أيضا فى المجتمعات المتعددة . وبالتالي فان انماط السلوك الاجتماعى سوف تتغير باختلاف المجتمع وباختلاف طابع الانظمة خلال حقبة تاريخية معينة . وعلى خلاف قوانين الطبيعة والكيمياء فان تعميمات العلوم الاجتماعية مجالها محدود ولا ينكر ناجل

ان السلوك البشرى يتأثر بتعدد الانظمة الاجتماعية التى ينشأ فيها ... مما يؤدى الى جعل القوانين الموثوق بها عن الظواهر الاجتماعية محدودة العمومية . الا ان هذا لا يعنى ان القانون الثقافى *transcultural law* (وهو القانون الصالح فى مختلف المجتمعات) الخاص بالظاهرة الاجتماعية مستحيل . ان التشكك فى امكانية القوانين الاجتماعية يتمثل - فى رأى ناجل - فى افتراض أن القوانين العلمية لابد ان تتيح لنا التنبؤ بالمستقبل ولذلك يؤخذ علم الفلك كنموذج *Paradigm* لى علم يريد ان يكون علما ... الا ان الظروف التى تسمح بالتنبؤ البعيد فى الفلك لا تتوفر فى العلوم الطبيعية الأخرى . ذلك ان المجموعة الشمسية معزولة وسوف تظل كذلك لزمان طويل ومن هنا امكن التوصل الى التنبؤ . واغلب العلوم الطبيعية الأخرى لا يتوفر فيها هذا الشرط ومن هنا صعوبة التنبؤ البعيد المدى ، بالاضافة الى ذلك فاننا فى فروع العلوم الأخرى نجهل الظروف الأولية *Initial* التى دعت الى استعمال نظريات بالذات من اجل التنبؤ . فمثلا من الممكن التنبؤ بحركة البندول مادام معزولا عن تأثير العوامل المزعجة له ذلك ان كل من النظرية والمعلومات الواقعية متوفرة ، ولكن التنبؤ لا يمكن الثقة به فى المستقبل لأن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد ان الجهاز لن يظل معزولا عن التداخلات الخارجية . ومن الواضح اذن ان عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل البعيد ليست قاصرة على دراسة الموضوعات الانسانية وحدها (٦٣) .

ويؤكد ناجل ان القانون فى اى مجال للبحث اذا اريد له ان يغطى مجالا واسعا من الظواهر التى تعرض اختلافات هامة ووثيقة الصلة بالموضوع فلا بد ان يتجاهل فى صياغته هذه الاختلافات بحيث لا تعبر

(63) Nagel Op. Cit. p. 459 and also E. Nagel Concept and theory formation in Social Sciences in Watsonson op. Cit. p. 207.

الألفاظ المستخدمة فى الصياغة عن سمات محددة للظواهر التى تحدث فى ظروف معينة ، الا ان تحليل الظاهرة الاجتماعية بغرض التوصل الى القوانين العامة قد سار فى طريق الاختلافات *distinctions* التى يقوم بها البشر فى انشطتهم الاجتماعية اليومية . وحتى اذا حصلنا على وضوح فى العوامل غير الواضحة فاننا لا نستطيع ان نستبعد كلية رجوعنا الى لشيء خاصة بمجتمع معين (او تقليد معين) . وأكثر من ذلك ان الظروف التى نصل فى ضوئها الى التعميمات نادرا ما تكون معروفة تماما . وبالتالي فان التعميمات تكون تعبيرات عن ارتباطات احصائية أكثر منها علاقات اعتماد عامة أو قد تكون شبه عامة (بمعنى انه على الرغم من ان التعبير عنها عام فى شكله الا انها تذكر بدون أى نية لاستبعاد الاستثناءات المتعددة) . واذا أريد للقوانين والنظريات الاجتماعية ان تعبر عن علاقات اعتماد لا تتغير مع الاختلافات الثقافية البادية فى الفعل الانسانى فلا بد للتصورات الداخلة فى هذه القوانين الا تعبر عن مجرد السمات المميزة لمجموعة واحدة معينة من هذه المجتمعات (٦٤) .

ويؤكد د. زكى نجيب محمود أهمية القوانين فى العلوم الاجتماعية فيقول « ان العلوم الانسانية - كعلم الاقتصاد وعلم النفس - تحاول جاهدة أن تأخذ - ما استطاعت بمناهج العلوم المتقدمة ، ومن أهم أركان هذه المناهج ان تحل فكرة « القانون » محل فكرة « السببية » فلا يكون البحث عن شئ يعد سببا لشيء آخر ، بل يكون البحث عن دالة رياضية تبين العلاقة بين مجموعة من المتغيرات (٦٥) .

ويعتبر التنبؤ بالأحداث المستقبلية أحد المهام الرئيسية للعلم ،

(64) Nagel . Structure of Science Op. Cit., p. 463 - 65.

(٦٥) د. زكى نجيب محمود : مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

وهو يمثل مع التعميم نتائج البحوث السليمة ، الا انه يواجه صعوبة فى العلوم الاجتماعية لا ينكرها العلماء او المشتغلون بفلسفة العلم . فقد يغير البشر انماط سلوكهم نتيجة معرفتهم لتلك التنبؤات ذلك اننا فى العلوم الاجتماعية فيما يرى بوير نواجه تفاعلا كاملا ومعقدا بين ملاحظ وشخص خاضع للملاحظة ، بين دارس وموضوع دراسته . وادراكنا لوجود ميول tendencies قد تؤثر فى الحدث مستقبلا وادراكنا ان التنبؤ قد يؤثر على الأحداث المتنبأ بها ، هذا الادراك له تأثير على محتوى التنبؤ . ويكون نتيجة ذلك اضعاف موضوعية التنبؤات وافساد نتائج اخرى فى البحث . ان التنبؤ ليس الا حدثا اجتماعيا قد يتفاعل مع أحداث اخرى اجتماعية ومن بينها الحدث نفسه المتنبئ به . وقد يؤدي هذا فى الحالات المتطرفة الى حدوث الحدث الذى يتنبئ به والذى لم يكن سيحدث لولا التنبؤ . وفى الطرف الآخر من المتصل قد يؤدي التنبؤ بحدث ما الى منع حدوثه ، وتوجد حالات اخرى كثيرة متوسطة بين الطرفين (٦٦) .

ويميز ناجل بين نوعين من التنبؤات : كل نوع يعبر عن طريقة تحدث تبعا لها الأفعال الصادرة عن معتقدات خاصة بالموضوعات الانسانية ، وتؤثر كل طريقة فى صدق هذه المعتقدات نفسها . النوع الاول يسمى « التنبؤ الانتحارى » suicidal prediction وهو مكون من تنبؤات اساسها سليم عند تكوينها وقابلة لأن تؤيد بالأحداث المستقبلية ، الا أن الأفعال التى تحدث نتيجة اعلان هذه التنبؤات تحيلها الى تنبؤات كاذبة . والنوع الثانى يسمى النبوءة المحققة لذاتها the self - fulfilling prophecy وهى عبارة عن تنبؤات غير صادقة بالنسبة للوقائع الموجودة فى وقت التنبؤ ولكنها تصبح صحيحة وصادقة بسبب الأفعال التى تحدث كنتيجة للاعتقاد فى

تلك التنبؤات . ويرى ناجل انه من الخطأ الاعتقاد أن هذه المشكلة - وجود النوعين السابقين من التنبؤات - قاصرة على العلوم الاجتماعية ومتصلة « بحرية الإرادة الانسانية » ، ففي الواقع أن هناك أمثلة من العلم الطبيعي تعبر عن النوعين السابقين من التنبؤات . كما أن هذا لا يمنع من إقامة قوانين اجتماعية عامة (٦٧) .

ويبين كوهين استحالة التنبؤ في العلوم الاجتماعية بسبب تدخل عوامل أخرى لا يمكن حسابها مسبقا . ففي رأيه أننا نستطيع التنبؤ بالظواهر في مجال الفيزياء إذا كانت القوى الجاذبة والمضادة قابلة للقياس . أما في المجال الاجتماعي وفي حالة وجود القدرة على قياس القوى الاجتماعية بالإضافة إلى وجود ارتباط ما بينها ، فإن ما نعتبره قانونا في العلوم الطبيعية قد لا نستطيع تطبيقه . فعندما تتنازع الأفراد الاهتمامات الدينية والاقتصادية في اتجاهات مختلفة ، فهناك بثور السؤال : أي القوى ستغلب ؟ هذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه علميا : فنحن لا نعلم كم وحدة تملكها قوة اجتماعية معينة سوف تعارض الآخرين وكل ما نستطيع قوله هو أنه في بعض الحالات قد تطغى البواعث الدينية على البواعث الاقتصادية وفي حالات أخرى يحدث العكس . وفي أغلب الحالات لا يمكن فصل البواعث على الإطلاق (٦٨) .

وفي السببية الاجتماعية social causation لا يختفى السبب بعد أحداث النتيجة وإنما ممكن أن يستمر ويتغير تحت تأثير ما يترتب عليه من نتائج . فمثلا قد يؤثر نظام تعليم معين على تجارة جماعة ما ، وهذا بدوره قد يؤثر على التعليم . هذا ممكن لأن نظام التعليم ليس حدثا سببيا فرديا ولكنه نموذج من الأحداث . إن العلاقة السببية

(67) Nagel . Structure of Science Op. Cit., p. 468.

(68) Cohen Op. Cit., p. 670.

بينهما ترجع الى التحليل المنطقي لمجموعة من الظواهر . والاهتمام العلمى يحتم عزل مظهر واحد من الظواهر الاجتماعية - الاقتصادى او السياسى او الدينى - وتتبع تأثير التغيير فيه . حتى المؤرخ يحتاج ان يختار ويلزم نفسه بمراحل معينة من الأحداث الاجتماعية (٦٩) .

يتفق اذن أغلب الدراسين للعلوم الاجتماعية على ان التنبؤ يواجه صعوبات ليس من السهل التغلب عليها بسبب تعقد الظاهرة الاجتماعية وتدخل العامل البشرى كمؤثر على صدق التنبؤات . وسوف نناقش فى الجزء التالى تأثير العامل البشرى على البحث الاجتماعى .

(ج) القيم والبحث الاجتماعى :

ترتبط القيم فى البحث الاجتماعى بكل من الباحث وموضوع بحثه . وكثيرا ما ينظر اليها كعقبة تحول دون العلوم الاجتماعية وتحقيق للاتفاق حول الوقائع الموجودة والتفسيرات الصالحة لها ، وذلك بادخالها متغيرات كان يفضل استبعادها من مجال البحث . ويعبر د. فؤاد زكريا عن هذه المشكلة كالتالى : « هناك صعوبة هى حساسية المجال الإنسانى واتصاله بعالم القيم والمصالح والغايات والأمانى . فالعالم الطبيعى يبحث موضوعات محايدة والنتائج التى ينتهى اليها من أبحاثه يتساوى تأثيرنا فيها . وليست لدى الانسان مصلحة خاصة فى تغليب نظرية فى العلم الطبيعى على الأخرى . اما فى حالة العلوم الانسانية فان الموضوعات التى تتناولها ذات حساسية خاصة والنتائج التى تتوصل اليها تؤثر تأثيرا بالغا فى قيمنا وفى غاياتنا وتمس مصالحنا واهتماماتنا وتثير خلافاتنا وحساسياتنا . وحين تقترب من المجال الإنسانى فان العلم لا بد ان يتداخل مع المصالح ومع القيم ، ويصبح الحياد والموضوعية التامة أمرا عظيم الصعوبة (٧٠) .

(69) Ibid. p. 672.

(٧٠) د. فؤاد زكريا : مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

ان ارتباط القيم بالباحث نفسه فى المجال الاجتماعى يتبدى فى صورتين : اختيار الباحث لمشكلات بحثه ، ثم تدخل قيم الباحث وأرائه الشخصية وتحيزه فى اثناء تحليله للظاهرة موضع الدراسة . فاما بالنسبة للصورة الاولى وهى تدخل القيم فى اختيار المشكلة فيرى بعض العلماء ان هذه العملية تقوم أساسا على رأى الباحث لما هى القيمة المهمة اجتماعيا . حتى ان « ماكس فيبر » على الرغم من انه من القائلين بعلم اجتماع « خلو من اعتبارات القيمة » Value free الا انه يرى ان العلماء الاجتماعيين يجب ان يقدروا (او يفهموا) القيم الداخلة فى الأفعال أو الأنظمة التى يناقشونها ، ولكن ليس من شأنهم ، باعتبارهم علماء موضوعيين ، ان يؤيدوا او يرفضوا هذه القيم او هذه الأفعال والأنظمة (٧١) .

بينما يرى « فيجل » ان الأحكام القيمة على الرغم من انها تلعب دورا فى اختيار المشكلات وطرق تناول هذه المشكلات الا انها لا تدخل كجزء فى العلم نفسه ، انها مثل اعتبارات النفع والاحتمال التى تدخل فى التخطيط العلى للموضوع العلمى . وبهذا المعنى فهى تسعى وراء النشاط العلمى وليست محتوى معرفيا له (٧٢) .

ويعتبر ما شلوب عن نوع القيم وإى القيم لها الأولوية ونحن بصدد اختيار المشروع أى موضوع الدراسة . فإذا حول البحث عن طريق مؤسسة ما أو الحكومة فسوف تكون القيمة هى التى يعتقد الباحث انها تهم المنظمة أو المؤسسة ، وإذا لم يكن البحث ممولا من الخارج فقد يتم اختياره على أساس ما يعتقد الباحث انه « قيمة اجتماعية » ، أى ما يعتقد انه يقدم حولا لموضوعات يفترض أهميتها بالنسبة للمجتمع .

(71) Nagel Structure of Science Op. Cit. p. 485.

(72) Feigl . Op. Cit. p. 528.

فالمجتمع يريد ان يعالج السرطان ، او يريد ان يعرف طريقة للقضاء على البعوض . او كيف يقلل الحوادث او كيف يتفادى تضخم الاسعار ... وهذا يوحى بان اختيار الموضوع متساو فى العلوم الطبيعية والاجتماعية . ولاحيانا قد يختار الباحث مشروعاً لمجرد حب الاستطلاع العلمى دون اعطاء اولوية لأهمية النتائج اجتماعيا ، وهذا يعتبر استثناء الا انه موجود فى كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية (٧٣) . ويرى ناجل ان اهتمامات العلماء تحدد ما يختاره للبحث وهذا موجود فى العلوم جميعا . فالأشياء التى يختارها العالم الاجتماعى للدراسة وفى ذهنه تحديد للظروف والنتائج الخاصة بوجودها - على حد تعبير ناجل - قد ترجع الى الواقعة التى ترى انه « كائن حضارى » . ولكن كوننا بشرا لم يمنعنا من دراسة أشياء ليس لدينا تجاهها أى اهتمام فقد نكون غير مهتمين بالشروط التى تساعد على وجود السوق الحرة او بالعمليات الخاصة باتزان الحرارة الداخلية للجسم أو بالميكانيزمات التى تنظم ارتفاع المد او تتابع الفصول او حركة الكواكب ومع هذا لم يمثل ذلك أى عتبة أمام البحث الخاضع للتحكم الموضوعى فى أى فرع من فروع العلم (٧٤) .

اما بالنسبة للصورة الثانية وهى الخاصة بتدخل قيمة الباحث اثناء دراسته للظاهرة الاجتماعية فقد اختلفت الآراء حولها لقد رأى البعض أنها تؤدي الى تحيز الباحث . وتحدث كوهين عن « الصعوبة الذاتية للاحتفاظ باللا تحيز العلمى فى دراسة الشؤون الانسانية . فقليل من الناس فى امكانهم ان ينظروا بموضوعية الى موضوعات مثل

(73) Maohlup . Op. Cit. p. 164 - 165 .

(74) Nagel . Op. Cit. p. 486.

الاشتراكية ، !و الحرية فى الحب او تنظيم الأسرة(٧٥) . ووافق
ماثلوب على ان هناك احتمالات تحيز ، الا انه يضيف بعدين :

اولا : ان هذا موجود ايضا فى العلوم الطبيعية : ولعلنا لا ننسى
الصعوبات التى نشأت خلال مناقشة القيمة الدينية فيما يتصل بنظرية
التطور فى البيولوجيا او المشكلات التى واجهت علماء الفلك فى
مناقشتهم للنظرية الخاصة بمركزية الشمس heliocentric theory
او الجيولوجيين فى مناقشاتهم لعمر الأرض .

ثانيا : قد يكون لدى الباحث احكام اخلاقية ethical مرتبطة
بالمشكلة التى يعالجها دون ان يؤدي هذا الى تميز فى نتائج البحث
فقد يكون للعالم الطبيعى آراء عن القنبلة الذرية او الاجهاض او التعقيم ،
وقد يعبر عنها مرتبطة بعمله العلمى . وكذلك قد يكون للعالم الاجتماعى
آراء عن حرية العمل او الأسواق الحرة او تأميم الطب وقد يعبر عنها
مرتبطة مع نتائج بحثه . وهذا لا يستدعى القول بالتحيز وليس هناك
فارق بين العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى . وارتباط الاحكام القيمة
بناتج البحث لا يؤثر على موضوعية تلك النتائج (٧٦) .

وقد قام ديوى بمواجهة ثنائية الواقعة والقيمة التى رآها هيوم
بوضوح ثم قام التجريبيون المنطقيون بتحديدتها وتطويرها واخضاعها
لتحليل متعمقة . وكذلك ناقش كل من كارناب وراشنباخ موضوع العلم
والنقيم . ويرى هؤلاء ومعهم هربرت فيجل انه لابد من التمييز بين
دراسة التقديرات والاتجاهات النقيمية كما يقوم بها علماء النفس

(75) M. Cohen. Reason and Nature p. 348 Quoted in Machlup

Op. Cit. p. 165.

(76) Machlup . Op. Cit. p. 162 - 164.

والانثروبولوجيون وعلماء الاجتماع والمؤرخون ، ويمثل هذا جزءا هاما من العلوم الاجتماعية ، وبين القيام بتقديرات ، ويمثل هذا جزءا من عملية الحياة نفسها ولا يعتبر نشاطها عمليا على الاطلاق . فتقييم اهداف وفوائد البحث هى موضوع التزام اكثر منها موضوع لمعرفة . فمثلا نحن نفضل استمرار الحياة على الأرض عن توقفها ، والصحة عن المرض ، والعدل عن الظلم ... ولكننا نعتبر هذه التزامات او موضوعات للاتجاهات ولا تخضع للتبرير العلمى (٧٧) .

ويؤكد ناجل ان العلماء الاجتماعيين يدخلون بالفعل قيمهم الخاصة فى تحليل الظواهر الاجتماعية . وحتى العلماء الذين يؤمنون بإمكانية دراسة الشؤون الانسانية بحياد اخلاقى عن طريق ابحاث تقوم على العلاقات الهندسية والفيزيائية ، حتى هؤلاء العلماء فى رايه - يعطون احيانا احكاما تقييمية فى ابحاثهم الاجتماعية . ولا شك ان دارسى الشؤون الانسانية كثيرا ما يكون لديهم قيم متعارضة مما يؤدى الى اختلافهم حول الموفائع ، وهو اختلاف لا يختفى عن طريق اجراءات البحث المضبوط . فليس من السهل ان نمنع ما نحبه وما نكرهه ، آمالنا ومخاوفنا من التأثير على نتائج ابحاثنا . لقد احتاجت العلوم الطبيعية الى قرون لكى تنمى عادات واساليب للبحث تمنع دخول عوامل شخصية غير مرتبطة بالموضوع والمشكلة اكثر تعقيدا فى دراسة الشؤون الانسانية والمشاكل التى تخلقا فى وجه الوصول الى معرفة يعتمد عليها مازالت موجودة . ويرى ناجل ان الحل هو فى اقامة تفرقة بين الاحكام الواقعية والاحكام القيمية . وهناك خطوات يمكن القيام بها من اجل التعرف على التحيزات القيمية Value bias فاذا حدثت نحاول بقدر الامكان ان نقلل من تأثيرها وهذا اذا لم نستطيع استبعادها نهائيا (٧٨) .

(77) Feigl Op. Cit. p. 527.

(78) Nagel . Op. Cit. p. 488.

ويؤدى ارتباط موضوع دراسة العلوم الاجتماعية بالقيمة الى تميز
الظواهر الاجتماعية وتعقدها . فالظواهر الاجتماعية تعرف باعتبارها
نتائج للأفعال الانسانية وكل الأفعال الانسانية هى افعال تقوم على بواعث
Motivated action أى ان الظواهر الاجتماعية تفسر فقط اذا نسبت
الى أنواع محددة من الأفعال تكون « مفهومة » فى ضوء القيمة التى
تحرك من يقرر ويقوم بالفعل . وهذا الاهتمام بالقيمة - ليس القيمة
التي تحرك الباحث وانما القيمة التى يفهم منها انها فعالة فى توجيه
الأفعال لتفسير الأحداث المدروسة - يعتبر الفارق الأساسى بين العلوم
الاجتماعية والعلوم الطبيعية . فمن اجل تفسير حركة الجزيئات او التحام
الذرات لن يتسائل العالم لماذا تريد الذرات ان تنقسم . اما العالم
الاجتماعى فهو لا يقوم بعمله الا اذا فسر المتغيرات فى تداول المال
بالرجوع الى قرارات المستهلكين والمُدخِرِينَ ، وفسر اندماج الشركات عن
طريق الأهداف التى اقنعت المسؤولين القيام بهذه الخطوة ... هذه
امثلة من علم الاقتصاد ولكن من السهل تقديم امثلة من علم الاجتماع
او الانثروبولوجيا الحضارية او العلوم السياسية ... لبنين ان التفسير
فى العلوم الاجتماعية يحتاج بانتظام الى تاويل للظواهر فى ضوء
الدوافع المثالية للأشخاص المثاليين الذين يقومون بأفعال مثالية
Idealised . لابد ان نأخذ فى اعتبارنا التقديرات البشرية ولابد
من تفسير الظواهر الاجتماعية كنتائج للأفعال الانسانية القائمة على
الدوافع (٧٩) .

ولا شك ان العلم المتطور يشجع الاختراع والتبادل والنقد الحر
والمسئول للأفكار ويرحب بالتناقض فى طلب المعرفة بين المحققين
المستقلين حتى لو اختلفت اتجاهاتهم الفكرية .

ويحاول العلم الاقلال تدريجيا من تأثير التحيزات عن طريق استبقاء

نتائج الأبحاث التى استطاعت التغلب على الفحص الناقد من جانب جمهور كبير من الدارسين مهما كانت اتجاهاتهم القيمة أو ارتباطاتهم المذهبية . ومن العبث أن ندعى أن هذه العملية المنظمة لاستيعاب المبادئ المتعددة من الممكن أن تطبق بنجاح فى البحث الاجتماعى كما طبقت فى العلوم الطبيعية . ولكن من العبث أيضا أن تنتهى الى القول بأن المعرفة السليمة للشئون الانسانية لا يمكن الوصول اليها مادام البحث الاجتماعى كثيرا ما يكون موجها توجيهيا قيميا Value oriented (٨٠) . وعلى الرغم من أن هذه المشكلة لم تحسم بعد نهائيا فى العلوم الاجتماعية الا انها لا تعوق البحث الاجتماعى .

الفصل الثاني

« معنى التفسير »

اولا - الآراء المختلفة فى التفسير .

ثانيا - شروط التفسير :

(أ) المطلب المنطقى للتفسير .

(ب) المطلب المعرفى للتفسير .

ثالثا - التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :

(أ) التفسير والوصف .

(ب) التفسير والتنبؤ .

(ج) التفسير والتعميم .

أولا - الآراء المختلفة لى التفسير :

اختلفت آراء العلماء وفلاسفة العلم حول ما هية التفسير الا انهم اكدوا على اهميته كهدف واضح للعلوم جميعا وذلك من اجل الوصول الى مستوى ارقى من العلمية . وفى الواقع ان التفسير خاصة أساسية للعلم لأن العلم يسعى الى التنظيم وتنسيق معرفتنا بما يجرى فى العالم على اساس مبادئ مفهومة تتيح الاجابة على أسئلة تطرح الاستفهام لماذا ؟ .

وليس هناك من شك فى ان تحليل التفسير *The analysis of explanation* هو محور اهتمام فلسفة العلم لأننا نبدأ بالبحث العلمى من اجل الوصول الى تفسير للعالم بطريقة افضل من مجرد الاعتماد على الحس الشائع . وهذا صحيح سواء كان الحدث الذى نفسره اقتصاديا أو سياسيا أو كيميائيا . فكل ما نريده هو ان نعرف لماذا تكون الظواهر على ما هى عليه بدلا من ان تكون شيئا آخر وذلك مهما كان نوع الظاهرة التى نهتم بها . ويترتب على ذلك اثاره للسؤال : ما هو التفسير السليم ؟ .

ان الشكل العام للتفسير يجد اسمه فى الاستجابات المعرفية الاولى للانسان فى مواجهة المثيرات المحيطة وفى استجابات يقوم بها الادراك الحسى *Perception* . ثم ينتقل الى الأشكال التصورية *conceptual forms* فى فكر الانسان . هذا التفسير العام وجد تعبيره التصورى أولا فى الأساطير والخرافات *myths* ثم فى النظريات الكونية والميتافيزيقية . فالميتافيزيقيا كثيرا ما قدمت مشكلات للعلم ،

(1) Alan Ryan. The Philosophy of Social Sciences. Glasgow: The University press, 1970, p. 47.

• الا ان التطور التجريبي للعلم ادى الى ترك هذا النوع من التفسير (٢) .
ولعل من اوضح الأدلة على ان الفكر الأسطوري ظل محتفظا بمكانته
فترة اطول مما ينبغي ، استمرار ذلك النوع من التعليل المسمى بالتحليل
« الغائى teleological » ، للظواهر ، اعنى تفسير ظواهر
الطبيعة من خلال « الغايات » التى تحققها هذه الظواهر للبشر .
فنحن نتصور مثلا ، ان الشمس تطلع كل صباح لكى تدفئ اجسامنا ،
وان القمر والنجوم تظهر كل مساء لكى تنير طريقنا او تهدى الناهين
منا فى الليل (٣) .

• ويعتبر التفسير بشكل عام تعبيرا عن تأكيد بطريقة معقولة .
فاذا ما تحدث شخص بلغة لا نفهمها فنحن نطالبه ان يفسر تقريره ،
فاذا ما عدل تقريره بطريقة تجعله اكثر اللفة familiar فهذا يعنى انه
قد فسر . ويصبح التقرير فى شكله الجديد اكثر قبولا لانه يثير لدينا
استجابة محددة نصفها باننا نفهم التقرير . ويشكل عام يقبل التفسير اذا
فسرت الأحداث والتغيرات عن طريق النظر اليها باعتبارها امثلة خاصة
لقانون عام . ان القوانين العامة تفسر تجربتنا لانها تنظمها وذلك عن
طريق ارجاع الامثلة الخاصة الى المبادئ العامة . وكلما كان المبدأ
اكثر عمومية وعدد الشواهد التى يمكن الاشارة اليها اكبر كان التفسير
اكثر قبولا . اننا نلاحظ ان تفسيرات الحياة العامة كثيرا ما تعتمد على
مبدلين : ان الافكار تكون اكثر قبولا عندما تكون اكثر اللفة familiar
او عندما تكون اكثر عمومية ، واى واحد من المبدلين السابقين يصلح
كاساس للتفسير (٤) .

(2) John W. Yolton. Explanation. in British Journal of
Philosophy of Science Vol. 10 1959 - 60 p. 195.

(٣) د. فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(4) Norman Campbell . Op. Cit. p. 77 - 79.

وللتفسير معانى متعددة واحيانا يبدو كان هناك انفصالا بين استخدامات التفسير فى العلم واستخداماته فى السياقات العادية الا ان المعنى العلمى للتفسير يتصل مع معنى واحد فقط من المعانى العادية الشائعة وهو « جعل ما هو غامض مفهوما » ويكون هذا عن طريق ربط ما يبدو خارج نطاق الأحداث بالنطاق ذاته . فمثلا ، فى الحياة اليومية اذا قام شخص بفعل غامض فاننا نفسره عن طريق وصف السياق بطريقة تجعل الفعل مفهوما مع اعطاء التصورات العامة عن الدوافع الانسانية . واذا استاء شخص خلال مناقشة موضوع معين فاننا نسأله لماذا ؟ ويفسر الحدث فى السياق المعتاد عندما نشير الى الموضوع الذى اثير وكان له تاثير على كرامة الرجل . ان التفسير هنا يعنى وضع الغامض داخل سير الأحداث المعتادة . ويحدث شيء مشابه بالنسبة للتفسير فى السياق العلمى . الا اننا فى مجال العلم نجد أن ما يوافق « السير المعتاد للأحداث » لا يوجد ببساطة فى التصورات العادية وانما يقوم من خلال التفسير : اننا نقول اننا قد فسرنا حدثا ما عندما نعطى سابقة (أى شرط سابق) لهذا الحدث ، وهى سابقة لها اهمية خاصة اما لأنها من النوع الذى يمكن تغييره بسهولة او انها من النوع الذى يتغير بكثرة مع بقاء بقية الشروط كما هى . وهناك مطالب اخرى فى السياق العلمى وهو ان تكون السابقة antecedent (الشرط السابق) متميزة فى تصورات تبين العلاقة بين النتائج التى نفسرها ومجموعات اخرى ، لأنه يحدث أن تكون السوابق (الشروط السابقة) موضوعة فى سياق يعطى قيمة معينة لتغيرات هامة التى لو كان لها قيم اخرى لكانت قد اعطت نتائج اخرى . ويتضح لنا اذن أن التفسير له خاصيتين أساسيتين : انه يعطى السوابق (الشروط السابقة) الخاصة بالواقعة المفصلة (٥)

(٥) اطلقنا اسم واقعة مفصلة او الواقعة التى تحتاج الى تفسير على التعبير explicandum وهى تتساوى فى المعنى مع التعبير explanandum الذى سيرد فى موقع آخر .

explicandum في شكل مجموعة عوامل توضح علاقة هذه الشروط بشروط أخرى وهذا يبين بدقة ما يحتاج الى تفسير . والخاصية الثانية انه قادر على اقامة بناء حيث تكون الارتباطات التي نفسرها في مستوى معين هي نفسها وقائع مفسرة explicanda وتحتاج الى تفسير في مستوى آخر . والنتيجة ان التقدم في العلم حقق نتائج كثيرة خاصة بهيكل النظرية التفسيرية . وهذا يرجع اساسا الى ان مجموعة الارتباطات التي تفسر على مستوى عميق تتصل بمجموعة اوسع . وهكذا يتسع مدى النظرية العلمية كلما تقدم البحث . فهي تضع تحت اطار واحد ظواهر مختلفة للغاية عن طريق تحقيق التجانس لما يبدو مختلفا . واذا اخذنا مثالا على ذلك فسوف نجد ان قوانين كبلر تفسر في مستوى معين بعض مظاهر حركات الكواكب ، الا ان نفس هذه القوانين تخضع للتفسير بواسطة نيوتن في شكل قانون الجاذبية وبعض انواع السرعة . وهكذا نجد ان الاطرادات regularities التي اوضحها كبلر تمثل نوعا واحدا في مجموعة اوسع من الاطرادات التي تنطبق عليها ايضا قوانين نيوتن . ويقال حينئذ ان نيوتن قد قام بتفسير قوانين كبلر لانه بين الارتباط بين مدى واسع من الظواهر . ونجد نفس الموقف في الاطرادات التي وضعها قانون بويل وقانون شارلز ، فهذه القوانين تفسر على مستوى اعمق بواسطة النظرية الحركية للغازات Kinetic theory of gases ان التفسير العلمى اذن يربط بين الظواهر على مدى واسع الا ان من الخطا الاعتقاد ان هذا الربط يشبه خضوع تعميم ما تحت تعميم اعم (٦) .

ويقال عن شيء انه « فسر » او « فهم » عندما نكون قد حولنا

(6) Charles Taylor. The explanation of purposive behaviour in T. Borger & Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences. Cambridge : the University Press 1970. p. 49 - 79, p. 49 - 51

الموقف الى عناصر وارتباطات مالوفة الى حد اننا نقبلها كشيء مسلم به .
وفهم موقف ما يعنى من الناحية الاجرائية اكتشاف عناصر مالوفة
وارتباطات بينها ، ويحدث كنتيجة للآلفة مع القواعد التى تحكم
(تصف وتفسر) اغلب الأحداث فى العالم الطبيعى مما يمكن الاتمان
من التلائم مع تلك الأحداث . وفى حالة تغيب القواعد التى يمكن
الاعتماد عليها تحدث محاولات التجربة والخطأ فى محاولة التوافق
الاجتماعى . وتعتبر الأحداث الاجتماعية مثل الحروب والثورات أحداثا
طبيعية بنفس المعنى الذى ينسب الى الأحداث الفيزيائية (٧) .

وإذا كان التفسير يعنى الرجوع الى المألوف فلا بد ان نلاحظ ان
« الآلفة » تعبير نسبى فما يعتبر مالوفا بالنسبة لرجل العلم لا يعتبر
مالوفا بالنسبة لرجل الشارع . ان العالم يسعى دائما الى تطوير نظرية
ذات شكل عام ، نظرية تتيج له التنبؤ بالاضافة الى التفسير . ومادام
هدف العلم هو التنبؤ فلن ترضيه الا الشروط الكافية والضرورية معا .
وذلك على خلاف ما يحدث فى الحياة اليومية التى نكتفى فيها بالشروط
الكافية . ولذا ينظر العالم الى التفسيرات الصالحة فى الحياة اليومية
باعتبارها فروضا تحتاج الى فحص نقدى اثناء البحث عن شروط تكون
ضرورية وكافية (٨) .

وهناك آراء أخرى ترفض اعتبار « الآلفة » أساس التفسير وترى

(7) G. A. Lundberg : The Postulates of science & Their
implications for Sociology. in Natanson (ed.) Philosophy of
Social Science. pp. 33 - 72. p. 39 .

(8) J. Passmore. Explanation in everyday life, in Science
and in history : In « History & Theory » Vol. 11 No 2 1962 pp.
105 - 123, p. 107.

ان التفسير أساسا يهدف الى تعقيل الوقائع اى جعلها مدركة من جانب عقل يسعى الى الفهم . وعندما نفهم واقعة فاننا نصنفها فى سياق وقائع اخرى بطريقة تلقى الضوء عليها . ان التفسير النظرى لواقعة هو بيان لها يتعامل من جهة مع المظاهر المختلفة لماهيتها ومن جهة اخرى يجيب على السؤال لماذا وهو سؤال خاص بالظروف المتعلقة بوجودها مما يجعل هذا الوجود معقولا . ان التفهم او الفهم *comprehensibility or understandibility* هو العامل الاسامى للتفسير وليس الألفة *familiarity* (٩) والتفسيرات هى تقارير تقدم لارضاء رغبتنا فى فهم العالم من حولنا .

ان التفسيرات لا تخضع للحكم الثابت الذى يدعى انها صالحة فقط فى حالة رد غير المألوف الى المألوف لاننا عندما نفهم البهتان الناتج عن تأثير الشمس على الاشياء الملونة بالرجوع الى افتراضات فيزيقية وكيميائية عن مكونات الضوء ومكونات الاشياء الملونة فان التفسير لا يستبعد بحجة انه غير صالح حتى اذا كان المألوف مصاغاً فى عبارات تبدو للأغلب الناس غير مألوفة . ان هناك نقطتين لابد ان يسجلا :

١ - فى حالة عدم قيام التفسير برد غير مألوف الى المألوف فانه يظل تفسيراً مقبولا مادامت المقدمات قائمة على أساس متين من الأدلة التى كفت عن كونها غير مألوفة فى مكان ما من المجتمع العلمى .

٢ - وحتى فى حالة احتواء المقدمات على افكار غير مألوفة فهذه الأفكار تشير الى تشابه مع افكار عامة استخدمت من قبل وملتصبة بموضوعات مألوفة لنا . وتساعد المقارنات *analogies* على تشبيه الجديد بالقديم وعلى تفادى ان تصبح المقدمات المفصرة غير مألوفة (١٠) .

(9) N. Rescher. *Scientific Explanation*. New York : The Free Press 1970 . p. 1 - 2.

(10) E. Nagel. *Structure of Science* p. 48.

ويرفض هوسبرز النظر الى التفسير باعتباره يرد الحدث الى احد الأمثلة فى سلسلة من الأحداث المعروفة لنا من قبل كان يفسر سلوك الشخص بإرجاعه الى دوافع ورغبات مثل التى تحدث لنا وبالتالي تكون مالوفة لنا . على عكس برىدمان Bridgman الذى أكد على كون التفسيرات كلها من هذا النوع وقال فى هذا الصدد « انى أعتقد ان الفحص سوف يبين لنا ان جوهر التفسير يكمن فى رد الموقف الى عناصر تكون مالوفة لنا ونقبلها كشيء مفروغ منه بحيث ترضى فضولنا » (١١) .

ويبنى هوسبرز رفضه لراى برىدمان على أساس :

اولا : اننا من الممكن ان نطلب التفسير لأشياء مالوفة لنا كما نطلبه لأشياء مجهولة لنا ، فقد نسأل لماذا تسقط الأحجار ، كما نسأل لماذا ترتفع الطائرات ؟

ثانيا : قد لا يكون التفسير مالوفا على الاطلاق ، بل قد يكون اقل الفة من الظاهرة التى تحتاج الى تفسير . واذا كان التفسير غير مالوف فقد نميل الى القول انه لابد من ان يكون كذلك مادام صادقا . ولكن كونه مالوفا ليس له اى علاقة بصدقه validity كتفسير . ان كونه مالوفا موضوع ذاتى - فما هو مالوف لشخص ما قد لا يكون مالوفا بالنسبة لى - ولكن التفسير اذا كان صادقا فهو صادق بالنسبة لكليتنا . ان ما يبدو سليما فى الراى الذى يقول برد الشيء الى المألوف هو ان القانون الذى يفسر قد يكون مالوفا . ولكن كون الظاهرة تخضع لقانون

(11) P. W. Bridgman. The Logic of Modern Physics, p. 37
Quoted in J. Hospers : What is explanation. in Essays in Conceptual analysis . by F Flew (ed) London : Macmillan and C. Ltd. 1960 pp 94 - 119 , p. 96.

وكون السلوك يشبه القانون lawlike ومن الممكن التنبؤ به ، كل هذا قد يجعل الظاهرة اقل غموضا واكثر ألفة . والان اذا سالنا ما هو التفسير فان الاجابة بسيطة : ان تفسير حدث هو ببساطة وضعه تحت قانون ، وتفسير قانون هو وضعه تحت قانون آخر . ولا يهم اذا كان القانون يعبر عن الاهداف purposes ام لا ، ولا يهم اذا كان مالوفا ام لا ، فان ما يهم هو كون التفسير صادقا . ان القانون يجب ان يكون صادقا ، وهذا يتضح من استخدام كلمة « قانون » التى تشير الى وجود اطراد فى الطبيعة Uniformity of nature واذا كان هذا الاطراد مجرد خيال او يتضمن استثناءات فنحن لا نسميه قانونا (١٢) .

ويتعرض قاموس الفلسفة لمعنى التفسير فيبين انه من الناحية العلمية هو « منهج لبيان ان الظاهرة او مجموعة الظواهر تخضع لقانون بواسطة علاقات سببية او ارتباطات وضعية » او باختصار « هو تحليل منهجى للظاهرة من اجل ذكر سببها . ان عملية التفسير توحى بالاداء الحقيقى او الوجود الملموس للنتيجة فى السابقة (الشروط السابق) بحيث تعتبر الظاهرة مشتقة ومتطورة ومنفصلة عن سوابقها (شروطها السابقة) . ان عملية التفسير ذاتها لم قيمة هذا التفسير تتضمن موضوعا هاما هو العلاقة بين السبب والقانون . فبينما يرى بركلى انه يمكن التوحيد بينهما يطالب كونت بالتمييز بين السبب والقانون . والنظريات الحديثة تتدرج من مثالية متطرفة الى وضعية منطقية . ويبدو هذان الطرفان غير كافيين : الاول : بادخاله اشياء كثيرة فى العلم ، والثانى : لاهتمامه بجزء محدود من العلم وهو المعرفة بالقوانين العلمية . وقد اقترح راسل اتجاها متوسطا واضعا فى اعتباره نقد هيوم للسببية جنبا الى جنب مع اسباب ميل لقبولها . ويتلخص هذا الاتجاه فى :

(١) ان الأحداث sequence المنتظمة توحي بالعلاقات السببية .

(ب) ان العلاقات السببية هي مجموعة واحدة من التعميمات العلمية وهذا يمثل اتجاها واحدا للأحداث فى الزمان .

(ج) ان العلاقات السببية كما هي يجب الا تستخدم فى المراحل المتقدمة للتعميمات العلمية وذلك مع توخى العلاقات الوظيفية فى كل الحالات .

وعلى الرغم من اهمية هذه الوجهة من النظر فى مجال المنهج الا أنها لا تكفى لتغطية كل المشكلة (١٣) .

والتفسير بهذا المعنى هو خطوة فى اتجاه التعميم اى بناء النظرية ، انه العملية التى تربط الواقعة بآثارها المنطقية وينتائجها او هو عملية ادخال تقرير الواقعة داخل نسق سليم من التقارير التى تمتد أبعد من مجرد الواقعة المعطاة ، او هو بناء لجسم مترابط منطقيا من التقارير التى تضم تقرير الواقعة المحتاجة الى تفسير جنباً الى جنب مع التقارير الأخرى . وبصورة أكثر عمومية التفسير هو البحث عن تعميمات ترتبط متغيراتها وظيفيا بطريقة تجعل قيمة اى متغير تحسب بواسطة قيمة المتغيرات الأخرى ، وذلك سواء كانت العلاقات السببية ملحوظة او متداخلة فى عناصر التعميمات (١٤) .

ويعتبر التفسير أحد الدعامات التى يقوم عليها التمييز بين الحسر الشائع common sense وبين المعرفة العملية . فاذا ما حاول الحس

(13) Thomas Greenwood. Explanation . in D. D. Runes (ed.) Dictionary of Philosophy. New York Philosophical Library. 1972 pp. 104 - 105, p. 104 .

(14) Ibid p. 105.

الشائع اعطاء تفسيرات للوقائع فان تلك التفسيرات غالبا ما تكون خالية من اى اختبارات نقدية لدى اتصالها بالوقائع . ان الرغبة فى التفسير ، تلك الرغبة المنظمة والمحكومة بالدليل الوقائى هى المولد للعلم ، ان تنظيم وترتيب المعرفة على اسس من المبادئ التفسيرية هو الهدف المميز للعلوم . وبالتحديد العلوم تهدف الى الكشف ثم الى التعبير فى عبارات عامة عن الظروف التى تحدث فى ظلها الأحداث . ويمثل ذكر هذه الظروف تفسيرات الأحداث المتماثلة . ويمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق تمييز او عزل بعض الخصائص فى موضوع الدراسة المدروس ثم تحقيق نماذج متكررة للعلاقات المتبادلة repeatable patterns of dependence يحدث نبيها مواجهة بين المصطلص وبعضها . ويترتب على ذلك فى حالة البحث الناجح ان نجد القضايا التى كانت تبدو منعزلة تظهر مرتبطة ببعضها البعض بطريقة محددة بفضل وجودها فى نسق من التفسيرات System of explanations وفى بعض الحالات يمكننا الوصول بالبحث الى آفاق بعيدة ، فمن الممكن كشف نماذج من العلاقات تنتشر فى عدد كبير من الوقائع حتى انه يمكن بمساعدة عدد ضئيل من المبادئ التفسيرية بيان ان عدا لا نهائيا من القضايا الخاصة بثللك الوقائع تكون كلا متكاملا من المعرفة . وقد يأخذ هذا الشكل احيانا شكل المنهج الاستنباطى كما هو الحال فى الهندسة البرهانية وفى علم الميكانيكا . ولا تملك كل العلوم الموجودة نظاما سليما للتفسير كما هو الحال بالنسبة لعلم الميكانيكا . فعلى الرغم من ان فكرة التنظيم المنطقى السليم فى كثير من العلوم - سواء فى البحث الاجتماعى أو فى كثير من العلوم الطبيعية - تستمر فى لعب دورها كمثلى أعلى ideai (حتى بالنسبة لفروع البحث التى لا تستطيع دائما تحقيق هذا المثلى الأعلى ، مثل البحث التاريخى) فان هدف الوصول الى تفسيرات للوقائع دائما موجود . ان التفسير اى اقامة علاقات تبادلى بين قضايا غير مرتبطة ظاهريا والعرض المنهجى للصلات بين موضوعات مختلفة ظاهريا ، كل هذا يعتبر علامات مميزة للبحث العلمى .

ان المعرفة العلمية تملك طابعا منهجيا systematic غير موجود

فى الحس الشائع ونتيجة لذلك يحدث التمايز بين النوعين من المعرفة .
ان الحس الشائع قد يعبر عن معرفة سليمة الا ان الحدود التى ينبغى
عليه ان يتوقف عندها غير واضحة . لذلك تقدم العلوم تحسينات
وتطورات للتصورات العامة عن طريق عرض للصلات المنهجية للقضايا
التي تهتم بموضوعات المعرفة العامة . ان كون الحس الشائع يهتم
اهتماما ضئيلا بالتفسير المنهجي للوقائع التى يسجلها يترتب عليه قلة
اهتمام بمدى التطبيق الصحيح للمعتقدات الخاصة به (١٥) .

ان اى اى قاموس سوف يوضح لنا ان السؤال « لماذا ؟ » يستخدم
بدون تمييز لتوضيح مجموعة اشياء قد يكون سبب وضع من الأوضاع
او سبب حدث ما او دوافع شخص او الهدف من فعله . ان هذه الأسئلة
تطالب بمرد ما حدث فى الماضى او قد تعبر عن حيرة بسبب وضع
من الأوضاع يكون مختلفا عن المعتاد . وفى الواقع اننا احيانا نفشل
فى التمييز بين البحوث العلمية وبين الأسئلة التاريخية وذلك بسبب عدم
التمييز فى استخدام السؤال « لماذا ؟ » ، ولكن من المهم ان ندرك
ان اهتمامنا بأصل الشئ *origin* ليس مجرد اهتمام تاريخى .
فقد تتضمن الرغبة فى الوصول الى تفسير سببى *causal* او علمى .
اى ان السائل قد يكون مهتما بشيئين : التفاصيل الخاصة بالموضوع
بالاضافة الى بعض التعميمات التى تربط بعض التفاصيل بتفاصيل
اخرى (١٦) .

وفى الواقع اننا نحكم على نجاح اى علم بمدى قدرته على التفسير ،
والنظرية الخاصة بظاهرة ما ليست الا تفسيراً لتلك الظاهرة ، فلا يصح
اطلاق لفظ « نظرية » على اى شئ خارج نطاق التفسير . ويكون التفسير
اجابة على السؤال التالى : « لماذا تحت ظروف معينة تحدث ظاهرة

(15) Nagel, Op. Cit. p. 4 - 5 .

(16) Brown Op. Cit. p. 11 - 12 .

معينة « ٠٠ » وبذلك يكون تفسير كشف ما سواء كان تعميما أم قضية متصلة هو عبارة عن العملية التى - باعتبارها نتيجة منطقية أو استنباطا - تتبع قضية عامة أو اكثر تحت ظروف معينة (١٧) .

وإذا كان من الصعب التحكم فى متغيرات عن البشر بسبب كونه أكثر تعقيدا من التحكم فى متغيرات عن الأشياء فهذا لا يعنى أن التفسير مفتقد فى العلوم الاجتماعية . ان الحاجة الى قضايا والى تفسير موجود فى العلوم جميعا وذلك على الرغم من ان مضمون القضايا والتفسير فى العلوم الاجتماعية مختلف عنه فى العلوم الأخرى . فلا بد للعلوم الاجتماعية فيما يرى البعض ان تصبح أكثر تشبها بالعلوم الأخرى وذلك عن طريق اخذ مستويات العلوم الطبيعية فى التفسير . وإذا كان علم الاقتصاد أكثر العلوم الاجتماعية تقدما بسبب توصله الى نظريات على المستويين الجزئى والعام *micro & macro levels* . فانه لا يزال يعانى من عمومية النظريات (مثلا قانون العرض والطلب ليس عاما فالطلب على الروائح العطرية لا يخضع لهذا القانون) . اما التاريخ فيعتبر القطب المقابل لأنه يملك رصيدا كبيرا من النتائج التجريبية عموميتها منخفضة . هو يدعى التفسير ولكنه يتظاهر - أو هذا موقف أغلب المؤرخين - بأنه لا يملك نظريات لأن النظريات لابد ان تتضمن قضايا عامة ، وقد استنتج المؤرخون ان التاريخ خال من النظريات عندما وجدوا انه ليس هناك قضايا عامة فى موضوع دراستهم . ولكنهم اغفلوا موضوعا هاما وهو ان التاريخ يحوى قضايا عامة الا انه لا يذكرها . وإذا كان التاريخ يضم تفسيرات كثيرة وليس نظريات فان علم الاجتماع والانثروبولوجيا يظهران باعتبارهما يتضمنان نظريات كثيرة وليس تفسيرات . الا ان فحص النظريات عن قرب يبين انها تفشل كتفسيرات . فقد تتكون

النظريات من تعريفات غير اجرائية(*) وقد تظهر علاقات بين الخصائص المعروفة في النظريات فتحولها الى تقارير موجهة oriented statements وفي الحالتين تفشل في ان تصبح انظمة استنباطية .

ان علم الاجتماع والانثروبولوجيا يملكان تعميمات شديدة العمومية تسمى تعميمات حضارية cultural universals مثل ان المجتمعات كلها متدرجة ٠٠٠ ولكن لكى تصبح صالحة في نظرية لابد للقضية ان تكون عامة ولا بد ايضا ان تكون لها قوة تفسيرية وهى لا تملكها (١٨) ٠٠ وتبقى المشكلة الرئيسية في العلوم الاجتماعية تلك التى وضعها هوبز : كيف يستطيع سلوك الأفراد خلق خصائص الجماعات ؟ اى ان القضية الرئيسية ليست تحليلًا وانما تركيب ، ليس اكتشاف المبادئ الأساسية لأنها معروفة ولكن بيان كيف تختلط المبادئ العامة - كيف تبدو في سلوك كثير من الأفراد والجماعات - على مدى الزمان لتعطى اكثر الظواهر الاجتماعية ثباتًا وتحافظ عليها وتغيرها (١٩) .

وفي الواقع ان الموقف من التفسير في العلوم الاجتماعية لا يوجد حوله اتفاق بشكل عام لأنه متصل بالموقف نحو العلوم الاجتماعية عموما ومقدار نجاحها او فشلها في التوصل الى معرفة بالقوانين

(*) التعريف الاجرائى يرتبط بالقياس ويقوم على تحديد المفاهيم المستخدمة بواسطة اجراءات ، اى دلائل تجريبية او عديدة تمثل الظواهر الاجتماعية . وتساعد هذه الاجراءات على توضيح المعنى العلمى للمفهوم . وكذلك على ذلك تعريف الذكاء بواسطة اختبارات الذكاء . ومن هنا يتضح لنا ان التعريفات غير الاجرائية تفتقر الى الدقة العلمية .

(18) G. Homans. The nature of Social Science New York, Harcourt Brace & World 1967, p. 28 - 31.

(19) Homans. Ibid. p. 105.

والنظريات على غرار الموجود في العلوم الطبيعية . ويظهر بالتالى الاتجاهين التقليديين : ان الملوك الانسانى لا يمكن تقديمه فى ضوء قوانين ولا بد للتفسير ان يأخذ شكلا آخر او ان العلوم الاجتماعية توازى العلوم الطبيعية فى مناهجها التفسيرية . ومهما كان شكل الخلاف فان التفسير يعتبر ضرورة سواء لخذ الشكل الموجود فى العلوم الطبيعية او رسم لنفسه طريقا آخر .

ومما لا شك فيه انه قد أصبح هناك مجموعة من العلوم الانسانية تقل فيها بالتدرج مساحة الأرض المتروكة للتفسيرات الحرة التى يدور حولها الخلاف بين المدارس العلمية والمذاهب المتعددة ، واخذ يتسع بالتالى مجال الحقائق العلمية التى تنتم بقدر معقول من اليقين ، والتى تتخلص من الخلافات بين وجهات النظر المتباينة ، كما أخذ يظهر بالتدرج حد ادنى ذو طابع علمى لا مجال للخلاف عليه ، وهذا الحد الأدنى قابل للتوسع باطراد بحيث يكون فى النهاية قاعدة عريضة لهذه العلوم (٢٠) .

ثانيا : شروط التفسير :

ان هناك مجموعة من المبادئ العامة تعتبر ضرورية ولازمة للوصول الى تفسير علمى سليم . ولا تزال هذه المبادئ محل خلاف حول مدى صلاحيتها للتطبيق فى مجال العلوم الاجتماعية فالتفسير قد استقر من حيث الشكل فى اغلب العلوم الطبيعية بينما الخلاف لازال دائرا فى مجال مجموعة العلوم الاجتماعية حول شكل التفسير ، وهل من الضروري ان يحاكى ما هو موجود فى العلوم الطبيعية أم يتخذ نماذج خاصة به . ولما كانت المشكلة لم تحسم سواء بين العلماء

(٢٠) د. فؤاد زكريا : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ ، ص ١٨٩

الاجتماعيين او بين فلاسفة العلم والمنهجين فان دورنا هو عرض الآراء المختلفة مما سوف يساعدنا على التعرف على مدى التقدم الذى تحقق فى هذا الاتجاه .

وسوف نخصص هذا الجزء للحديث عن الشروط التى تصلح - فى رأى البعض - لاقامة تفسير سليم سواء فى العلم الطبيعية او فى العلوم الاجتماعية . وقبل الدخول فى تفاصيل هذا العرض يهنا ان نطلع على بعض الآراء التى تقول بصلاحية المبادئ العامة للتطبيق على مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء .

لقد وضع هبيل واوينهايم مجموعة شروط للتفسير السليم تنطبق على العلوم الطبيعية كما تنطبق خارج ذلك المجال ففى رأيهما ان كثيرا من السلوك الحيوانى والبشرى الذى يحدث فى المعمل يفسر فى علم النفس بالرجوع الى قوانين او نظريات عامة للتعلم او التشريط *conditioning* . واذا كان التكرار لا يحدث بنفس الدقة والتعميم الموجود فى علم الكيمياء او الفيزياء الا ان الطابع العام لتلك التفسيرات يتمشى مع خصائص التفسير العلمى . ويناقش الفيلسوفان الآراء التى ترفض وجود نموذج التفسير السببى فى العلوم الاجتماعية مبينين أنها تقوم على مبررات غير سليمة . فالمبرر الأول على رفض نموذج التفسير السببى يستند الى القول بأن الأحداث التى تتضمن أنشطة البشر جماعات ام منفردين لها طابع فريد وغير متكرر . وهذا يجعلها - الأحداث - لا تخضع للتفسير السببى على اساس ان التفسير يفترض التكرار فى الظاهرة المعينة ، الا ان هذا المبرر الذى يرفض حتى تطبيق المناهج العلمية فى العلوم الاجتماعية وعلم النفس ينطوى على عدم فهم الطابع المنطقى للتفسير السببى . ان كل حدث سواء فى العلم الطبيعية او فى العلوم الاجتماعية فريد أى انه فى خصائصه الدقيقة لا يتكرر . ومن الممكن ان تفسر الحوادث الفردية بواسطة القوانين العامة ذات الطابع

السببى . فالقانون السببى يؤكد على ان اى حادث ذى طابع معين يكون مصاحبا لحادث آخر له ايضا خصائص محددة . وكل ما نحتاجه لاختبار وتطبيق هذه القوانين هو تكرار الأحداث ذات الخصائص السابقة اى تكرار الخصائص وليس شواهدا الفردية .

ويستند المبرر الثانى الرافض للنموذج السببى على القول باستحالة اقامة تعميمات علمية اى مبادئ مفمرة للسلوك الانسانى على أساس ان استجابات الفرد فى ظروف ما لا تعتمد على الظروف نفسه فقط وانما على التاريخ السابق للفرد . غير ان هذا القول ليس له معنى فلا يوجد ما يمنع التعميمات فى ان تضع فى اعتبارها ارتباط السلوك بالتاريخ السابق للفرد (٢١) .

واذا قيل كمبرر ثالث ان تفسير ظواهر السلوك السببى يتطلب الرجوع الى بواعث وبالتالى يحتاج الى تحليل غائى teleological وليس سببى فان هذا لا يجافى الحقيقة كلية فكثير من التفسيرات الخاصة بالافعال الانسانية فيها اشارة الى اهداف وبواعث ولكن هذا لا يجعلها مختلفة عن التفسيرات السببية فى الكيمياء والطبيعة . هناك فارق واحد فقط هو ان المستقبل يبدو كانه يؤثر فى السلوك القائم على الباعث بطريقة غير موجودة فى العلوم الطبيعية . الا انه من الواضح فى حالة وجود باعث يوجه السلوك الى هدف معين ان هذا لا يعنى ان الحدث المستقبل الذى لم يتحقق هو الذى يحدد السلوك الحالى لان من المحتمل الا يتحقق الهدف على الاطلاق . ونستطيع ان نعبر عن ذلك بطريقة

(21) C. G. Hempel & p. Oppenheim : The logic of Explanation in H. Feigl & M. Brodeck (eds.) Readings in the Philosophy of Science. New York : Appleton - Century - Corfts Inc. 1953 p. 325 - 326.

اخرى فنقول ان كل من (١) وهى رغبة الانسان الموجودة قبل الفعل - فى الوصول الى الهدف المعين و (ب) وهى اعتقاده - الموجود ايضا قبل الفعل - يحددان الفعل ذاته . ان الدوافع والمعتقدات المحددة قبل الفعل تصنف باعتبارها شروطا سابقة للتفسير القائم على الباعث ولا يوجد فارق منهجى بين التفسير القائم على الباعث والتفسير السببى فى هذا الصدد . وكون الدوافع غير خاضعة للملاحظة لا يعنى اختلافا أساسيا بين نوعى التفسير لأن كثيرا ما تكون العوامل المحددة فى التفسير الطبيعى غير خاضعة للملاحظة . ان الخطر المحتمل وقوعه فى التفسير القائم على الباعث هو أن المنهج قد يقوم ببناء تصورات لا تملك قدرة تنبؤية فيفسر الفعل عن طريق نسبه الى بواعث يتصور تأثيرها بعد أن وقع الفعل فعلا . وهذا الاجراء يحتاج لى يكون صالحا الى الخطوات التالية :

١ - أن تقبل الافتراضات القائمة على البواعث الاختبار .

٢ - وأن تتوافر القوانين العامة الملائمة لتعطى قوة تفسيرية للبواعث المفترضة . وأحيانا يعتبر تفسير الآفعال عن طريق ردها الى البواعث نوعا خاصا من التفسير القائى . الا اننا رأينا انه اذا صيغ التفسير القائم على الباعث بطريقة سليمة فانه سوف يتفق مع شروط التفسير السببى ويكون التعبير « غائى » غير مناسب اذا قصد به الطابع غير السببى للتفسير او تحديد الحاضر بواسطة المستقبل . ومن الممكن عندئذ أن ننظر الى تعبير « غائى » باعتباره يشير الى تفسيرات سببية بعض شروطها السابقة عبارة عن بواعث الفاعل agent الذى نفسر افعاله (٢٢) .

ويرى ريكز ان التفسيرات العلمية لها بداية فى اطراد الطبيعة -

(22) Ibid. p. 327 - 328.

ويعنى بها الطبيعة كلها متضمنة الانسان وفعاله . فالعلم يسعى الى تفسير كل من الأحداث الطبيعية الواقعية المحددة . والقوانين المجردة abstract التى تتعامل معها اثناء تفسيرها للأحداث المعينة . ان النموذج الاساسى هو نموذج واحد - فى رايه - ان الأحداث تفسر عن طريق اخضاعها تحت تعميمات أو قوانين ، وهذه القوانين تفسر عن طريق اخضاعها تحت قوانين اخرى اكثر اتساعا . فالتفسير العلمى يعتبر علميا عن طريق :

١ - موضوعه : وهو يركز على شيئين : ما يحدث فى الطبيعة (الأحداث الواقعية المحددة) ، ثم الملاحج العامة للأحداث الطبيعية (القوانين التى تحكمها) .

٢ - منهجه : وهو عبارة عن اخضاع الوقائع التى تحتاج الى تفسير تحت قوانين سبق اختبارها وتأكيدا .

ان تفسير واقعة علميا ليس الا تقييم للأسباب التى تبين لماذا وجدت هذه الواقعة بالذات دون غيرها من الوقائع البديلة . وهذا يحتاج الى الذهاب أبعد من مجرد اثبات وجود الواقعة الى بيان انها ضرورية ولا يمكن تفادى وقوعها ، أو انها على الأقل محتملة « ومنمنظر حدوثها » . ولكن من أين تحصل التفسيرات على هذا المظهر الضرورى - أو على الأقل المحتمل - والاجابة هو من مصدر واحد هو استخدام القوانين . لقد رايانا ان التفسير العلمى ينشأ من الخضوع لقوانين أى عن طريق وضع الشيء المحتاج الى تفسير باعتباره حالة خاصة فى اطار من التعميمات تذكر كيف تعمل الأشياء فى نطاق معين من الظواهر (٢٣) .

(١) المطلب المنطقى للتفسير :

لا شك أن التفسير باعتباره عملية منهجية هامة له شروط لا بد

ان تراعى للوصول الى التفسير السليم . ويعتبر المطلب المنطقي احد الشروط الهامة التى فى ضوئها يكون للتفسير الشكل المعين الذى يقدم به فى العلوم . ولما كان الشكل الاستنباطى احد الاشكال البارزة التى يقدم بها التفسير خاصة فى العلوم الطبيعية فقد دار حوله النقاش . هل يجب ان يكون لكل تفسير الشكل الاستنباطى ؟ اى هل هو ضرورة *sine que non* لكل التفسيرات ، وهل يعقل التفسير اذا فشلنا فى استنباط الحدث الذى نفسره من التفسير ذاته ؟ هناك حلين : الموقف الاول ان نقول انه من الممكن التخلص من النموذج كلية ، من الممكن ان نقول انه كثيرا ما تستنبط الجملة المحتاجة الى تفسير من التفسير ذاته ولكن لا يمثل هذا أساسا للتفسير . وقد نضيف ان الاستنباط طريقة لتبرير تفسير نكون قد قدمناه ، الا ان اعطاء تفسير سليم لا يعتمد على ذلك . والحل الثانى ان نصر على ان التفسير الكامل يتضمن الاستنباط ، الا ان ما نقدمه فى العادة اقل من تفسير كامل . ففي الواقع ان الطريقة الوحيدة للتأكد من التفسير ، لا تكون الا باستنباط الظاهرة من مقدمات نعلم مقدما انها صادقة . ويتكرر نفس السؤال بالنسبة للقانون هل الاستنباط ضرورة ، لا شك انه فى حالات دقيقة يحدث هذا : مثال قوانين حركة الاجرام لكبلر ، فمن الممكن استنباطها من قوانين نيوتن للحركة مع قانون الجاذبية ، والآخر يفسر السابق . ولكن هل هذا مطلب ضرورى لكل تفسير للقوانين ؟ البعض قد يقول نعم ، ويعتبر اى قصور فى هذا الاتجاه ليس بتفسير ، وآخرون يرون انه غير ضرورى ، وأن الحالة الاستنباطية هى حالة مثالية ولكن التفسير لا يحتاجها : فمثلا يمكن تفسير القانون فى ضوء نظرية عامة جدا لا يستنبط القانون مباشرة منها ولكن تعتبر النظرية تفسير لهذا القانون . وقد يرد الشخص المقتنع بالاستنباط ان من غير المعروف اذا كانت هذه النظرية تعتبر تفسيراً الا بعد الاختبار اى بعد ان يحدث الاستنباط (٢٤) .

ويرى كل من هميل واوينهايم ان الاستنباط هو الشكل الاساسى
للتفسير العلمى . فالتفسير مكون من جزئين رئيسيين :

الاول : هو عبارة عن تقرير اوجملة تصف الظاهرة التى تحتاج
الى تفسير وتسمى واقعة مفسرة او واقعة محتاجة الى تفسير explanandum

الثانى : هو مجموعة الجمل المقدمة للتعبير عن الظاهرة وتسمى
تقرير تفسيرى او مقدمات مفسرة explanans (※)

ويقع التقرير التفسيرى فى فئتين فرعيتين : واحدة تحوى الجمل
التي تذكر شروط سابقة محددة ، والآخرى مجموعة جمل تمثل قوانين
عامة . ولابد لى يكون التفسير سليما أن تتوافر مجموعة شروط
منطقية :

١ - أن تكون القضية الأولى او الواقعة المحتاجة الى تفسير
explanandum نتيجة منطقية اى من الممكن أن تستنبط منطقيا من
المعلومات المتضمنة فى التقرير التفسيرى explanans . وخلاف هذا
الوضع لا يمثل اساسا صالحا للتفسير .

٢ - لابد أن تحتوى المقدمات المفسرة explanans على قوانين
عامة وتعتبر ضرورية لاستخلاص الواقعة explanandum

٣ - لابد أن تكون للمقدمات المفسرة explanans محتوى تجريبى
اى أن تكون قابلة للاختبار عن طريق التجربة والملاحظة .

(※) اطلقنا اسم « واقعة مفسرة » او واقعة محتاجة الى تفسير
« على التعبير explanandum واسم « تقرير تفسيرى » او « مقدمات
مفسرة » على التعبير explanans

٤ - لابد ان تكون الجمل المكونة للمقدمات المفسرة explanans صادقة true . وهذا شرط او مطلب تجريبي اكثر منه منطقي (٢٥) ،

ويضيف يولتون مطلبين للتفسير العلمى السليم وهما :

١ - ان تكون المقدمات المفسرة متسقة مع ذاتها self - consistent

٢ - ان تبسط ما سوف نقبله اى تقلل من عدد القوانين غير المستنبطة undeduced Laws

مقدمات مفسرة	ش ١ ، ش ٢ ، ش ٣ ، ش ٤ شروط أولية او تقريرات عن شروط سابقة ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ ، ن ٤ قن قوانين عامة	
واقعة مفسرة او واقعة محتاجة		استنتاج
الى تفسير explanandum	وصف للظاهرة التجريبية المحتاجة الى تفسير	منطقي
وأحيانا تسمى explicandum		

ويضيف هوسبر مطلباً جديداً هو ضرورة أن يشمل التفسير ظواهر أخرى غير التى وضع لتفسيرها أى أنه يجب أن يفسر أحداثاً أخرى (سواء ماضية أو حاضرة أو مستقبلية) ولكن يجب أن يخضع للملاحظات التجريبية ، أى أن يقبل الاختبار ، وبدون هذا الشرط لا نستطيع اعتباره تفسيراً فى أى علم من العلوم . وفى الواقع أن هذا الشرط متضمن فى

(25) Hempel & Oppenheim, op. cit p. 321.

(29) John W. Yolton Explanation Op. Cit. p. 197.

المطلب الذى يقول ان التفسير يجب ان يحدث فى ضوء قانون او قوانين .
فالقانون قضية عامة عن كل الاحداث فى مجموعتها ، واذا كان صالحا
بالنسبة لـ (ا) وهو احد اعضاء الطائفة (حدث حاضر) فهو صالح
ايضا بالنسبة لـ (ب ، ج ، د) ، (احداث مستقبلية) ، وطبيعة
القانون ذاته انه يفسر اكثر من حدث واحد ، واختبار التفسيرات واضح
فى مفهوم القانون ، فالقانون تقرير تجريبي لا طراد فى الطبيعة وباعتباره
عارضاً فهو يخضع للرفض عن طريق الملاحظة . وعلى الرغم من ذلك
فانه دائماً من المفيد ان نجعل ما هو مفهوم ضمناً واضحاً لبيان كيف
ان المطلب الاستنباطي غير كاف ثم لبيان ما هو المطلب الخاص بالتفسير .
ان الشرط الثانى الضرورى للتفسير (الأول : المطلب الاستنباطي)
هو قدرة التفسير على تغطية مجموعة كبيرة من الظواهر الأخرى بخلاف
الظواهر التى استدعت التفسير (٢٧) .

ويرى ناغل ان هناك شروط للنمط الاستنباطي للتفسير تصنف تحت
ثلاث عناوين : منطقية logical وتحدد المتطلبات الشكلية للمقدمات
المفسرة ، ومعرفية epistemic وتشترط العلاقات المعرفية التى يؤخذ
بها فى المقدمات ، وأخيراً واقعية او مادية substantive وتوصى بنوعية
المحتوى (تجريبى او خلافه) الذى يجب ان تحويه المقدمات (٢٨) .

بالنسبة لتفسيرات الاحداث الفردية individual events
فان المقدمات لابد ان تحوى على قانون عام واحد او عدداً من التقارير
الفريدة التى تؤكد ان احداث معينة وقعت فى اوقات وامكان محددة او ان
موضوعات معينة لها خصائص محددة . هذه التقارير الفريدة سوف
يشار اليها على انها « تقارير الشروط الأولية statements of
initial conditions » او باختصار (الشروط الأولية) . وتعتبر

(27) Hospers. Op. cit. p. 108.

(28) Nagel. Op. cit. p. 29 - 30.

الشروط الأولية بشكل عام هي الظروف الخاصة التي تنطبق عليها القوانين المتضمنة في المقدمات المفسرة . الا أنه ليس من الممكن أن نذكر في عبارات عامة أي الظروف سوف تختار لتكون الشروط الأولية لأن هذا يتوقف على المضمون الخاص للقوانين المستخدمة كما يتوقف على المشكلات الخاصة التي وضعت تلك القوانين لحلها . وكثيرا ما يكون من الصعب استخدام القوانين والنظريات لجبرد أن الشروط الأولية اللازمة لتطبيقها صعبة الوصول إليها وبالتالي غير معروفة . ان التفسير الاستنباطي العلمي الذي يقوم بتفسير حدوث حدث ما أو امتلاك شيء ما لخاصية معينة يجب أن يتفق مع شرطين منطقيين : أن تحوى المقدمات قانونا واحدا على الأقل يكون وجوده في المقدمات ضروريا من أجل استنباط الواقعة التي نفسرها explicandum كما يجب أن تحوى المقدمات عددا مناسباً من الشروط الأولية initial conditions .

بالنسبة لتفسير القوانين فإن هناك مطلب منطقي معقول وهو أن تحتوى الافتراضات المفسرة على الأقل على مقدمتين مستقلتين formally independent premises . ومن الواضح أننا نريد في التفسير السليم أن نؤكد المقدمات على شيء أكثر مما هو مؤكد في الواقعة المحتاجة الى تفسير أي يجب أن تكون مقدمة واحدة على الأقل قادرة على تفسير قوانين أخرى عند ربطها بافتراضات اضافية مناسبة . ومن جهة أخرى يجب أن يكون واضحا عدم امكان تفسير تلك المقدمة بمساعدة القانون الذي تقوم بتفسيره ، حتى لو أضيف الافتراضات الاضافية الى القانون . وهناك مطلب اضافي في التفسيرات الصالحة للقوانين وهو أن تكون أي واحدة من المقدمات « أكثر عمومية » من القانون الذي تفسره . فمثلا قانون أرشميدس أكثر عمومية من القانون « الثلج يعمد على سطح الماء » لأن قانون أرشميدس يؤكد على شيء خاص بالسوائل جميعا وليس سائل معين . وكثيرا ما يقال أن الفيزياء علم أعم من البيولوجيا أو أن قانون الروافع أكثر عمومية من قانون الوراثة .

والمقصود بذلك هو أن الظاهرة البيولوجية ممكنة التفسير على أسس قوانين الفيزياء وليس العكس (٢٩) .

أن عملية التفسير تمضى في اتجاه واحد دون غيره في سياق من القضايا المكونة للنمط الاستنباطى ، فإذا كانت القضية التى تفسر تستنبط من القضايا العامة في ظروف معينة فإن القضايا العامة لا يمكن بدورها أن تستنبط من أخرى في نفس السياق . قد تتحول القضايا العامة الى وقائع تحتاج الى تفسير explicanda ، ولكن هذا يحدث في نظام استنباطى آخر يحتوى على مزيد من القضايا العامة . ونلاحظ أننا كلما تقدمنا نحو مزيد من القضايا العامة كلما امرنا في الوصول في وقت ما من تاريخ العلم الى قضايا لا يمكن تفسيرها . ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر الى الأبد (مثلا قانون المغناطيسية عند نيوتن ظل غير مفسر لمدة مائتى عام الا أنه من الممكن الآن بيان أنه يتبع نظرية النسبية عند اينشتاين) . وهنا يستعمل العلماء كلمة « نظرية » بمعنى واسع لتعنى مجموعة تفسيرات لظواهر مرتبطة (٣٠) .

(ب) المتطلبات المعرفية للتفسير :

بالإضافة الى الشروط المنطقية السابقة هناك متطلبات معرفية epistemic للتفسيرات العلمية . ان ارسطو يرى أن المقدمات في التفسير الاستنباطى لابد بالإضافة الى أشياء أخرى أن تكون صادقة اي لا بد أن تكون معروفة الصحة ولا بد أن تكون معروفة أكثر من الواقعة المحتاجة الى تفسير (٣١) .

(29) Ibid. p. 30 - 40.

(30) Homians, op. cit. p. 25 - 26.

(٣١) ذكرنا هذا الشرط في الشروط التى وضعها كل من همبل ولوينهايم .

وإذا طبقنا مطلب أرسطو (أن المقدمات لا بد أن تكون معروفة الصدق) فإن قلة من تفسيرات العلم الحديث سوف تقبل باعتبارها صالحة . وذلك لأننا لا نعلم ما إذا كانت المقدمات المفترضة في تفسيرات العلوم التجريبية هي حقاً صادقة أم لا ؟ وهكذا سوف نستبعد كثيراً من التفسيرات باعتبارها غير صالحة ، لذلك لا داعي لقبول المتطلبات الأرسطية للحكم على صدق التفسيرات . ولكن هناك مطلب ضروري يخفى الحالة المعرفية للمقدمات المفترضة وهو أن تكون المقدمات المفترضة صالحة لإقامة حقائق تجريبية وتكون أيضاً مؤيدة adequately supported أو ممكنة made probable عن طريق إثبات قائم على المعلومات المتوفرة وليس عن طريق المادة الملاحظة التي يقوم عليها قبولنا للواقعة المحتاجة إلى تفسير (٣١) .

أن التفسير الحالى actual لا بد أن يتفق ليس فقط مع المطلب الشكلي في أن تكون المقدمات المفترضة - إذا اعتبرت فروضاً - قادرة على جعل النتيجة التفسيرية مؤكدة أو محتملة ، وإنما لا بد أيضاً للتفسير الحالى أن يتفق مع المطلب المادى في أن تكون تلك المقدمات مؤكدة للواقعة fact-asserting (باعتبارها صادقة في ذات احتمال مرتفع) وأن تكون المقدمات العامة مؤكدة للقانون law asserting وتمثل تعميمات قد اتخذت بعد تأكيد كافى لشكل القانون (٣٢) .

وإذا كانت كثير من التفسيرات السببية في العلوم الطبيعية تتسق مع نموذج التفسير الاستنباطى إلا أننا نجد أنه كلما تعقد موقف يحتوى على متغيرات تحتاج إلى تفسير مثل تطبيق القوانين البسيطة الدقيقة التي تنطبق في العادة على مواقف مبسطة ومثالية ، نفضل اعتبار التفسير الاحتمالى Probabilistic explanation أفضل تفسير ممكن بالنسبة

(31) Nagel . op. cit. p. 42 - 43.

(32) Rescher. op. cit. p. 19.

لموضوعات الدراسة المعقدة سواء كانت طبيعية أم اجتماعية . وذلك حتى لا تثبط عزيمة علماء النفس والاجتماع للاعتقاد في ان التفسير العلمى الوحيد هو التفسير الاستنباطى . الا انه ينبغي التمييز بين التفسير الاحتمالى بمعنى قوانين تعبر عن ميول tendency laws وبين التفسير الاحصائى باعتباره يحتوى تضمنيات محتملة رقميا numerical probability implications ولا بد ان نسجل ان التفسير الاحصائى مثل law like التفسير السببى يجب ان يحتوى على تعميم بمثابة قانون generalizations اما كمقدمة او كمبدأ تبريرى (٣٣) .

ويعنى التفسير الاحصائى باستخدام قانون واحد أو مبدأ منهجى واحد . وهناك نوعان من التفسيرات الاحصائية مختلفان منطقيا :

الاول : هو عبارة عن خضوع استنباطى لاطراد احصائى محدود تحت اطراد اكثر وضوحا : وسمى هذا النوع التفسير الاحصائى الاستنباطى deductive statistical explanation .

والنوع الآخر : هو عبارة عن خضوع حدث معين تحت قوانين احصائية بطريقة غير استنباطية وسمى التفسير الاحصائى الاستقرائى inductive statistical explanation ويتضمن التفسير الاحصائى الاستنباطى استنباطا لتقرير على شكل قانون احصائى من مقدمات تحتوى بالضرورة على قانون واحد أو مبدأ منهجى له شكل احصائى على الأقل . ويتم الاستنباط بواسطة النظرية الرياضية للاحتمال الاحصائى mathematical theory of statistical probability .

هذه النظرية تجعل من الممكن حساب بعض الاحتمالات الموجودة في

(33) Arthur Pap. An Introduction to the Philosophy of Science. London : Eyre & Spottis woods. 1963. p. 345 - 546 .

الواقعة المفردة على أساس احتمالات أخرى مذكورة في المقدمات المفردة
سبق أن تأكدت تجريبيًا أو مسلم بها فرضاً (٣٤) .

إن كثير من التفسيرات في النظام العلمي ليست بالشكل الاستنباطي
لأن المقدمات المفردة لا تكشف عن الوقائع المحتاجة إلى تفسير إلا أنه
على الرغم من كون تلك المقترحات غير كافية منطقياً لتضمن صدق
الوقائع إلا أنها تكفي لتجعلها محتملة .

إن التفسيرات الاحتمالية توجد عندما تحوى المقدمات المفردة
افتراضاً احصائياً عن مجموعة معينة من العناصر بينما الواقعة المحتاجة
إلى تفسير هي تقرير متميز *singular* عن عضو فردي ينتمى إلى
تلك المجموعة . ومن المهم ألا نخلط بين شيئين الأول هو مدى صحة
مقدمات التفسير والثاني هو التفسير ذو الصورة الاحتمالية فقد تكون
الافتراضات العامة المتضمنة في المقدمات معروفة الصحة وكل افتراض مع
ذلك « محتمل » وهذا لا يقضى على التمييز بين الشكل الاستنباطي والشكل
الاحتمالي للتفسير لأن التمييز يقوم على الاختلافات في الطريقة التي ترتبط
بها المقدمات بالوقائع المحتاجة إلى تفسير ولا يقوم على الاختلافات
المتصورة في إدراكنا للمقدمات (٣٥) .

وتقوم التفسيرات المحتملة على قوانين احصائية وليست عامة .
ونلاحظ في حالة استخدام القوانين غير العامة أن هيكل التفسير
schema of explanation لا يتغير عما هو عليه في حالة استخدام
القوانين العامة . فالتفسير يعتبر مقبولاً إذا نجح في جعل الواقعة المحتاجة

(34) C. G. Hempel *Aspects of scientific Explanation* New
York : The Free Press, 1965 . pp. 380 - 381.

(35) Nagel op. cit. pp. 22 - 23.

الى تفسير صادقة الى درجة كبيرة ، وذلك على الرغم من غياب المنطقى للفرض (٣٦) .

وسواء كان التفسير ذا شكل استنباطى او احتمالى فلا بد للتفسير المليم ان يقوم بأربع وظائف :

١ - يجب ان يوضح العلاقة او انواع العلاقات التى لابد ان توجد بين الواقعة المفسرة والمقدمات المفسرة ، بين الـ explanandum والـ explanans .

٢ - يجب ان يقدم (على الاقل بشكل عام) الاعتبارات التى تؤثر على دقة وقوة التفسيرات وتصلح فى نفس الوقت للتمييز بين التفسيرات القوية والضعيفة .

٣ - يجب ان يتيح :

(ا) وسائل للتمييز بين الاشكال المختلفة للتفسير .

(ب) فروق بين التفسيرات المختلفة .

(ج) طريقة لتصنيف التفسيرات .

٤ - يجب ان يوضح مكانة التفسير - وخاصة التفسير العلمى - بالنسبة للنسق العلمى للأشياء ، مبينا مجاله وحدوده وعلاقاته بالعمليات المعرفية الأخرى مثل التنبؤ ومحددات دوره الخاص من خلال المشروع الكلى للفهم العلمى (٣٧) .

(36) Rescher op. cit. p. 175.

(37) Rescher . op. cit. p. 4.

وتصنف التفسيرات في ضوء مجموعة مختلفة من المبادئ فهناك :

(١) تصنيف حسب نوع السؤال الذى تضعه الواقعة المحتاجة الى تفسير explanandum وعلى هذا الأساس نجد التفسيرات توضح كيف نقوم بالفعل (التفسيرات العملية) ، وتفسيرات توضح شكل الشيء او كيف يعمل (التفسيرات الوضعية) ، وتفسيرات توضح لماذا حدثت واقعة بالذات (التفسيرات النظرية theoretical) .

(ب) تصنيفه حسب نوع الموضوعات الموجودة في الواقعة المحتاجة الى تفسير explanandum واهمها الأحداث العينة التى قد تصنف بدورها باعتبارها أحداثا طبيعية تحدث في الطبيعة غير الحية أو أفعالا انسانية أو قد تكون مجموعة عن الموضوعات (مثل هجرة قبيلة) او قد تكون أمثالا من الاطرابات في الطبيعة او في المجالات الانسانية .

(ج) تصنيف حسب العملية التصويرية conceptual machinery المستخدمة في المقدمات المفردة explanans . ومن أهم أنواع التفسير هو التفسير السببي للأحداث ، وتنقسم هذه الفئة الى فئات أخرى أصغر مثل التفسيرات الكيميائية أو التفسيرات الميكانيكية أو التفسيرات النيروفسيولوجية neurophysiological وهناك نوع آخر هو التفسيرات الدافعية motivational للأفعال الانسانية اما في ضوء الاسباب او في ضوء الدوافع .

(د) تصنيف حسب قوة الرابطة التفسيرية بين الواقعة المحتاجة الى تفسير والمقدمات المفردة ونميز هنا بين تفسيرات استنباطية حيث تتبع الواقعة المفردة المقدمات باعتبارها نتيجة منطقية وتفسيرات احتمالية حيث تكون المعلومات الموجودة في المقدمات كافية فقط لكي تجعل الواقعة المفردة احتمالية اكثر منها مؤكدة فرضا hypothetically certain

ومن العرض السابق نتبين ان التفسيرات لا بد ان يكون لها الخصائص التالية :

١ - انها تضع السؤال « لماذا » وهو سؤال ينبغي البحث عن سبب وليس مجرد سؤال وصفى عن ما هو what أو متى when أو اين where أو كيف how .

٢ - ان هذه التفسيرات تتعامل مع احداث في العالم الطبيعي باعتبارها موضوعاتها ، او مع مجموعات من الاحداث او مع اطراذات .

٣ - وبامستثناء الواقعة العامة التى تقول ان التفسير هو عملية اندراج تحت قوانين فان لا يوجد اى تحديدات تفرض على العملية التفسيرية .

٤ - ان قوة الرابطة التفسيرية التى تربط المقدمات المفصرة بالنتيجة قد تتغير كثيرا فى التفسير العلمى . فعلى الرغم من تفضيل التفسيرات الاقوى - اى الاستنباطية - فان العلم يعترف انه فى بعض السياقات لا يستطيع ان يصل الى هذا وبالتالي يكتفى بالتفسيرات الأقل قوة وهى التفسيرات الاحتمالية Probabilistic (٢٨) .

ثالثا : التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :

(١) التفسير والوصف :

ان التفسير والوصف عمليتان هامتان فى المنهج ، كما انهما ترتبطان فى اكثر من موقع فى العلم ، ولكن هل يعنى هذا انهما قابلتان للاندماج بحيث تغنى إيهما عن الأخرى ؟ وفى الواقع ان الآراء قد تعددت حول هذا الموضوع وتفرعت بين دمج للوصف والتفسير فى عملية واحدة وبين تمييز واضح وصريح بينهما يعطى للتفسير مكانة تفوق بكثير ما لمكانة الوصف من أهمية .

ويرى أصحاب الاتجاه الأول انه لا يوجد حد فاصل بين التفسير والوصف ، وعلى الرغم من أننا لحيانا نطلب الوصف وحيانا التفسير الا ان الذى يحدث هو ان نفس العبارات تستخدم لتحقيق الهدفين . ومن الممكن مثلا ان يعتبر التعبير « ذهبت الى الصيدلى لأشترى دواء » وصفاً، اى تقريراً لتحركاتى كاجابة عن السؤال « اين ذهبت ؟ » ومن الممكن ان يكون تفسيراً يوضح سبب تاخيري في الخارج (٣٩) . فمن الصعب اذن فصل التفسير عن الوصف لأنه من الواضح في المثال السابق ان العبارة تفسر وصولي في ساعة متأخرة بسبب شرائي للدواء من الصيدلى وفي نفس الوقت تصف تحركاتي . وبالتالي فان وظيفة التقرير تعتمد على السؤال الذى يوجه الى . فاذا أخذنا مثالا من العلم فسوف نجد ان وصف ما يحدث في تجربة كيميائية هو نفسه تفسير لما يحدث فيها . ومن هنا يكون من غير الممكن - حسب هذه الواجهة من النظر - ان نصف المفاهيم باعتبارها وصفية او تفسيرية بدون الرجوع الى سياق استخدامها (٤٠) .

ومن الخطأ الاعتقاد ان العلم يصف فقط ولا يفسر ، فعندما نقوم بالوصف فنحن ايضا نقوم بالتفسير : ان ذكر قوانين الطبيعة هو وصف لعمل الطبيعة وهذا لا يستبعد التفسير . وعندما نحاول الاجابة على السؤال : لماذا يضاء النور عندما نضغط على مفتاح الكهرباء ؟ فاننا نفسر بوصف ما يحدث ، اى أننا نفسر عن طريق الوصف (٤١) .

فاذا ما اتجهنا الى العلوم الاجتماعية فسوف نرى ان اصحاب هذا الراى يتمسكون بكون الوصف والتفسير عملية واحدة . فاذا ما تناولنا كمثال السؤال : « لماذا يتزايد ادمان المخدرات في المجتمعات

(39) Theobald op. cit. p. 39.

(40) Ibid. p. 40 .

(41) Hospers. op. cit. p. 118 .

المتقدمة « ؟ وكان جزء من الاجابة هو : « ان الرخاء الاقتصادى يتيح الفرص الاجتماعية والخلقية والمادية للفرار من البيئة التكنولوجية ، ويمثل تعاطى المخدرات الحد طرق الفرار » ، فان هذه الاجابة تعتبر تفسيراً ، ولو انه يتصف بالبساطة . وفى نفس الوقت تعتبر هذه الاجابة ردا جزئيا عن السؤال : « ما هو ادمان المخدرات » ؟ وهو سؤال يحتاج الى تقرير وصفى للظاهرة . ومن هنا يسهل ان نلاحظ ان التقرير الوصفى لما يحدث ممكن ان يكون ببساطة تفسيراً لسبب حدوثه . ونستنتج من هذا ان الوضع فى العلوم الاجتماعية لا يختلف عنه فى العلوم الطبيعية : فلا يمكن تصنيف التقرير او التصورات التى يحتوئها باعتبارها وصفية فقط او تفسيرية فقط ، ويتوقف الامر على السؤال المثار (٤٢) .

اما اصحاب الاتجاه الثانى فيرون ان التفسير عملية هامة تتجاوز مجرد الوصف . ذلك ان مجرد الوصف لا يعنى اكثر من ملاحظة وقائع وتجريب حوادث وظاهرات ، وتسجيلها ، ولكن لن نصل الى قانون علمى او نظرية علمية بمجرد تسجيل ما يحدث ، لابد من تسجيلها والربط بينها وفهم الطريقة التى حدثت بها هذه الحادثة او تلك . والربط والفهم انما هو تفسير (٤٣) . ان الوصف مهما كان مسهبا ليس بتفسير ، بل على العكس كلما وصفنا وقائع اكثر كلما تناقص تكوينها لانماط (٤٤) .

وفى الواقع ان اول خطوة نحو معرفة الطبيعة تتمثل فى وصفها ويوازى هذا بناء الوقائع . وتتضح هذه العملية فى التعبير بواسطة الكلمات والرموز عن كيفية تكوين الوقائع الخاضعة للوصف من عناصر .

(42) Theobald op. cit. p. 43.

(٤٣) د. محمود زيدان : الاستقراء والمنهج العلمى ، بيروت ،

مكتبة الجامعة الامريكية ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٩

(44) Agassi : Methological Individualism. In British Journal

of Sociology Vol XI No 3 sept. 1960, pp. 244 - 270, p. 258.

ويتحدد كل عنصر من هذه العناصر بواسطة رمز مألوف او متعارف عليه (وهو اسمها) . ولهذا الغرض لابد من بعض الاجراءات للتعرف على كل عنصر باعتباره منتما الى فئة محددة وله رمز مناسب (٤٥) .

والخطوة التالية لمعرفة الطبيعة هي التفسير . ويتميز باحلال مجموعة مؤتلفة من الرموز التي استخدمت من قبل في سياق آخر ، محل كل رمز (او تصور) مستخدم في وصف الطبيعة . وتمثل هذه العملية تقدما في المعرفة ، نمثلا اذا وضعنا مكان كلمة « ماء » العبارة « انه خليط من الهيدروجين والاكسجين بنسبة ١ الى ٨ » ، فان هذه العبارة تنم عن كشف كيميائي . واذا انتقلنا من الحديث عن حرارة الجسم الى الحديث عن قوة الحركة *energy of motion* في اصغر اجزائها فان هذا يعتبر تفسيرا فيزيائيا . وهكذا يكون من الممكن التنبؤ بسلوك الاشياء ، كما يمكن استنباط الملوك الحالي من السلوك المعروف من قبل وهو الخاص بالاشياء التي تحددها التصورات المستخدمة في التفسير . فاذا استطعنا تفسير الحرارة على انها شكل من اشكال حركة بعض الجزيئات الصغيرة ، فاننا كنتيجة لذلك نستطيع ان ننسب كل ظواهر الحرارة الى خصائص الحركة غير المرئية للجزيئات الصغيرة . وبالتالي نستطيع ان نتنبأ بظواهر الحرارة التي كنا نجهل كل شيء عنها . ان التفسير ليس الا اكتشاف التشابه في الاشياء غير المتشابهة *the like in unlike* اى الهوية في الاختلاف وكلما قام التفسير برد الأنواع المختلفة الى مجال واحد فان هذه الأنواع تدرج كحالات خاصة في هذا المجال . ونستطيع أن نقول ان التفسير هو تضمين للخاص داخل العام : فتفسر الحرارة والصوت اذا نظر اليهما على انهما حالات خاصة لحركة جزيئات في غاية الصغر .

ويعتبر « الوصف العام » مرحلة تمهيدية وقد يطلق عليه اسم

(45) Ibid .

قانون ولكنه لا يمثل تفسيرات للعمليات التى يصفها . ويمكننا للوصول الى التفسير ان نوجد عددا من القوانين من نوع محدد فى قانون واحد ، ثم نعتبر هذا القانون حالة خاصة من قانون آخر ، وفى هذه الحالة فان نفس الصيغة سوف تصف عددا من العمليات . فجاليليو يفسر لماذا يقطع الجسم الساقط فى الفضاء مسافة معينة فى فترة محددة ، ونيوتن ايضا يفسر قانون جاليليو عندما يبين انه حالة خاصة لقانون الجاذبية ثم يأتى اينشتاين فيفسر قانون الجاذبية برده الى احد المبادئ العامة للقصور الذاتى . وتنتهى من هذا الى القول بان تفسير الطبيعة يعنى وصفها بواسطة القوانين (٤٦) .

وهكذا نجد ان التفسير يتجاوز الوصف لأنه يستعين بالوصف بالاضافة الى القوانين لكى يصل الى تحقيق هدفه . ومن هنا يمثل التفسير الاضافة والتقدم فى العلم . ولا يختلف الوضع فى العلوم الاجتماعية كثيرا عن ما هو موجود فى العلوم الطبيعية من حيث الوضع بين الوصف والتفسير . وحتى لو تضمن الوصف الاجتماعى تفسيرات فهناك احتمال كبير ان نكون منهمكين فى بحث تاريخى وليس فى عمل علمى ذلك ان هدف العلم دائما هو تفسير ظاهرة او حدث ما كنتيجة لتاثير قوانين عامة . ويضع العالم كهدف ابعد ربط وتفسير تلك القوانين بدورها بواسطة النظريات . اما المؤرخ فيهتم بالأحداث نفسها ، انه يرغب فى معرفة كيف أصبحت ما هى عليه فبينما يبحث العالم عن التشابهات بين الأحداث بقصد وضعها تحت تعميم واحد ، يقوم المؤرخ بتحديد الخصائص التى تحدد وتميز كل حدث عن غيره من الأحداث (٤٧) .

(46) M. Schlick. Description and Explanation. In p. Wiener (ed.) Readings in Philosophy of science op. cit. p. 470.

(47) Brown op. cit. p. 27.

(ب) التفسير والتنبؤ :

ان اطلاق صفة العلمية على شكل ما من اشكال الدراسة يعنى ان لتلك الدراسة هدفا اساسيا هو تفسير الظواهر والتنبؤ بها .
فما لا شك فيه ان التفسير والتنبؤ عمليتان على درجة كبيرة من الاهمية في البحث العلمى الا ان الخلاف قد دار حول موضوعات عدة خاصة بهما . وكان مما اثير حول هذا الموضوع : هل هناك بينهما تشابه ام اختلاف ؟ ، ارتباط ام انفصال ؟ ، بل لقد ذهب البعض الى مناقشة كون التنبؤ مفتقدا تماما في العلوم الاجتماعية .

ويركز الذين يؤكدون على التشابه بين التفسير والتنبؤ على البناء المنطقي بالدرجة الاولى : فالبناء الصورى للتنبؤ هو نفسه بناء التفسير ، ففي الحالتين لدينا :

(ا) شروط مسبقة .

(ب) تقارير عامة او قوانين .

(ج) نتائج مستنبطة من ا ، ب .

ونحن نقوم بتفسير حدث ما عن طريق بحث الشروط المسبقة ثم التسليم بالتقارير العامة وتطبيقها . ونفس الشيء يحدث بالنسبة للتنبؤ فنحن نتنبأ بوقوع حادث في المستقبل عن طريق استدلاله من الشروط المسبقة مع التقارير العامة . يتوقف اذن الامر على السؤال المثار : هل نريد ان نقوم بتفسير لم تنبؤ ؟ ويرد فيلسوف العلم « كارل بوبر » على هذا التساؤل : « فاذا كان موضوعنا هو ان نجد الشروط الاولى او بعض القوانين العامة (او كليهما) لكى نستنبط منها تكهنا او تقديرا لما يحتمل ان يحدث ، فمعنى ذلك اننا بصدد البحث عن تفسير وتصبح الواقعة المحتاجة الى تفسير explicandum هى هذا

التكهن او التقدير المعطى the given prognosis . اما اذا اعتبرنا الشروط الاولى والقوانين معطاة من قبل فلا تحتاج الى بحث وانما تستخدم من اجل استنباط التكهن او التقدير من اجل الوصول الى معلومات جديدة ، فمعنى ذلك اننا بصدد القيام بتنبؤ (٤٨) . من هذا يتضح لنا اننا في موقف التفسير نحاول ان نجد المقدمات الصادقة التى نستنبط منها النتيجة التى تم التحقق منها من قبل ، اما فى التنبؤ ، فاننا نتحقق من المقدمات قبل التحقق من النتيجة (٤٩) . ان الاختلاف الوحيد بين التفسير والتنبؤ اذن هو البعد الزمنى فبينما ينظر التنبؤ الى الامام لما سوف يحدث ، ينظر التفسير الى الخلف ابتداء مما هو موجود حالياً وانتهاء بما حدث من قبل .

ويؤكد « همبل » ايضا على التشابه بين التفسير والتنبؤ ، فشروط قيام التفسير هى نفسها شروط قيام التنبؤ ، ولا يعتبر التفسير مقبولا الا اذا كانت مقدماته صالحة كاساس للتنبؤ بالظاهرة . ان هذه القدرة على التنبؤ هى التى تعطى للتفسير العلمى اهميته ، ويقدر استطاعتنا تفسير الحوادث التجريبية بقدر ما استطعنا الوصول الى الهدف الاساسى للبحث العلمى . ان تسجيل الظاهرة وحده غير كاف ولا بد من التوصل الى تعميمات نظرية تسمح لنا بالتنبؤ باحداث جديدة (٥٠) .

ويقوم بعض فلاسفة العلم باختلاف بين التفسير والتنبؤ على اساس تباين القوة المنطقية لكل منهما . فبينما على التفسير ان يقوم بتقييم نتائجه عن طريق ابراز السبب القوى الذى دعى الى تفسير ظاهرة

(48) Popper Unity of Method in the Natural and Social Sciences op. cit. p. 35.

(49) Pap. op. cit. p. 344.

(50) Hempel and Oppenheim . The Logic of Explanation op. cit. p. 323.

بعينها دون ظاهرة أخرى بديلة ، فان نتائج التنبؤ لا تحتاج الى تقييم بهذا المعنى ويكفى امكان الاحتفاظ بهذه النتيجة دون أى بديل آخر مشابه . ويؤكد « ريكز » ضرورة ادراك اللاتماثل بين التفسير والتنبؤ من اجل اقامة منهج للتنبؤ - وهو ما اهمل طويلا من جانب فلاسفة العلم في رايه . فلا بد اذن من البحث عن امكانات العملية التنبؤية بصورة مستقلة عن عمليات التفسير (٥١) .

وقد لا يهتم البعض بالتشابه او الاختلاف بين التفسير والتنبؤ بقدر الاهتمام بتميز العمليتين . فمن الخطأ القول بان التنبؤ هو نتاج ضروري للتفسير لانه كما يوجد تفسير مع تنبؤ فانه يوجد تفسير بدون تنبؤ بالاضافة الى وجود امثلة لتنبؤ بدون تفسير . ذلك ان التنبؤ ما هو الا احد الوسائل لاقامة الفرض ، ولا يبدأ العلماء في العادة بفروض وانما ينطلقون ابتداء من معلومات تحتاج الى تفسير ثم يلى ذلك صياغة الفروض كمحاولات لتفسير المعلومات .

ولا تقدم التفسيرات السليمة تنبؤات بالضرورة كما لا تعتبر كل التنبؤات تفسيرات سليمة . فقد يوجد التنبؤ دون وجود التفسير مثل قولنا : « سوف تشرف الشمس غدا » . وقد نقوم بتفسير حدث ما دون ان يعنى ذلك قدرتنا على التنبؤ بحدوثه حاليا او حتى مستقبلا مثل العبارة : « اعتقد انى اصببت بالمرض بسبب تناولى لحما فاسدا » . ليس المطلوب اذن من التفسيرات ان تملك قدرة تنبؤية حتى تقبل كتفسيرات ونستطيع تفسير القوانين العلمية (عن طريق النظريات) بينما نعجز عن التنبؤ بها . فنقوم مثلا بتفسير القوانين الفيزيائية والديناميكا الحرارية بالرجوع الى الميكانيكا الاحصائية ، دون ان يتضمن هذا اى تنبؤ بها لاننا نعرف عنها ما يكفى منذ البداية . وحيانا نكون في غاية الثقة من تفسيرنا ولكننا نعجز عن التنبؤ اعتمادا عليه ويرجع

ذلك الى اننا نحتاج لى نتحدث عن زمن حدوث الشيء ، وما سوف يحدث (وهو ما يحتاجه التنبؤ) ، نحتاج الى قياس كمى quantification من نوع معين ، وهو ما لا يعتبر ضروريا فى بناء التفسيرات (٥٢) .

وكثيرا ما يثار موضوع عدم قدرة العلوم الاجتماعية على التنبؤ الدقيق بسبب تدخل القرارات البشرية التى لا يمكن التنبؤ بها بصورة حاسمة . ويرجع عدم القدرة على التنبؤ بأفعال البشر بالدقة العلمية المطلوبة الى صعوبة قيامنا بتصوير مقدم للظروف التى سيوجد فيها هؤلاء البشر . وحتى اذا كنا بصدد مجموعة ظروف حاضرة فاننا لا نملك تأكيدا دقيقا وصادقا لطريقة تفكير او احساس او تصرفات البشر . ولا يرجع ذلك الى ان طريقة الفرد فى التفكير او الاحساس او الفعل لا تعتمد على اسباب ، او اننا نشك فى نقص المعلومات . وانما يرجع الى ان الأفعال والمشاعر ليست مجرد نتيجة للظروف الحاضرة ولكنها نتيجة كل من الظروف الحاضرة وصفات الأفراد انفسهم . وتتأثر صفات الأفراد بمؤثرات عديدة ومتنوعة ، فكل ما حدث للفرد خلال حياته يملك هذا التأثير . وحتى لو بلغت علومنا عن الطبيعة البشرية درجة الكمال من الناحية النظرية اى حتى اذا استطعنا ان نحدد الصفات البشرية من المعلومات المتوفرة كما نحدد مدار الكواكب ، حتى فى هذه الحالة ، فان المعلومات تفتقد التشابه بالنسبة للحالات المختلفة بالاضافة الى عدم توفرها بشكل كاف . لذا فاننا نصل الى القول باننا لا نستطيع القيام بتنبؤات ايجابية فى هذا المجال (٥١) .

ويحذر ريكر العالم الاجتماعى من الوقوع فى متاعب اذا حاول اثناء

(52) Theobald op. cit pp. 105 - 106.

(53) J.S. Mill on the Logic of the social sciences in Wiener (ed.) op. cit p. 29.

تفسيره لحدث ما أن يقوم بالتنبؤ بأحداث أخرى شبيهة . ذلك أن هذه الأحداث ، التى يحاول التنبؤ بها ، سوف تقع فى نسق غير معزول عن تأثير العوامل التى لا يستطيع تأكيدها مسبقا . فمثلا يستطيع عالم الفلك أن يعد تقويما almanac متعلقا بالملاحة أو السفن لأنه يستطيع التنبؤ بحركات الأجسام داخل نظام معزول عن أى تأثير خارجى . اما وزير مالية الحكومة البريطانية فلا يستطيع أن يعد تقويما اقتصاديا مماثلا . ذلك اننا لو فرضنا أن لديه معرفة كافية من أجل تفسير كامل لكافة مستويات الأسعار والإنتاج والتصدير ورؤس الأموال ... الخ فإن تنبؤاته للمستويات المستقبلية ستتأثر بعوامل غير متوقعة ، يحتمل أن تؤدى الى تأثيرات متراكمة تحول دون التنبؤ (٥٤) .

يتضح لنا مما سبق أن تدخل العامل البشرى فى العلوم الاجتماعية ليس قاصرا على الاجراءات السابقة على التنبؤ وانما يؤثر ايضا على الخطوات التالية لها . فقد تؤثر معرفة الناس بالتنبؤ على تصرفاتهم بحيث تجعل التنبؤات تحدث أو تمتنع عن الحدوث ، وفى الحالتين تنتفى الدقة العلمية .

ولكننا نسال هل تفوق العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية فى هذا الصدد يرجع بالفعل الى العامل البشرى ام ان التفاوت يأتى من خطأ الوقوع فى المقارنة بين عالم العمل الذى تؤخذ منه تنبؤات الأحداث الطبيعية وعالم الواقع الذى تجرى فيه أحداث بشرية . ليس من الاجحاف ان نقارن بين نسق معزول يمثل عالم العمل ونسق مفتوح على التأثيرات المتنوعة ويمثل العالم الاجتماعى الواقعى . الا يجوز اذا قارنا بين العالم الواقعى الذى تجرى فيه الأحداث الطبيعية بالعالم الواقعى للظواهر الاجتماعية ان نجد تساويا فى فرص التوصل الى تنبؤات ؟

(54) Watkins op. cit. p. 723 (footnote) .

ومما لا شك فيه ان التنبؤات الخاصة بواقع لا يمكن معالجته او تنظيمه قليلا ما تصيب . ان عالم الارصاد الجوية - وهو باحث في المجال الطبيعى - يقضى وقتا صعبا في الوصول الى تنبوء بالجو لفن ترة اربعة وعشرين ساعة قادمة - او لمدة يومين او ثلاث . ذلك ان المتغيرات كثيرة ومتداخلة ومن الصعب الحصول على معلومات كاملة عن بعضها . اما العلماء الاقتصاديون فوضعهم افضل قليلا لانهم يستطيعون التنبوء بالعمالة والدخل ، والتصدير وعائد الضرائب خلال ستة اشهر قادمة او عام او اثنين . واذا فشلوا فليدهم اعداء قوية ، فقد يرجع هذا النشل الى تدخل من جانب مؤسسات او جماعات قوى تعمل على ابطال التنبؤات(٥٥) .

يتميز التفسير اذن عن التنبوء سواء من ناحية البناء المنطقى(٥٦) او مجموعة العوامل التى تتدخل في طريق تحقيق كل منهما ، لذا فان التفسير هو عملية قائمة بذاتها تحتاج الى الدراسة المنفصلة وذلك سواء في العلوم الطبيعية او في العلوم الاجتماعية .

(ج) التفسير والتعميم :

ان السير الطبيعى للعلوم يقوم على التوصل الى تعميمات تجريبية كنتيجة مباشرة للوصف ثم تفسير هذه التعميمات في ضوء نظرية مقبولة . هذه التعميمات هى عبارة عن قوانين مثل قانون بويل في مجال العلوم الطبيعية او قانون العرض والطلب في مجال العلوم الاجتماعية .

ومن الخطا الخلط بين التفسير والقوانين او التعميمات . فالقوانين والتعميمات لا تقوم وحدها بالتفسير ، فهى عبارة عن تلخيص لما تم

(55) Machlup op . Cit . p . 173 .

(٥٦) نستطيع القول ان التنبوء يتضمن استبصارا لما يأتى ، بينما يشير التفسير الى تراجع بقصد التوصل الى الاسباب .

ملاحظته ، ان النظريات وحدها هي التي تتيح التفسير اى الفهم الكامل
لملاحظاتنا(٥٧) .

ويتضمن التفسير القول بانه لا يوجد قانون اولى اى لا يوجد
قانون يعتبر مبدا كل القوانين (ولا يسبقه شئ) ، وانما كل قانون
يعتمد على قوانين سابقة ويؤدى بنا الى قوانين تالية . ومن ثم نصل
الى النظرية العلمية . فالنظرية العلمية هي مجموعة قوانين عامة
يرتبط احدها بالآخر ارتباطا متسقا يعتمد بعضها على بعض وهي جميعا
متعلقة بنوع واحد من الظواهر ، وكل قانون في هذه النظرية العلمية
او تلك انما يفسر جانبا معينا من تلك الظواهر ، بحيث ان مجموعة
تلك القوانين المؤلفة للنظرية العلمية تفسر تلك الظواهر من كل
جوانبها(٥٨) .

ان قانون بويل نفسه لا يفسر تقريبا ، على الرغم من انه يتيح
التنبؤ بسلوك الغازات . ان التفسير السليم يحتاج الى تفسير لقانون
بويل نفسه . اما النظرية فهي تفسر كاف في العلوم الطبيعية ، فالنظرية
الحركية Kinetic Theory هي عبارة عن تفسير لسلوك الغازات ،
فهي تتيح معرفة ما يحدث : انها تعبر عن وجود اشياء تسمى جزيئات
وتخضع للقوانين العامة للحركة .

ويميز د . زكى نجيب محمود بين التفسير والقانون كالتالى : حين
نصف الطبيعة بقوانينها ، اى حين نصفها بكشفنا عن اوجه الشبه بين
ما يبدو عليه التباين من ظواهرها ، نكون قد خطونا خطوة وبقيت
خطوة . فكما اننا نطوى الحوادث الجزيئية المتعددة تحت قانون واحد
اذا رايناها تطرد معا على غرار واحد ، فائنا بعد ذلك نعود فنلتمس

(57) Theobald. op. cit. p. 76.

(٥٨) د . محمود زيدان : مرجع سابق ، ص ١٤٦

أوجه الشبه بين مجموعة القوانين التي انتهينا إليها ، لعلنا نجد بعضها يندمج في بعضها الآخر ، فإذا عرفنا أن قانونا ما هو في الحقيقة متفرع من قانون آخر أعم منه ، أدخلنا الآخر في دائرة الأعم ، وكان ذلك منا بمثابة تفسيره كما كان إدخالنا للحادثة الجزئية الواحدة تحت قانون يشملها هي وغيرها مما يطرد معها في الحدوث ، تفسيراً لها . فمثلاً للحرارة قوانينها الخاصة - في علم الطبيعة - وكذلك للضوء قوانينه الخاصة ، لكننا قد نجد بالبحث أن قوانين الحرارة والصوت معا ، تدخل كلها تحت قوانين حركات الذرة ، فإذا وجدنا شيئاً كهذا ، كان ذلك بمثابة التفسير لهاتين المجموعتين من القوانين «(٥٩)» أن تفسير القوانين العلمية معناه اندماج عدة قوانين من نوع بعينه تحت قانون واحد ، فنحن نفهم القانون العلمي حين ننظر إليه على أنه حالة خاصة من حالات قانون آخر أعم «(٦٠)» .

وكثيراً ما يثار في مجال العلوم الاجتماعية إمكانية التوصل إلى القوانين ، فإذا كانت هذه العلوم تدرس الظواهر الفردية والخاصة فمعنى ذلك فيما يرى البعض أننا لن نصل إلى قوانين : أن كل فرد في هذه الحالة هو ظاهرة فريدة بينما اهتمام القانون منحصر فيما هو عام في شواهد وأمثلة عديدة . ويغفل هذا الرأي كون القانون يتعامل مع ما هو مشترك ، ولا يعنى التفرد في ظاهرة ما أو فرد ما أو مجتمع ما أنه لا يشترك مع غيره من الظواهر أو الأفراد أو المجتمعات في خصائص معينة ، ففي الواقع أن تفرد موضوع الدراسة لا يعنى أكثر من أن هذا الموضوع لا يشترك مع الظواهر الأخرى في كافة الخصائص .

(٥٩) د. زكي نجيب محمود : المنطق الوضعي ، مرجع سابق ،

ص ٢٩٥

(60) M. Schlick philosophy of Nature p. 15 Quoted in .

(٦٠) د. زكي نجيب محمود : المرجع السابق .

ويهتم القانون بالتكرار ، وليس من المهم ان يكون التكرار خاص بالشئ نفسه ويكفى ان ما يحدث يشبه السابق بشكل يخدم اهداف التعميم ، وينطبق هذا الشرط على قوانين البشر كما ينطبق على القوانين الاخرى (٦١) .

ولا يوجد ما يحتم التزام العلوم الاجتماعية بالقوانين العلمية او السببية ، ومن الممكن اللجوء الى القوانين الاحصائية التي تتحكم في مجموعة كبيرة من الظواهر . وقد رأى بعض العلماء وفلاسفة العلم امثال ماكس فيبر M. Weber ان البحث عن القوانين ليس هدفا في حد ذاته بقدر ما هو وسيلة لتحقيق اهداف اخرى ، ولا يعنى هذا التخلي عن البحث للوصول الى قوانين . ان التوصل الى الاطرادات (التعميم) هو وسيلة وليس غاية : فنحن نريد كشف ما هو عام ومجرد لكي نفهم ما هو فردى وواقعى ، ولأنك ان اى معرفة عامة هى مساهمة فى كل من الفهم والتفسير (٦٢) .

ويتأثر التفسير بالقانون ، فان تفهم شيئا هو ان نتبين انه حالة خاصة لما هو معروف بشكل عام . وهنا تختلف التفسيرات باختلاف القضايا العامة التي تقع ، مع الشروط الخاصة ، ضمن مقدمات الاستدلالات التفسيرية . ولا تكمن الضرورة فى مقدمات التفسير وانما فى العلاقة بين المقدمات والنتيجة المترتبة عليها . وليس من الضرورى ان يكون المبدأ العام او القانون المتضمن فى مقدمات التفسير قانونا علميا او سببيا ، وكل ما نحتاجه هو ضرورة منطقية وليست علمية او سببية .

(61) A. Kaplan. The conduct of Inquiry : Methodology for Behavioral Science. New York Chandler Publishing Co. 1964. p. 117 .

(62) Ibid p. 115.

الفصل الثالث

«الاتجاه الوضعى»

تمهيد : لمحة تاريخية •

• أولا : اتجاه أوجست كونت ونظريته الى التفسير

• ثانيا : نظرة نقدية الى اتجاه كونت •

• ثالثا : اتجاه اميل دوركايم ونظريته الى التفسير •

• رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم •

• خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثّة والسلوكية ونظريتهما الى التفسير •

• سادسا : نظرة نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثّة والسلوكية •

تمهيد :

ذكرنا من قبل اننا سنستعرض الاتجاهات الحالية في العلوم الاجتماعية ، وقد يتساءل البعض هل الوضعية اتجاه معاصر ؟ وما علاقته بالعلوم الاجتماعية ؟ وما قيمته في هذا المجال ؟ ونبدأ فنقول ان المدرسة الوضعية لم تبدأ في القرن العشرين وانما تمتلك جذورا واصولا ممتدة في الماضي السحيق . ولم يمنعها هذا من الاستمرار والتطور حتى اصبحت ما هي عليه الآن على ايدي علماء مبرزين امثال ناجل وهمبل وبوير وغيرهم .

وانه لمن المفيد أن نستعرض بايجاز شديد تطور هذا الاتجاه فان المعروف والشائع هو أن الوضعية بدأت على يد «ووجست كونت في القرن التاسع عشر ، الا اننا لو بحثنا في الماضي نجد افكارا وضعية ، بعضها لم يرق الى مستوى يجعله يصير اتجاهًا ، وبعضها كان قاب قوسين أو أدنى من ذلك .

ان محاولات القدماء السابقين على سقراط لم يخل بعضها من افكار وضعية ، ولعل أبرزها تلك التي اوردتها المدرسة الذرية والسوفسطائيون ، بتأكيدهم على الخبرة كطريق الى المعرفة ، والى أهمية الرجوع الى الطبيعة . ويقول لقيبوس في هذه الشذرة التي تمثل أيضا رأى ديمقريطس « لا شيء يحدث للشيء ولكن يصدر كل شيء عن سبب وبالضرورة » ومعنى الضرورة هنا يفيد الارتباط الضروري أو الحتمية الطبيعية مما يقترب من فكرة القانون الطبيعي(١) . وقد لخص بروتاجوراس مذهبه النسبي في عبارته المشهورة « الانسان هو مقياس كل شيء ، مقياس وجود الموجود منها وما لا يوجد » . وقد فسرت

(١) د. أميره مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع

نظريته في المعرفة على ضوء هذه العبارة ، ويظهر منها انه اعتمد على الخبرة الحسية كطريقة للمعرفة الانسانية (٢) .

اما ارسطو فكان وضعيا فيما قدمه لنا من دراسات اجتماعية : يصف ويشرح ويحلل ويقارن ثم يكشف وجود النقص وعلل الفساد فيقرر ما يراه محققا للمعايير السوية والأغراض النبيلة التي يهدف اليها من وراء دراساته النظرية (٣) . لقد تأثر ارسطو بكل من الطبيعيين من جهة وبمستأذه افلاطون من جهة أخرى ، الا أن افلاطون مال بشدة الى الاتجاه العقلي بينما حاول ارسطو اكمال النقص الموجود لدى سابقه . ان تحليل ارسطو للدساتير المعروفة وانظمة الحكم المختلفة تظهر نزعته الواقعية التحليلية القائمة على استقراء الأحداث التاريخية والاعتماد على المنهج التجريبي بما يتضمنه من خطوات تقوم على الملاحظة والاستقراء .

وقد اهتم ارسطو بالتفسير في كتب الطبيعة او الفيزيكا ، فقد رأى ان افلاطون والمثاليين لم يعنوا الا بالعلة الصورية والفلاسفة الطبيعيون لم يعنوا الا بالعلة المادية ، أما التفسير الصحيح للطبيعة عنده فهو الذي يضيف أيضا الى هاتين العلتين العلة الفاعلة والغائية (٤) . ان العلل عند ارسطو هي الأسباب فان مهمة علم الطبيعة في نظره هي معرفة أسباب ما يحدث فيها من تغير . الا أننا نلاحظ أن المعانى التي قصد اليها بكلمة « علة » او « سبب » تختلف عما يفهم من هذه الكلمة في استعمالنا اليومي وفي استعمالنا العلمى اليوم على السواء . وليست الغاية المقصودة جزءا من العلة في لغة العلم ولا الماهية التي

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠

(٣) د. مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول : تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٥٦

(٤) د. أميرة مطر : مرجع سابق ، ص ١٧١

تجعل من الشيء ما هو ، جزءا من العلة ، فلا يجوز - مثلا - اذا اردت ان اعلل كسوف الشمس او فيضان النهر ان اسال ما الغاية المقصودة من هذه الظاهرة او تلك ، ولا ان اسأل على أى صورة تكون ماهية الظاهرة ، بل السؤال ينصرف الى ما قد حدث قبل حدوث الظاهرة بحيث يكون حدوثه دائما مع حدوثها (٥) .

واننا لنجد في العصور الوسطى بعض الأفكار الوضعية المعبرة عن اهتمام متزايد بدراسة الطبيعة والبحث الكونى والفيزياء وذلك بهدف استبعاد المقولات الأرسطية من وصف الطبيعة . الا ان هذه الأفكار لم ترق الى درجة تمثل وجهة نظر متميزة ومؤثرة . فمثلا وضع ويليام أوكام مبدأ سمي باسم « نصل أوكام » *Ockham's Razor* يقوم على القول بأن الخبرة وحدها هي المحك . وقد قام أوكام برد مقولات أرسطو الى اثنين المادة والكيف *substance and quality* على أساس ان تلك المقولتين تشيران وحدهما الى حقائق في عالمنا . وقد كان هدف تفكير أوكام هو استبعاد التصورات المقولية من الفلسفة على أساس ان المعرفة ليست الا مجموعة المعلومات التى تؤكدتها الخبرة (٦) .

وقد بدا الموقف الوضعى يتضح مع مولد الميكانيكا الحديثة في القرن السابع عشر . وعلى الرغم من أن فكر جاليليو وضعى فى جملته الا انه اقام تصورا للعلم يمكن أن نسمة وضعيا . فيمكن أن نقول ان جاليليو هو أول من صاغ بشكل مميز ما يمكن أن نسمة مذهب *phenomenalism* معارضا به التأويل التقليدى للعالم فى ضوء الأشكال المادية *substantial* . لقد كان الوصف السابق للمواقع يقوم

(٥) د . زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ، مكتبة

الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢

(6) L. Kolakowski . *Positivist philosophy* . Translated by Norbert Guterman . Middlessex : Pelican Books 1972 p. 22 .

على رد الأسباب في الظواهر الملاحظة الى طبيعة غير تجريبية (مثلا اعتبار الثقل سببا في سقوط الأجسام) ، ثم بدا يتضح أن هذه الطريقة في التفكير لا تمثل معرفة ذات قيمة ، وأن الطبائع لا تفسر شيئا . واصبحت مهمة العلم أن يقدم وصفا كميا للظواهر القابلة للقياس .

وعلى الرغم من أن ديكارت ولينيئز لا يمكن أيضا اعتبارهما من الفلاسفة الوضعيين إلا أن كلاهما شارك في الرأي الوضعي الذي يرى أن تفسير العالم في ضوء قوى غير مرئية لا يمكن إخضاعها للتحقق التجريبي ، وهو تفسير لا معنى له . لقد آمن كلاهما بالعلم وبدوره في كشف الألغاز وملا الثغرات بالمعرفة الحقيقية بدلا من تلك الأشكال المزيفة من الصياغات اللفظية .

أما باركلي فقد استبعد أي عنصر غير ضروري من التفسيرات ، ودعا الى التخلص من النظرة الاحادية الى العالم التي ترى أن القوى الطبيعية بذاتها هي المسؤولة عن كل العالم المرئي . أن باركلي وإن كان اسما في نزعته من حيث أنه لم يقبل المعاني المجردة أو الأسماء الكلية في معناها الميتافيزيقي ، إلا أنه لم يتطرق في هذه النزعة الاسمية كما تطرف الوضعيون المناطقة (٧) إلا أن باركلي حين رد الأشياء الى الأفكار واعتبر المحسوسات مجرد صور عقلية ، قد أخفق في تفسير اتفاق الناس في معرفتها ، لأن أرجاع الأفكار الى الله لا يحل هذا الاشكال (٨) .

ويعتبر دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) أول من نستطيع أن نصفه بأنه وضعى بدون تحفظات كالتي أوردناها بالنسبة للمفكرين السابقين ، حتى أنه قيل عنه « أنه أول فيلسوف وضعى بالمعنى الشامل

(٧) د. يحيى هويدي : باركلي ، القاهرة . دار المعارف (نواحي الفكر الغربي) ، ١٩٦٠ ، ص ٢٧
(٨) د. زكي نجيب محمود : مرجع سابق ، ص ٣١

الدقيق» (٩) ، كما قيل عنه انه جد الوضعية المنطقية بغير منازع (١٠) . وهذا لاتجاهه التجريبي المنطقي ورفضه للتفكير القبلى من اجل الكشف عن اسرار الكون . لقد قام هيوم بتقسيم ادراكات العقل الى مجموعتين متميزتين :

الاولى : تضم الانطباعات الحسية impressions التى تتمثل فى كل ادراكاتنا عندما نسمع ، او نرى ، او نحس ، او نحب ، او نكره ، او نتمنى ، او نريد .

الثانية : هى « الأفكار » وهى الادراكات القائمة فى الذاكرة وفى ملكة الخيال ، وتشتق هذه الأفكار بالكامل من الانطباعات الحسية .

وقد رأى هيوم أن عملية الفهم تتعامل اما مع علاقات بين افكار واما مع وقائع ، فاما عن العلاقات بين الأفكار فيمكن دراستها دون الرجوع الى شئ خارجها اى دون الرجوع الى الملاحظة : ويتمثل هذا فى علاقات التشابه ، والتقابل ، ودرجة الصفات المنسوبة ونسبها الكمية . وتعتبر دراسة هذه العلاقات موضوعا للعلوم الرياضية التى تؤدى الى معرفة مؤكدة تماما الا انها لا تخبرنا بشئ عما تشير اليه . واما عن الأحكام الخاصة بالوقائع فان هيوم يراها على عكس القضايا الرياضية تنبئنا عن أشياء خاصة بالوجود : فهى تؤكد على وجود حدث ما ، الا انها فى نفس الوقت لا تشير الى اى نوع من الضرورة . وقد ادى هذا النوع من التحليل لى هيوم الى نتائج هامة ، فمن القضايا السببية نستطيع التنبؤ أن حدثا ما سوف يقع وذلك بناء على حدث آخر . ولم تكتسب هذه المعرفة بين السبب والنتيجة عن طريق مجرد تحليل للعبارات ،

(٩) د. توفيق الطويل : اسس الفلسفة - القاهرة . دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥٦
(١٠) المرجع لمسابق ، ص ٢٧٩

ولا هى أولية او قبلية ، وانما نصل اليها عن طريق الخبرة والتجربة .
وقد عاب النقاد على تفسيرات هيوم الثارتها لمبدأ السببية الذى اعتبره
هو نفسه غير قابل للتحقق .

وقبل ان ننقل للحديث عن ممثلى الوضعية التقليدية والوضعية
بصورتها المعاصرة ، يجدر بنا ان نشير الى جهود فيلسوف وعالم اجتماع
عربى كبير هو ابن خلدون . لقد كان ابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦
مؤسسا لعلم الاجتماع بحق قبل فيكو وكونت ودوركايم بمئات السنين .
وقد اطلق ابن خلدون على هذا العلم اسم « علم العمران والاجتماع
البشرى » . وكان ابن خلدون وضعيا فى نظريته الى الوقائع الاجتماعية ،
فقد اعتبر الظواهر الاجتماعية غير منفصلة عن الظواهر الطبيعية من
جهة وعن الظواهر الاجتماعية الأخرى من جهة ثانية . وقد عنى
ابن خلدون بتفسير الظواهر الاجتماعية فلم يردّها الى قوى غير طبيعية
او ارادات الامراء وانما ارجعها الى قوانين مستخدما فى ذلك منطق
التعليل . وفى هذا الصدد يقول : « انا نشاهد هذا العالم بما فيه
من المخلوقات كلها على هيئة من التركيب والاحكام وريط الاسباب
بالمسببات واتصال الأكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقضى
عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته » (١١) .

لقد حرص ابن خلدون على فهم الحوادث وتفسيرها عن طريق
الكشف عن القوانين والاسباب . اما الطريقة العلمية التى يوصى
ابن خلدون باتباعها فهى طريقة مبتكرة تعتمد على دراسة القوانين التى
يخضع لها المجتمع ، وعلى المقارنة بين أنواع المجتمعات ومختلف
الشعوب . وهى الطريقة التى يشير اليها بقوله « وسلكت فى ترتيبه
وتبزيه مسلكا غريبا او طريقة مبتدعة واسلويا ، وشرحت فيه من احوال

(١١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٠ - ٨١ مأخوذه عن كتاب

د مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠

العمران ما يمتلك بطل الكوائن واسبابها ، ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على احوال من قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك (١٢) وهنا نرى انه يريد منها علميا بمعنى الكلمة ، لانه يهدف الى الكشف عن القوانين التي يمكن استخدامها في تفسير الماضي والتنبؤ بالمستقبل (١٣) .

أولا : اتجاه أوجست كونت ونظريته الى التفسير

ان اهتمامنا بكونت (١٤) (١٧٩٨ - ١٨٥٧) وتمييزنا له من بين الوضعيين للحدوث عنه بتفصيل لا يرجع الى كونه مؤسسا لعلم الاجتماع ، او رائدا في هذا المجال فحسب وانما لانه من اهم الشخصيات في تاريخ العلوم الاجتماعية ، وفهمنا له بمساعدتنا ولا شك على فهم ما نملكه حاليا من تراث علمي ومنهجي .

كان كونت أول من قدم بوضوح تام نسقا من التحليل المتعلق بالعلم الجديد وموضوعه . وقد تضمنت أعماله توضيحات لأشياء عديدة ، هي في واقع الأمر موضوعات اساسية خاصة بالنظرية والمنهج معا : مثل الحذر في ذكر الفروض التي تخضع للاختبار ، واستخدام المنهج المقارن .

(١٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤ ، مأخوذة من كتاب د. محمود قاسم . المنطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة . مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٣ . ص ٢٩٧
(١٣) د. قاسم : مرجع سابق ، ص ٢٩٧
(١٤) لكونت مؤلفين رئيسيين :

1 — « Cours de philosophie positive » (professes a partir de 1826 , publiés de (1830 à 42) , 6 Volumes, 60 leçons.

2 — « Systèmes de politique positive instituant la Religion de l'humanité » entrepris vers 1845 publié en 1854, 4 Volumes.

والتصنيف الدقيق للمجتمعات ، والطريقة الجديدة في ادراك العلاقة بين علم النفس وعلم الاجتماع ، والاتجاه المنظم في دراسة التاريخ . وفي الواقع ان كثيرا من الموضوعات التي اثارها اصبحت نقطة البداية التي سار على دربها العلماء ما يقرب من مائة وخمسين عاما . وكمثال لهذه الموضوعات نذكر تحليل طبيعة المجتمع الاساسية - مؤسساته الرئيسية ، والتغيرات ، والتطورات التاريخية التي طرات عليها كالاساس المادى للمجتمع (تكوين راس المال وتراكمه وتركيزه وانتقاله) ، وتقسيم العمل ، واللغة ، والامرة ، والدين ، والعلاقة بين البروتستانتية والعلم ، والتطور الجديد في اشكال الملكية المتبدى في تطور الرأسمالية الصناعية . كل هذا ظهر في مؤلفاته الهامة الاولى . مثل مؤلفه « دروس في الفلسفة الوضعية » ويصوره اكثر تطورا في مؤلفه « انساق علم السياسة الوضعى » (١٥) . وفي الواقع ان كونت يمثل خذا فاصلا بين الفلسفة التأملية وبين الفكر الوضعى او العلمى .

واذا تأملنا فكر كونت وفلسفته نجد ان هدفه الأول كان التفسير . ولم يكن المنهج الذى سار عليه الا وسيلة للوصول الى تلك الغاية . لقد نظر كونت الى العلم على انه واقعة اجتماعية ، ومن هذا المنظور يمكن وصف مراحل الماضية وتقدير احتمالات المستقبل ، فالعلم ليس الا اداة لزيادة تحكم الانسان في ظروف حياته الطبيعية والاجتماعية .

ولا يمكن فهم « قانون كونت للحالات الثلاث » الا اذا وضعنا نصب اعيننا انه يصف حقائق اجتماعية ويتعامل مع مضمون المعرفة الانسانية كاحدى مكونات الحياة الاجتماعية . ان الانسانية قد مرت بمراحل ثلاث تتميز كل منها بخصائص معينة . وقد افرد كونت درسه الاول

(15) K. Thompson « Auguste Comte : The Foundation of Sociology » . New York , John Willy and Sons 1975. (Introduction by R . Fletcher PIX) .

في مجموعة « دروسه عن الفلسفة الوضعية » للحديث عن هذا القانون ،
محددا أطواره السابقة ، مركزا على مرحلته الحالية وهى الوضعية .

وتعتبر المرحلة الأولى ، وهى المرحلة الملاهوتية أو الدينية ، عن
تطور البشرية ابتداء من عبادة الصنم *fetichism* مارة بالشرك .
(تعدد الالهة) *polytheism* منتهية بالتوحيد *monotheism* وتوافق
هذه المرحلة أكثر فترات الحياة بداءة وهى الشيوقراطية أو الحكومة
الدينية *Theocracy* ويمر كل علم بهذا الطور ، فهو لا زال في مرحلة
البحث عن الطبيعة المختلفة للأشياء لذلك يتساءل « لماذا تحدث
الأشياء ؟ » . وتأتى الاجابة عن طريق بناء كائنات الهية قائمة داخل
التصور الذاتى للانسان . ويبدو الطريق الذى تسلكه الطبيعة كسلسلة
من المعجزات تقوم بها قوى عليا تحكم العالم المرى .

ولا شك ان العقل في هذا الطور الأول يحاول تفسير الكون ،
الا انه يعجز عن الفكك من قوى المطلق حيث يفسر كل شئ بواسطة
رده الى ارادات متعسفة مملوكة لكائنات تتعالى عن الطبيعة
supernatural (١٦) . فالعقل يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى مخصصة
فريدة خارجة عن نطاق الظاهرة كالألهة والأرواح والشياطين وما اليها
كان يفسر الظواهر بنسبتها الى الله عز وجل أو الى أرواح النيات (١٧) .
وهذه هى الطريقة العقلية البدائية في تفسير الكون . واذن فليس المراد
بها البحوث النظرية في المسائل الالهية على النحو المعروف في العصر
الحاضر . واذن يكون التفسير الملاهوتى البدائى تفسيرا خرافيا
أو اسطوريا (١٨) .

(16) Auguste Comte. Cours de Philosophie Positive (1ere
et 2eme lecons) . Introduction et notes par Ch. Lal o . Libra-
irie Hachette, 1931 PXXVI.

(١٧) د. الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨

(١٨) د. قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣١٧

وإذا انتقلنا الى الطور الثانى وهى الحالة الميتافيزيقية او المجردة ، فس نجد ان العقل اصبح اكثر نضجا عن ذى قبل ، فلم يعد يبحث عن اسباب تتعالى عن طبيعة الأحداث . الا ان العقل فى هذه المرحلة لا زال يجد فى طلب « طبيعة الأشياء » ولا زال يريد التوصل الى « سبب » الظواهر . الا ان نظرة العقل هنا مخالفة لما كانت عليه فى المرحلة الاولى ، فهو وان كان يخلق آلهة ولكنها غير دينية ، هى آلهة طبيعية : حيث يكون المسئول عن الوقائع الملحظة « قوى مجردة » او « صفات » او « كليات لفظية » يعتقد انها حقيقية .

ان العقل فى المرحلة الثانية يطلب ايضا التفسير . وهو يفسر الظواهر بنسبتها الى معان مجردة او قوى ميتافيزيقية وعلل اولى لا يقوى على اثباتها . كان يفسر ظاهرة النمو فى النبات بنسبتها الى قوة النبات (١٩) .

وقد ادت الحالة الميتافيزيقية وظيفة كبرى وهى النقد والهدم للفلسفة البدائية ، وذلك عندما استعاضت عن الارادات الالهية بالقوى الطبيعية .

وتتميز المرحلة الثالثة والاخيرة ، وهى الحالة الوضعية او العلمية ، فى كونها لا تحاول ان تجيب على اسئلة شبيهة بالاسئلة المثارة فى المرحلتين السابقتين ، بل وتستبعدا وتكشف تهايتها وطابعها اللفظى . ان العقل الوضعى يكف عن البحث وراء الطبيعة المختفية للأشياء فهو يرفض التعرف على المطلق وعلى منشا وهدف العلم .

ان العقل الوضعى فى الطور الثالث يسأل كيف تحدث الظواهر ، وما الطريق الذى تسير فيه ، انه يجمع الوقائع ويبدأ فى دراسة قوانين الظواهر أى العلاقات بين الظواهر المتتابة والعلاقات بين الظواهر المتشابهة . ولا يسمح العقل فى هذه الحالة للتفكير الاستنباطى أن يمس

بعيدا وانما يخضعه للتحكم الدائم للوقائع « الموضوعية » (٢٠) ، انه يكف عن استخدام تعبيرات ليس لها مقابل في الواقع .

واذا كان العقل في المرحلتين السابقتين قد حاول التفسير سواء بالرجوع الى قوى متعالية عن الطبيعة او الى قوى مجردة ، فهو في المرحلة الثالثة يطمح ايضا الى التفسير . ويقول كونت في هذا الصدد « ان تفسير الوقائع في شكلها الحقيقي ليس أكثر من الربط القائم بين مختلف الظواهر المحددة *phénomènes particuliers* وبين بعض الوقائع العامة *faits généraux* التي يحاول التقديم العلمى جاهدا ان ينقص من عددها » (٢١) ان العقل قد توصل أخيرا الى المنهج الذى يفسر جميع الظواهر الطبيعية كانت أم اجتماعية تفسيراً علمياً .

ان كونت يرد التفسير هنا الى وقائع وإلى علاقات ضرورية بين الوقائع ، وإلى قوانين . فلا رجعة اذن الى الخيال او التجريد ، ولا يوجد بعد اليوم الا وقائع خاصة وعامة . ان التطور الداخلى لكل طور ادى الى التوصل الى مبدا واحد للتفسير ، بعد ان كان يوجد مبادئ متعددة : فقد أصبح هناك اله واحد ، وطبيعة واحدة ، وقانون واحد للعالم بأسره . ان الفكر الوضعى يسعى الى اليقين ، وفى سعيه هذا يهدم اليقين الزائف . انه يفترض تفسيراً حتمياً للظواهر – ولا يعنى هذا وجود أسباب « ميتافيزيقية » – ولكن بمعنى انه يبحث عن ادخال كافة الظواهر الملحظة فى قوانين عامة . وتشمل هذه القوانين او الاطرادات الملحظة فى الظواهر مجموعة الأحداث . كان العقل فى هذه المرحلة يفسر ظاهرة النمو بنسبتها الى العوامل الطبيعية والكيميائية والقوانين المؤلفة لهذه الظاهرة (٢١) .

(20) Kolakowski op. cit. p. 70.

(٢١) د. الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩

ومادام الهدف الأول للعقل هو الكشف عن القوانين العامة الثابتة .
التي تحكم الظواهر فلا بد له من اصطناع منهج يتلائم مع هذا الهدف ،
منهج يقوم على استخدام الملاحظة والتجربة والمقارنة .

بعد أن فرغ كونت من الحديث عن « قانون » الحالات الثلاث
يمضى الى تعريف الفلسفة الوضعية مبرزاً دور القانون فيها . فقد حلت
فكرة القانون محل فكرة العلة الأولى أو العلة الغائية ، وأصبح هدف
العقل الوضعي في ضوء ماضيه وحاضره هو تكوين فيزياء اجتماعية .
(أى علم الاجتماع) من جهة ، تصنيف مجموعة العلوم من جهة أخرى .
ويقول كونت « أن الطابع الأساسى للفلسفة الوضعية هو النظر الى
الظواهر كافة باعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة ، ويعتبر الكشف
عنها وردها الى أقل عدد ممكن ، هدفاً لكل جهودنا » (٢٢) .

لقد أراد كونت أن يضع منهجاً يتفق مع موضوع دراسته ، أى متلائماً
مع علم الاجتماع باعتباره يشغل مكانه خاصة في سلمة العلوم ، وهذه
المكانة هى التى تحدد لعلم الاجتماع منهجه . لقد صنف كونت العلوم
في الدرس الثانى من (دروس الفلسفة الوضعية) إلا أن هذا التصنيف
ينصب فقط على العلم النظرية ، أما العلوم التطبيقية فهى توابع لها .
أن العلوم العامة أو المجردة هى الأساسية بينما العلوم الواقعية لا تملك
استقلالاً ذاتياً ، ولا يمكن رد العلوم الأساسية الى أى علم آخر أو ردها
الى بعضها البعض . ويرى كونت أن هذه العلوم تمر بمراحل تطوّر
إلا أن معدل تطورها يختلف من علم الى آخر ، وانتقال علم ما من
مرحلة الى مرحلة أخرى أعلى من الأولى لا يحدث صدفة وإنما بفضل
بحوثها ويفضل علاقاتها بالاحتياجات الاجتماعية . وبالتالي تكون العلوم
نظماً أو تدرجاً طبيعياً حسب أربعة معايير هى :

١ - العمومية أو البساطة في الموضوع .

٢ - الاعتماد المنطقي أو التسلسل العقلي .

٣ - السهولة في التدريس .

٤ - التطور التاريخي (٢٣) .

فيكون النظام على الشكل التالي : اكثر العلوم بساطة في الموضوع واكثرها عمومية في الصدق هي العلوم الرياضية التي تتعامل مع جميع اشكال العلاقات الخاضعة للقياس بين الظواهر ، بعدها يأتى علم الفلك ثم الفيزياء ثم الكيمياء فالبيولوجيا واخيرا علم الاجتماع . وقد اقام كونت الرياضة على راس العلوم لانها علم متخصص ومنهج عام في الوقت نفسه كما انها لا تملك موضوعات واقعية في الطبيعة ولكنها اداة نستطيع تطبيقها بدرجات متفاوتة في بقية العلوم .

ولما كان علم الاجتماع يقع بعد البيولوجيا في التصنيف فانه ولا شك قد تآثر بها ، وبالتالي فانه سوف يبنى على كل ما اقيم حول طبيعة الانسان من حيث التشریح والفسيولوجيا (التي كانت تضم ما نسميه اليوم بعلم النفس) . ويقوم علم الاجتماع بتحديد المسار العام ومراحل تطور الحضارة . ان منهج كونت العام القائم على المقارنات التاريخية كنقطة بداية يهدف الى تحديد الاتجاه العام للتطور البشرى في علاقته بالتصورات الرئيسية للانسان تجاه النظام الطبيعى والاجتماعى (٢٤) .

ويعتبر كونت التاريخ منهجا رابعا للبحث في علم الاجتماع الى جانب الملاحظة والتجربة والمقارنة . ان خطط كونت من اجل الاصلاح الاجتماعى ترتبط بصورة ما بتاريخ العالم حيث توجد فكرة مساندة اخذها كونت عن سان سيمون . هذه الصورة تقسم التاريخ الانسانى

(23) Compt. op. cit. p. XIX .

(24) Thompson. op. Cit. p. 17.

الى فترات متتالية بعضها « عضوى Organic » وبعضها نقدى Critical . وخلال الفترات العضوية ، حيث تعتبر الاختلافات الاجتماعية تقسيمات طبيعية للوظائف الاجتماعية الضرورية ، تحاول المجتمعات المحافظة على النظام الموروث . فى هذه المرحلة الزمنية يعامل المجتمع باعتباره كيانا متعاليا عن الفرد Supra individual entity له قيسم خاصة به تفوق قيم الفرد الذى هو جزء منه . وفى الفترات النقدية التى تحاول تحطيم النظام الموجود ، يرى المجتمع نفسه على عكس الصورة السابقة كمجموع لأفراد منفصلين ، وهكذا يفتقد الوجود المستقل وتصبح قيمة هى قيم الأفراد باعتبارهم أفرادا . ولا يحدث هذا التعاقب بين المرحلتين العضوية والنقدية بشكل متتال وانما يعض فى خط صاعد يمكن أن ننظر اليه على أنه تقدم . لقد آمن كونت بالخصائص الضرورية والطبيعية للحياة الاجتماعية ، وبأن المجتمع ليس اداة لبعض الصراعات بين الأفراد ولكنه « كل عضوى » . ونحن جزء منه لأن لدينا ميل الى الحياة معا وهذا يعتبر مستقلا عن المصالح الفردية . وبشكل أكثر عمومية ، لا يوجد تطور اجتماعى قادر على تغير الخصائص البنائية الدائمة للحياة الجمعية . ان قوانين تطور المعرفة الانسانية هى قوانين تاريخية بالدرجة الأولى (٢٥) .

وبين علم الاجتماع الوضعى ان الفرد ليس الا بناء عقليا بينما المجتمع يمثل الحقيقة الأصلية . وهكذا تكون الحياة الاجتماعية « طبيعية » مثل وظائف الجنس البشرى ، والناس يعيشون فى المجتمع لأن هذه هى طبيعة الجنس وليس لأن الناس يعتقدون انهم بحياتهم معا سوف يتمتعون بمزايا لن يجدها اذا عاشوا متفردين .

ولما كان منهج كل العلوم واحدا ، ولما كان منهج علم الاجتماع متأثرا بالوضع المترتب على كونه جاء متأخرا فى سلسلة العلوم -

وبالتالى موف يعتمد على التطورات المستمرة فى العلوم الاخرى -
لما كان الوضع على هذا الشكل فان مناهج علم الاجتماع تحتاج الى
انفرج قسمين :

الاول : خاص بالعلم وحده ويسمى « طرقا مباشرة » .

والثانى : ينشأ عن الاتصال بين علم الاجتماع والعلم الاخرى
ويسمى « طرقا غير مباشرة » .

فتعتبر الملاحظة والتجربة والمقارنة طرقا مباشرة ، ويقول كونت
« ان اى ملاحظة لآى شكل من الظواهر مستحيلة ما لم توجه منذ البداية
وتفسر فى النهاية فى ضوء نظرية ما » (٢٦) . لقد افترح كونت قواعد
المنهج الاجتماعى فى الدرس الثامن والاربعين من دروس الفلسفة
الوضعية . ولذلك عندما اكد على ضرورة الاهتمام بدراسة الوقائع
الاجتماعية مثلما ندرس الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية
والفسيولوجية .

ولم يفت كونت ان يدرس الناحية الدينية فى المجتمع ، لأن الأفراد
فى ميس الحاجة الى مجموعة منظمة من العقائد ، يتفق عليها الأفراد
جميعا . وهذا لا يتأتى الا اذا الغينا الديانات القائمة وصهرناها فى دين
جديد . وهذا ما حدا به ان يضع لنا بجانب النظم السابقة نظاما دينيا
جديدا هو « الدين الوضعى » . ويدور هذا الدين حول عبارة الانسانية
كفكرة . اى ان فكرة الانسانية تحل فى نظره محل فكرة « الله »
فى الديانات الراقية المعروفة . ووظيفة هذه الديانات كما يراها كونت
هى تحقيق وحدة دينية فى العالم بأسره ، لأن جميع الأفراد
سيجهون بقلوبهم وعقولهم نحو فكرة واحدة ومركز واحد فتبطل الشرور
والآثام وتتغى المنازعات والحروب وتعيش الاجناس البشرية الثلاثة ،

(28) Quoted in Tompson op. cit. p. 21.

الجنس الأبيض والأصفر والأسود التى تمثل فى الانسانية الذكاء والعمل
والعاطفة فى عصر ذهبي (٢٧) .

ان الوضعية فى تحطيمها للاديان القديمة القائمة على المعتقدات
اللاهوتية او الدينية لم تحطم الدين نفسه ، لانه عنصر دائم فى البناء
الاجتماعى . فهو الرابطة الضرورية التى تجعل هذا البناء متماسكا ،
وتحل الانسانية محل تلك الالهة اللاهوتية ، فهى تعلو على الفرد
لانها تتكون من كل الافراد ، الاحياء منهم والاموات والذين لم
يولدوا بعد .

وتأتى فكرة الانسانية فى نهاية سلسلة يديها كونت بدراسة النظام
فى حالة استقراره او الاستاتيكا الاجتماعية ، حيث المجتمع ليس مجرد
مجموعة افراد قادرين على الحياة بمفردهم وانما هو واقع مستقل
وتلغائى *réalité spontanée* ، يتميز اساسا بانه كلى ، والمعطى
الاساسى والبسيط فيه ليس هو الانسان ولكنه الأسرة . ويعتبر كونت هنا
ان البشرية بأكملها تتمثل فى مجتمع واحد بحيث تلعب كل جماعة دورا
تاريخيا خاصا وضروريا الا انه تابع ولا يملك معنى كاملا خاصا به الا
فى داخل الكل . وتأتى الديناميكا الاجتماعية كحلقة اساسية فى علم
الاجتماع لان المنهج الخاص به يقوم على الملاحظة التاريخية . ويمكن
حينئذ دراسة أى كائن حى فى ظواهره المتعددة فى ضوء بعدين أساسيين :
فى ضوء البعد الاستاتيكي وفى ضوء البعد الديناميكي ، أى كمتحفز
للإقدام على الفعل وكفاعل بحق (٢٨) . ويعرض كونت فى الديناميكا
الاجتماعية فكرته عن التقدم وردة على الاعتراضات التى وجهت الى
هذه الفكرة . وهو لديه أكثر أهمية من الفرع السابق ، لانه اهتدى اليه

(٢٧) أوجست كونت : الانجيل الوضعى ، د. الخشاب ، مرجع
سابق ، ص ٢٤٧

(28) *Compte op. cit. p. 35.*

عندما كشف عن قانون الحالات الثلاث ، ولأنه يفسر طبيعة الظاهرة الاجتماعية كما كان يفهمها ، وهي انتقال التقاليد من جيل الى جيل (٢٩) .

اما بالنسبة لعلم النفس ، فلم يتحدث عنه كونت كعلم مستقل الامسا ، وفي اغلب الاحيان كان يضمن أجزاء منه في كل من الفسيولوجيا والبيولوجيا . فكان يمكن عن طريقه تفسير بعض مظاهر السلوك الانساني . اى ان علم النفس يحتاج دائما الى استكمال من جانب علم اجتماع التفاعل وبواسطة التطور التاريخي ، وذلك لكى يتصدى لتفسير الظواهر الاجتماعية . ويقول كونت في هذا الصدد : « في وسعنا ان ندرك في كافة الظواهر الاجتماعية ، القوانين الفسيولوجية للفرد ، ثم يأتى شئ آخر فيعدل من تأثير تلك القوانين وهو تأثير الأفراد على بعضهم البعض ، ويزيد الأمر تعقيدا بالنسبة للجنس البشرى تأثير الأجيال السابقة على الأجيال اللاحقة » (٣٠) .

ثانيا : نظرية نقدية الى اتجاه كونت

اختلفت الآراء من فلسفة كونت ومنهجه ، ومما لا شك فيه ان ما نادى به كونت قد استمر وازدهر وتبلور في صورة ناضجة ، مع من جاء بعده من المفكرين الذين تتبعوا خطاه وساروا في نفس الاتجاه . الا ان هذا لا يمنع من ان يكون في منهجه بعض القصور ، ولا يعنى هذا ان كل نقد وجه اليه سليما ، فاحيانا نجد في آراء كونت نفسه ردا على كثير من الانتقادات التى اثيرت .

وقد واجه « قانون الحالات الثلاث » انتقادات كثيرة : ويقول

(٢٩) د. قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣٢٤

(30) The Positive Philosophy of Auguste Comte , trans. by H. Martineau Vol. I. Quoted in Thompson op. cit. p. 29.

د. الخشاب في هذا الصدد : « ان قانون الحالات الثلاث الذى يعبر عن التطور الفكرى هو نفسه القانون العام الذى يفسر جميع مظاهر التطور الاجتماعى . غير أنه من الواضح أن كونت يحمل قانونه فوق ما ينبغى ويخرج به عن نطاق التطور العقلى الى تطور الانسانية بالاجمال . وهو فوق ذلك بين الفساد من وجوه أخرى » (٣١) .
الا انه فى واقع الأمر ان كونت قد وصف القوانين بانها مؤقتة ونسبية . وحتى تقسيم الدراسة فى علم الاجتماع الى استاتيكا اجتماعية وديناميكا اجتماعية هو تقسيم مؤقت . ويقول كونت : « ان هذا التقسيم ضرورى لأغراض البحث ، الا انه يجب الا يتجاوز هذا الاستخدام . فكما راينا فى البيولوجيا ، لقد أصبح التمييز ضعيفا مع تقدم العلم ، وعندما يتكون نهائيا علم الفيزياء الاجتماعية فاننا سوف نرى أن هذا التقسيم سوف يستمر فقط لأغراض تحليلية ولكن ليس باعتباره وسيلة لتقسيم العلم » (٣٢) .

وفى الحقيقة ان المبادئ المنهجية العامة التى وضعها كونت لتفسير الظواهر الاجتماعية لازالت مستمرة الى الآن وكأنها معاصرة . لقد رأى كونت ان الوقائع السياسية والاجتماعية ليست موضوعا لأحكام القيمة وإنما يجب تفسيرها عن طريق اكتشافه العلاقات العامة التى تربط الظواهر فى نسق معين ، وايضا عن طريق ارتباط تلك الظواهر ، موضع الدراسة ، بظواهر أخرى موجودة معها أو سابقة عليها .

وقد اصطنع كونت طرائق بحث متنوعة لأنه رأى ان موضوعات الدراسة فى علم الاجتماع معقدة . لذا قال بالملاحظة والتجربة والمقارنة والمنهج التاريخى . ويعتبر منهج التاريخ الذى نادى به ايجابيا ، فهو

(٣١) د. الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩

(32) Comte Positive Philosophy Vol . 2 p . 218 . Quoted in

Thompson Op .Cit. p. 19.

لم يكتف بالمنهج المنصب على الواقع الملموس فحسب وإنما امتد به ليشمل الماضي والمستقبل ، فلم يهمل كونت تأثير الأجيال على الدراسات الانسانية . الا أننا يجب أن نلاحظ أن ما ناقشه كونت في هذا الموضوع يختلف عما نسميه اليوم بالتاريخ ، فقد قصد بمنهجه التاريخي مجرد البحث عن متتاليات اجتماعية متطورة مجردة لا تزيد عن كونها مجموعات من الأحداث والاتجاهات تقوم بوضع خطط حدسية عن التغير التاريخي . معنى ذلك أنه لم يهتم بالبحث في المعلومات التاريخية ذاتها .

ومما لا شك فيه أن كونت قد أعجب بمنهج العلوم الطبيعية وبالذات بنظرية الجاذبية الأرضية لنيتون ، حتى أنه رأى أن كافة الظواهر العامة تفسر بواسطتها ، لأنها تربط كافة الظواهر الفلكية ، معا . لذا جعل كافة الظواهر تابعة للقوانين الطبيعية . ويتلثل دور الباحث في البحث عن القوانين وليس في البحث عن الأسباب ، وذلك بهدف ردها الى أقل عدد ممكن . أي أن دور الباحث يقتصر على تحليل الشروط المتعلقة بالظواهر والربط بينها بواسطة علاقات تتابع وتناهي طبيعية . وإذا كنا نتعجب لهذا الربط بين القوانين الطبيعية والاجتماعية فإن ما يفتقر لكونت هذه الوجهة من النظر أن القانون في رأيه ليس حتميا كما تصور البعض ، كما أن وضع علم الاجتماع في سلسلة العلوم يجعله متأثرا بتلك العلوم . بيد أن أعضاء الطابع العلمي على علم الاجتماع لا يعنى ضرورة استعارة نماذج ومنهج العلوم الطبيعية ، فهو وإن كان قد جعل هذا العلم متأثرا بالعلوم التي سبقته إلا أنه ميز بين المجال الانساني والمجال اللا انساني كما أنه تفادى كل من التفسيرات المادية والتفسيرات العقلية (٣٣) .

ان تصنيف العلوم الذي وضعه كونت قد ترك الباب مفتوحا أمام

علوم اخرى تضاف اليه على ان تثبت جدازتها ، ويمكن اعتبار لجوء
كونت الى المنهج التاريخى محاولة للتفسير خارج التفسيرات المادية
الصرفة .

الا ان علينا ان نعترف بان تعليقات كونت حول فائدة العلوم ،
جعلته يقع فى نوع من الجمود جعله يرفض مجالات واسعة ، ويقوم
بإستبعادها على أساس أنها غير ذات قيمة او على أساس انها
« ميتافيزيقية » . وبهذا الشكل تخلص من نظرية الاحتمالات ، وعلم
الفيزياء الفلكية ، وبحوث عن بناء المادة ، ونظرية التطور (النشوء
والارتقاء) وحتى دراسات عن اصل المجتمع (٣٤) .

ولم يكتف بالتاكيد على القوانين لأن الوضعية تركّز على أكثر
من هذا ، تركّز على وجود علاقات بين المعرفة والتنبؤ والفعل .
أى ان اهتمام كونت بالتنبؤ مرتبط بمستقبل علم الاجتماع ذاته باعتباره
جزءاً من نمط محدد للتغير الاجتماعى .

أما نظرة كونت الى علم النفس فهي قاصرة لأنه حصر اهتمامه
فى الظواهر الاجتماعية وأهمل الاهتمام بعلم النفس . فقد تغاضى عن
كون البشر لديهم معرفة داخلية بأنفسهم تختلف عن معرفتهم بالأشياء
الخارجية . وترد نظرة كونت الناقصة تجاه علم النفس الى وضع هذا العلم
فى العصر الذى عاش فيه كونت وما شاب هذا العلم من تأخر .

ثالثاً : اتجاه اميل دوركايم ونظريته الى التفسير

إذا كنا قد تحدثنا عن « كونت » باعتباره مؤسساً لعلم الاجتماع
فإن حديثنا عن دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) لا يقل أهمية وذلك باعتباره

(34) Kolakowski op . cit. p. 67.

اول من وضع علم الاجتماع على أسس علمية . وكان هدف دوركايم هو التوصل الى علم اجتماع موضوعي ومنهجي ، لذا سبق غيره من المفكرين في تعريف الظاهرة الاجتماعية ثم تحديد أسس الدراسة العلمية للوصول الى نتائج يعتد بها . ولم يكتف بهذا القدر فحسب وإنما مضى الى تطبيق منهجه في دراسة الظواهر الاجتماعية مستخدماً لأول مرة المناهج الإحصائية في البحث الاجتماعي .

وكان دوركايم أول من وضع قواعد لتفسير الوقائع الاجتماعية ، مفرداً لها الفصل الخامس من كتاب « قواعد المنهج في علم الاجتماع » . ولا شك أننا سوف نشعر أثناء امتعاضنا لأراء دوركايم في هذا الموضوع بالذات بقيمة العمل الذي قام به ، ومما يؤكد هذا الشعور استمرارية أعماله كنموذج لأحد الاتجاهات الهامة في تاريخ الفكر الاجتماعي من ناحية وكانتاج له معنى وأهمية في ضوء الاتجاهات الفكرية المعاصرة من ناحية ثانية .

ان علم الاجتماع كما يتصوره دوركايم ليس الا دراسة لوقائع اجتماعية أساساً ، وتفسيرا لهذه الوقائع بطريقة اجتماعية . وقد استهدف دوركايم في كتاب « قواعد المنهج في علم الاجتماع » أن يدلل على أنه يوجد أو لا بد أن يوجد علم اجتماع موضوعي يتوافق مع نموذج العلوم الأخرى ، موضوعه هو الواقعة الاجتماعية . ويحتاج مثل هذا العلم الى شيئين :

أولاً : لابد أن يكون موضوعه محدداً لئى يتميزا عن موضوعات العلوم الأخرى .

ثانياً : لابد أن يوجد هذا الموضوع على نحو يتيح ملاحظته وتفسيره

• بطريقة شبيهة بملاحظة وتفسير وقائع العلوم الأخرى (٣٥) •

وقد أكد دوركايم في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب المذكور ان المنهج الذى يقترحه للدراسة ليس الا عملا مؤقتا لأن المناهج تتغير مع تقدم العلم ، فعلى أساس هذا الراى ينبغى علينا أن ننظر الى منهجه •

ولقد دافع دور كايم عن تعريفه للوقائع الاجتماعية بأنها «اشياء» مؤكدا على اختلافها عن الأشياء المادية من نواحى عدة على الرغم من وقوعها معها على نفس المستوى • ويعرف دور كايم هذا « الشيء » الذى جعله محمولا للوقائع الاجتماعية بأنه : ذلك الموضوع للمعرفة الذى لا يمكن ادراكه بوضوح بمجرد القيام بعملية تحليل عقلى ، ذلك انه يمثل كل ما لا يستطيع العقل فهمه الا اذا انتقل خارج ذاته بواسطة الملاحظات والتجارب ، ويكون هذا عن طريق السير التدريجى من الخصائص الخارجية القابلة للادراك بشكل مباشر الى الخصائص الأقل وضوحا والأكثر عمقا • ولا يعنى تناول الوقائع كاشياء تصنيفها في مقولة من مقولات الواقع وانما يعنى ملاحظتها في ضوء اتجاه عقلى معين ، أى القيام بدراستها متمسكين بمبدأ معين يقوم على كوننا نجعل تماما طبيعة هذه الوقائع وعلى كون خصائصها المميزة وأسبابها المجهولة لا يمكن كشفها بسهولة عن طريق منهج الاستبطان introspection مهما كان دقيقا • وقد اعتبر دور كايم كل موضوعات العلم اشياء ، باستثناء موضوعات العلوم الرياضية • وحتى علم النفس أصبح علما

(35) R. Aron. Main Currents in Sociological Thought 2 trans. by Richard Howard and Helen Weaver. Mid. : Penguin Books Inc. 1972 p. 40.

موضوعيا ، تقوم قاعدته الأساسية على دراسة الوقائع العقلية من الخارج
اي كاشياء (٣٦) .

ولا يستغنى القول بهذه القاعدة (دراسة الوقائع كاشياء) اى تصور
ميتافيزيقى ، او اى تأمل نظرى داخل الفرد . وانما تطالب هذه
القاعدة الباحث الاجتماعى ان يعيش فى حالة ذهنية شبيهة بالتى يعيشها
العلماء الفيزيائيون والكيميائيون والفسولوجيون عندما ينطلقون الى كشف
منطقة لم يطرقوها من قبل فى مجالهم العلمى . واذا ما وصل الباحث
الى العالم الاجتماعى المنشود فعليه ان يتزود بالوعى بكونه ينفذ الى
المجهول ، وعليه ان يشعر انه فى حضرة وقائع لا زالت قوانينها مجهولة
بالنسبة له مثلما كانت وقائع الحياة مجهولة قبل قيام علم البيولوجيا .
يجب اذن على الباحث الاجتماعى ان يكون مستعدا ومهيأ للوصول الى
كشوف سوف تعتبر مفاجئة بالنسبة له وقد تصيبه بخيبة امل (٣٧) .

ويبرر دوركايم نظريته ومنهجه بالرجوع الى القصور فى الموقف العلمى
المعاصر له ، الذى لا يوضح للعلماء اهم النظم الاجتماعية كالدولة ،
والاسرة ، وحق الملكية ، والعقد ، والعقاب والمسئولية ، فهناك جهل
شبه تام بالاسباب التى تعتمد عليها النظم ، والوظائف التى تقوم بها ،
والقوانين المتعلقة بتطورها . ان الفكرة التى لدينا عن الاعمال الجمعية ،
من حيث ماهيتها وكيف يجب ان تكون ، هى عامل من عوامل تطورها .
الا ان هذه الفكرة ذاتها ليست الا واقعة تحتاج لى تتحدد ان تخضع
للدراصة من الخارج . ويعتبر موضوع المعرفة هو ذلك التصور الذى
يملكه المجموع ، وليس الطريقة التى يتمثل بواسطتها مفكر معين النظم
بطرق فردية . ان تصور الموضوع ، فى راي دور كايم ، هو وحدة

(36) E. Durkheim, Les règles de la Méthode Sociologique.

Paris Presse Universitaire de France 1949 p. XIII.

(37) Ibid. p. XIV.

التصور الفعال ، ولا يمكن الوصول اليه بمجرد ملاحظة داخلية لذا
وجب البحث عن رموز خارجية *Signes exterieurs* لتجعله
محسوسا . وبالإضافة الى ذلك نجد أن هذا التصور لم ينشأ من فراغ
وانما هو نتيجة أسباب خارجية ، علينا أن نعلمها لكي نستطيع تقدير
دورها في المستقبل . ويعتبر دور كاييم هذا المنهج وحده هو الفعال ومهما
فعلنا فأننا ولا بد أن نرجع دائما اليه (٣٨) .

لقد اعتبر دور كاييم الظواهر الاجتماعية خارجية بالنسبة للفرد .
واذا كان من الصحيح أن الخلية الحية لا تملك أى شيء خارج مكوناتها
المعدنية *minerals* وأن المجتمع لا يحوى شيئا خلاف الأفراد ، فإن
هذا لا يمنع من القول بأنه من المستحيل أن تكون ظواهر الحياة كاصنة
في ذرات غاز الهيدروجين والأكسجين والكربون والازوت ، لأننا في هذه
الحالة لن نستطيع تفسير حدوث الحركة الحية داخل العناصر غير الحية ،
فالحياة واحدة لا تنقسم . أن سيولة الماء وخواصه لا تكمن في الغازات
المكونة له ، مأخوذة كل على حدة وانما ترجع الى المادة المعقدة
المركبة من اجتماع الغازات . فاذا طبقنا هذا المبدأ على علم الاجتماع ،
فسوف نجد أننا اذا افترضنا أن التركيب المكون لأى مجتمع من نوع
خاص *suigeneris* مولد لظواهر جديدة مختلفة عن الظواهر التي
تحدث في الوعى الفردى ، فلا بد حينئذ أن نقبل القول بأن هذه
الوقائع المعينة تكمن في المجتمع نفسه الذى ينتجها وليس في اجزاء
المجتمع أى أعضائه . وبهذا المعنى تكون الوقائع خارجة عن الوعى
الفردى للأفراد ، تماما مثل كون خصائص الحياة خارجة عن السواد
المعدنية التى تكون الكائن الحي (٣٩) .

(38) Ibid p. XV.

(39) Ibid p. XVI.

ويمتثل دور كايم هذه النتيجة التي توصل اليها لى يبرر فصله بين علم النفس وعلم الاجتماع . فالوقائع الاجتماعية لا تختلف عن الوقائع النفسية من حيث النوع *qualité* فحسب وإنما هى تملك أيضا أساسا مختلفا ، فالمجموعتان (الوقائع الاجتماعية والنفسية) تتحركان فى نفس الوسط ولا ترتبطان بنفس الشروط . ان فكر الجماعة ليس هو فكر الأفراد ، ولكل منهما قوانينه الخاصة . ومن هنا نقول ان كل علم منهما يتميز تماما عن الآخر . ومن المؤكد تماما ان مادة الحياة الاجتماعية لا يمكن ان تفسر بواسطة عوامل نفسية خالصة أى عن طريق حالات الوعى الفردى . ولكى نفهم الطريقة التى يتمثل بها مجتمع ذاته والعالم من حوله ، لابد ان نضع فى الاعتبار طبيعة المجتمع وليس الأفراد (٤٠) .

ويؤكد دوركايم على وجود رموز خارجية ترد اليها الوقائع ، على الباحث ان يتعرف عليها ويعرف مكانها ولا يخلطها بوقائع اخرى . ان المفروض فى البحث هو تحديده بقدر الامكان فان ما نحتاجه فى حالة التعريف الاولى هو توضيح خصائص الظاهرة وملاحظتها قبل البحث (٤١) .

لقد اعتقد دور كايم فى كل من العقل والعلم وبنى منهجه على تأكيد مذهب السببية أو العلية وانطباقه على الظواهر الاجتماعية ، وقد حدد دور كايم هدفه فى قوله : « العمل على مد العقلية العلمية لتشمل السلوك الانسانى وذلك عن طريق بيان ان النظر الى الماضى قد يرد الى علاقات عله ومعلول ، ثم ادخال عملية اخرى عقلية قد تحول السلوك الانسانى الى قواعد للفعل فى المستقبل (٤٢) » . وقد رأى دور كايم ان طبيعة

(40) Ibid. p. XVII.

(41) Ibid. p. XX.

(42) Ibid. p. IX.

الدراسة الاجتماعية سوف تتيح للفلسفة أن تفهم الطبيعة بشكل أفضل ،
فإن العلم ولا شك سوف يكون ذا فائدة للبشرية ، وباعتبار علم الاجتماع
علما فلابد له أن يجمع بين الاهتمامات النظرية والاهتمامات العملية .
ويقوم العلم الاجتماعى فيما يرى دوركايم على ثلاث افتراضات رئيسية :

الاولى : ان هناك وحدة في الطبيعة .

والثانية : ان الظواهر الاجتماعية جزء من عالم الطبيعة الموضوعى

(اى انها واقعية) .

والثالثة : ان الظواهر الطبيعية تخضع لقوانينها ومبادئها الخاصة .
وهى قوانين ومبادئ طبيعية . ويلمح ذلك أن تصبح الظواهر الاجتماعية
صالحة للدراسة العملية (٤٣) .

لقد قام دور كايم بإبراز العامل الاجتماعى المحدد الذى يمثل
موضوع دراسة علم الاجتماع ويقول دور كايم فى هذا الصدد : « عندما
أقوم بمسئولياتى كاخ او زوج او مواطن ، وعندما التزم بعهودى ، فانى
أقوم بواجبات تتحدد خارج ذاتى . وحتى لو اتفقت مع احساساتى
واحسنت ان واقعها ذاتى فإن هذا الواقع لا زال موضوعيا لئى لم أخلفه ،
بنفسى » (٤٤) . وهكذا يمكن عزل المسئوليات والاتفاقات والواجبات ،
والقوانين والعادات باعتبارها موضوعات خاصة للدراسة ، تتمثل
بملامحها البارزة فى كونها « خارجية » بالنسبة لآى فرد وتمارس فى نفس
الوقت ضغطا عليه . فإذا ما وقعت هذه الموضوعات فى مجال اهتمامنا
فإن هذا يعنى أننا فى مجال علم الاجتماع .

(43) El. A. Tiryakian, Sociologism and Existentialism.

Englewood Cliffs : Prentice Hall Inc. 1962, p. 14.

(44) E. Durkheim « Règles de la Méthode Sociologique » in
J. Rex , Emile Durkheim in The Founding Fathers of Social
Science ed. by T. Ralson, London : Penguin Books 1969 p. 129.

لقد رأى دوركايم ان الظاهرة الاجتماعية حتى ولو لم تملك وجودا مستقلا خاصا بها فان من صميم عمل عالم الاجتماع أو الباحث الاجتماعى ان ينسب لها مثل هذا الوجود . وذلك عن طريق التوصل الى معدلات احصائية تعتبر مؤشرات للتغيرات الاجتماعية وليس مجرد حصر لظواهر فردية منفصلة . وسوف نرى كيف طبق دوركايم تجريبيا تلك الأفكار فى كتاباته الأخرى خاصة فى مؤلفيه «تقسيم العمل الاجتماعى» ، «والانتحار» .

لقد أكد دوركايم على خضوع المجتمع لقوانين ، بدونها يصبح العلم الاجتماعى مستحيلا . فهو يرى ان مبدأ ارتباط الظواهر فى الطبيعة ارتباطا صميما لم يفشل فى أى مجال من مجالات الطبيعة ، ولما كانت المجتمعات الانسانية جزءا من الطبيعة فلا شك ان هذا المبدأ يصدق عليها بالضرورة . وإذا كان دوركايم قد اخضع المجتمعات للقوانين فمعنى ذلك انه يستبعد كل ما هو حادث ويركز على الاطرادات والتكرارات فى السلوك الانسانى . ويقول دوركايم فى هذا الصدد : « اذا أردنا لعلم الاجتماع ان تقوم له قائمة ، فلا بد من افتراض طبيعة خاصة للمجتمعات تكون نتيجة لطبيعة العناصر المكونة لها ، وترتيب هذه العناصر . هذه الطبيعة الخاصة للمجتمعات هى منبع الظواهر الاجتماعية » (٤٥) . ويؤكد دوركايم على أهمية وجود منهج علمى ملائم لطبيعة الأشياء المدروسة ولتطلبات العلم . فلا يكفى ان نملك موضوعا محددا علميا لكى نكشف الاطرادات والأنماط والقوانين فى المجتمع ، وانما لابد من منهج علمى يؤدى الى نتائج يعتد بها .

ان موضوع علم الاجتماع ، حسبما يرى دوركايم ، هو بناء نظريات عن السلوك الانسانى استقرائيا ، على اساس ملاحظات سابقة لهذا

(45) El. Durkeim . Montesquieu and Rousseau, transl. by R. Manheim , Michigan : University of Michigan Press 1960 p. 13.

السلوك . ولابد لهذه الملاحظات التى نجرىها على الخصائص الخارجية الظاهرة للسلوك أن تكون سابقة على النظرية Pre - theoretical ما دامت النظرية تشتق منها . وتتميز هذه الملاحظات بابتعادها عن افكار القائمين بالفعل Actors تجاه افعالهم الخاصة او افعال الآخرين . فعلى الملاحظ أن يحاول بكل الطرق أن يفصل نفسه عن افكار الحس الشائع ، الموجودة لدى القائمين بالفعل لأن هذه الافكار ، فى العادة ، ليس لها اساس فى الواقع . فعلى الباحث الاجتماعى اذن أن يكون تصورات خارج اطار بحثه وأن يبتعد عن تصورات الحياة اليومية لأنها ليست الا تعبيراً عن انطباعات مشوشة موجودة لدى العامة . كما أن عليه أن يهتم بالوقائع القابلة للمقارنة . ويقول دوركايم : « لابد أن نلاحظ الواقعة الاجتماعية مثلاً نلاحظ أشياء العالم الخارجى ، أى من الخارج ، ومن الضرورى اجراء التجربة والقيام بالاستقراء ، أما اذا استحالت التجربة فعلى الباحث أن يجد وسيلة لكى يقوم بمقارنات موضوعية تقوم بنفس الوظيفة » (٤٦) .

وقد اهتم دوركايم اساساً بالتوصل الى التفسير ، واغلب ما كتبه لم يكن الا تحقيقاً لهذه الغاية ، ونذكر فى هذا الصدد مؤلفاته الهامة مثل « تقسيم العمل الاجتماعى » و « الانتحار » و « الاشكال الاولى للحياة الدينية » الذى كتب فيه يقول : « أن الهدف النهائى لعلم الاجتماع هو تفسير الواقع وهذا الواقع ليس الا الانسان خاصة انسان العصر الحديث » (٤٧) . أما فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ، فقد افرد به فصلاً خاصاً للحديث عن « قواعد تفسير الوقائع الاجتماعية » .

(46) E. Durkheim, L'évolution Pédagogique en France, II
Paris : Librairie Felix Alcan 1912 p. 217.

(47) E. Durkheim. Les Formes élémentaires de la vie religieuse . Paris : Felix Alcan 1912 p. 2.

ان كل العلوم الاجتماعية تعتمد اولاً على كشف المعلومات وثانياً على تفسيرها . وانا لنجد لدى دوركايم منهاجاً واسعاً لتفسير الوقائع الاجتماعية . واذا كنا قد راينا خلال عرضنا لوجهة نظره عن الوقائع الاجتماعية اصراره على الطابع الاجتماعى لظواهر مثل العادات والتقاليد والقوانين والمجتمعات ... الخ ، فاننا لنجد اصراراً مشابهاً بالنسبة لتفسير تلك الظواهر . اى اننا منذ البداية نواجه بتصميم دوركايم على التفسير الاجتماعى للظواهر الاجتماعية . وفى الفصل الخامس من كتاب القواعد نجد تفرقة حاسمة بين الفردى والاجتماعى وتفرقة اخرى بين النفس والاجتماعى . ان دوركايم لم يقلل من قيمة علم النفس . فلم يشكك فى كون الانسان يفكر ويحس ويمتلك وعياً ، الا ان هذا لا يعنى اشتقاق الظواهر الاجتماعية من الحالات غير الاجتماعية . وانا على عكس ذلك ، تشق خصائص الانسان من المجتمع ، بل لقد اعتبر ان المجتمع والحياة الاجتماعية ضروريين بالنسبة للانسان الحديث . ومن هذا المنطلق اذان محاولات السابقين عليه .

لقد اخذ دوركايم على السابقين تقديم الظواهر فى ضوء النفع العائد منها والدور الذى تلعبه . فهكذا ارجع كونت قوى الجنس البشرى المتطورة الى الميل الاساسى الذى يدفع الانسان بشكل مباشر الى تحسين وضعه . بصفة مستمرة وفى ضوء اى ظرف موجود (٤٨) . كما ارجع سبنسر هذه القوى الى اكبر قدر من السعادة . وفى ضوء هذا المبدأ، فسر تكوين المجتمع بواسطة الفوائد العائدة من التعاون ، وفسر قيام الحكومة بواسطة الفائدة الناجمة عن تنظيم التعاون العسكرى (٤٩) .

(48) Compté , Cours de Philosophie Positive, IV p. 262 in Durkheim « Régles de la méthode sociologique » op . cit. p. 89.

(49) Spencer. Sociologie III p. 336 in Durkheim Ibid. p. 89.

وقد رأى دوركايم أن المنهج السابق ذكره يخلط بين موضوعين مختلفين تمام الاختلاف ، فبيان أن واقعة ما ذات نفع لا يعنى تفسير نشأتها أو كيف أصبحت ما هى عليه . وذلك لأن الاستخدامات التى يتضح فيها نفع الواقعة ، وأن كانت تفترض الخصائص المحددة التى تتصف بها الواقعة ، إلا أنها لا تخلقها ، أن الحاجة *besoin* التى نشعر بها تجاه الأشياء لا تكفى لكن لتحديد شكلها وبالتالى فإنه لا يمكنها أن تنتزع الأشياء من اللا وجوده لكى تضى عليها وجودا . فوجودها يرجع الى اسباب ذات طبيعة مخالفة . ويعطى دوركايم مثالا على ذلك : فإذا أردنا أن نضى على حكومة ما السلطة التى تحتاجها ، فلا يكفينا أن نستشعر الحاجة الى ذلك بل علينا أن نتوجه الى المصادر التى يشتق منها وحدها كل سلطة ، أى نقوم بتكوين عادات وتقاليد وفكر مشترك ... الخ ، ومن أجل ذلك لابد من المضى فى سلسلة الأسباب والنتائج حتى نصل الى نقطة يمكن فيها للفعل الانسانى أن يؤثر بفعالية . أن الواقعة اذن غير مرتبطة بالفائدة . وقد توجد دون أن يكون لها أى نفع سواء كان ذلك على شكل عدم ارتباطها بهدف اسامى أو كانت الواقعة تملك فائدة فى الماضى ثم فقدتها واستمرت فى الوجود بحكم العادة . بدليل أن هناك حالات تتغير فيها وظيفة بعض الأنظمة الاجتماعية دون أن يكون فى هذا ما يبرر أن تغير من طبيعتها . أن الوضع اذن شبيه بما هو موجود فى البيولوجيا : فالعضو مستقل عن الوظيفة التى يؤديها أى أنه قد يستخدم فى الأغراض المختلفة على الرغم من استمراره كما هو ، ومعنى هذا أن الأسباب التى تؤدى الى وجوده تستقل تماما عن الأهداف التى يستخدم فيها (٥٠) .

ويعتبر دوركايم أن الوقائع الاجتماعية مطردة ، فى حالة توافر الظروف المتماثلة . وعلى هذا الأساس يقيم القاعدة الأساسية فى التفسير

(50) Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique* op cit. p. 89 - 91 .

التي يقول فيها : « عندما نكون بصدد تفسير ظاهرة اجتماعية معينة ، فعلينا ان نبحث عن كل من السبب الفعّال الذي ادى اليها ، والوظيفة التي تقوم بها ، على ان يقوم كل بحث منها على حده » (٥١) . ويؤكد دوركايم على تفضيله للتعبير « وظيفة » عن التعبير « غاية » او « هدف » ، ذلك ان الظواهر الاجتماعية لا توجد في ضوء النتائج المفيدة التي تنتجها . ان مهمة الباحث تنحصر في تحديد التوافق بين الظاهرة موضع البحث والحاجات العامة للكائن الاجتماعى ، دون الاهتمام بمعرفة ما اذا كانت الظواهر هادفة ام لا ، لان الموضوعات المرتبطة بالغايات والاهداف تكون ذاتية ولا يمكن التعامل معها بطريقة علمية . وتوضح القاعدة ان السبب وحده غير كاف في تفسير واقعة حيوية ولابد من ان نحدد الوظيفة اى الدور الذى تقوم به الواقعة في تحقيق الانسجام العام .
harmonie générale (٥٢) .

ان تفسير دوركايم للواقعة الاجتماعية يقوم على فكرة اساسية هي ان للوقائع الاجتماعية وجودا موضوعيا . وبالتالي فهي لا ترد ولا تفسر بواسطة وقائع او ظواهر اخرى اقل تعقيدا اى غير اجتماعية . وكما لا يمكن تفسير الظواهر النفسية للموعى او الشعور بردها الى الخواص الفسيولوجية للخلايا العصبية ، وكما لا يمكن تفسير الظواهر الفسيولوجية والبيولوجية بردها الى الخواص الفيزيائية ، كذلك يجب علينا ، فيما يرى دوركايم ، ان نتفادى النزعة الردية في تفسير طبيعة العنصر الاجتماعى والطريقة التي يعمل بها (٥٣) .

وقبل ان نتحدث تفصيلا عن مفهوم « مجتمع » في فكر دوركايم والدور الذى يلعبه في التفسير يحسن بنا ان نستعرض الأدلة التى أوردها

(51) Ibid. p. 95 .

(52) Ibid. p. 97.

(53) E. Durkheim, *Sociologie et philosophie* , Paris : Presse Universitaire de France 1951 p. 33.

دوركايم للتدليل على فساد مناهج التفسير السابقة عليه . فكما استبعد النزعة النفعية في تفسير الظواهر الاجتماعية كان لابد ان يرفض ايضا النزعة النفسية . فهو يرى ان السابقين قد نظروا الى المجتمع على انه نسقا من الوسائل التي اقامها الانسان من اجل بعض الأهداف ، وهذه الأهداف لا يمكن الا ان تكون فردية مادام وجود الأفراد سابق على وجود المجتمع . ويرتب على هذا الرأي ان تنبسط من الفرد كافة الأفكار والاحتياجات التي حددت تكوين المجتمع . وما دام كل شيء قد اتى من الانسان فلا بد ان يفسر عن طريقه . وبالإضافة الى ذلك فان المجتمع لا يحوى الا اشكالا من الوعى الفردى والمها يرجع كل تطور اجتماعى . ومن الطبيعى ان يترتب على ذلك ان تكوين القوانين الاجتماعية توابع لقوانين اعم هى قوانين علم النفس(٥٤) . ومن ثم اخذ دوركايم على كونت انسياقه في هذا الاتجاه ، واستشهد بأفكار كونت نفسه في كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية » ليبين ان الواقعة المسيطرة على الحياة الاجتماعية في نظر كونت هى التقدم ، والتقدم يعتمد على عامل نفسى هو الميل الذى يدفع الانسان ان يطور من طبيعته الخاصة . والوقائع الاجتماعية عند كونت قد تشتق مباشرة من الطبيعة الانسانية ، ونستطيع استنتاجها بشكل مباشر من المراحل الأولى في التاريخ بدون الحاجة الى الملاحظة . ويعترف دوركايم بأن كونت لم يتمسك بهذا التفسير في المراحل المتقدمة من التطور الا ان هذه الاستحالة في رأيه هى مجرد استحالة عملية ، والعلاقة بين القوانين الأساسية للطبيعة الانسانية وبين النتائج المترتبة على التقدم لا تتيح التحليل ؛ ما دامت اكثر الاشكال تعقيدا في الحضارة لا تخرج عن كونها الحياة النفسية المتطورة . ان علم النفس اذن له الكلمة الأخيرة عند كونت ، ويستدل على ذلك بقول كونت نفسه : « لا يمكن قبول أى قانون للتتابع الاجتماعى - ويشير بذلك الى المنهج

(54) Durkeim . Les règles de la méthode sociologique op.

cit. p. 97 .

التاريخى - الا بعد ان يرتبط عقليا سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة
بالنظرية الوضعية للطبيعة الانسانية « (٥٥) » .

وقد رأى دوركايم ان سبب ان تتبع نفس الطريقة فى التفسير ، فقد
قال بعاملين اساسيين مؤثرين على الظواهر الاجتماعية هما : « الوسط
الكونى » ، « والتكوين الفيزيائى والاخلاقى للفرد » . الا ان الاول
لا يستطيع التأثير فى المجتمع الا من خلال الثانى الذى يعتبر دافعا الى
التطور الاجتماعى . فاذا كانت المجتمعات تتكون فلكى تسمح للفرد
بتحقيق طبيعته الخاصة ، وكل تطور فى المجتمع ليس له هدفا الا الوصول
الى ذلك . وقد خصص سبنر فيما يرى دوركايم كتابه الاول فى مؤلفه
« مبادئ علم الاجتماع Principes de sociologie » لدراسة
الانسان البدائى من النواحي الفيزيائية والانفعالية والفكرية . ومعنى
ذلك ان كل شىء يخرج عن الطبيعة الانسانية (٥٦) .

وقد ترتب على تلك الاتجاهات السابقة ، فيما يرى دوركايم ،
شروع التفسير النفسى فى الدراسات الاجتماعية . ففسر النظام الامرى
بواسطة المشاعر التى يحملها كل من الاهل نحو الاطفال ، والاطفال
نحو الاهل . وفسر الزواج عن طريق المزايا التى تتاح لكل من الزوجين
وذريتهما ، وفسر الألم عن طريق الغضب الذى يثيره اى ضرر كبير فى
مصالح الفرد . وهكذا امكن تفسير كل الحياة الاقتصادية فى ضوء هذا
العامل الذاتى الفردى (٥٧) .

(55) Comptes . Cours de philosophie positive p. 335 Quoted
in Durkheim Les regles de la methode sociologique op. cit. p.98.

(56) E. Durkheim . Les regles de la methode sociologique
op. cit. p. 99. .

(57) Ibid p. 100.

ويؤكد دوركايم على عدم صلاحية هذه الطريقة في تفسير الظواهر الاجتماعية لأن علم الاجتماع ليس أحد لوازم علم النفس وبالأخص نفس التسلسل العنصر الاجتماعي إلى الفرد واجتياحه الجارف له . ان هناك ولا شك ملطة ينحني امامها الفرد عندما يقوم بالفعل أو الشعور أو التفكير الاجتماعي ، وعيناً يحاول ادراكها . ان هذه الدفعة الخارجية التي يشعر بها الفرد لا تأتي منه ، ويعجز ما يجري بداخله عن تفسيرها . حقيقة اننا نستطيع التحكم في انفسنا ، فنحن نستطيع ان نحتوى ميولنا وعاداتنا وحتى غرائزنا ونوقف نموها بواسطة فعل قائم على الكبت . الا ان حركات الكبت هذه لا يمكن ان تختلط مع افعال القهر الاجتماعي . ان عمليات الكبت طاردة *centrifuge* بينما عمليات القهر الاجتماعي جاذبة . الأولى : تتكون من الوعي الفردي وتحاول بعد ذلك الانطلاق إلى الخارج ، والثانية : تبدأ خارج الفرد ثم تحاول ان تجعله يبدو من الخارج على شكلها . ان الكبت هو الوسيلة التي يحاول بها القهر والالزام الاجتماعي التأثير نفسياً الا انه ليس في حصد ذاته قهراً او الزاماً (٥٨) .

ويصل دوركايم بعد ان استبعد العنصر الفردي إلى طبيعة المجتمع لكي يفسر عن طريقها الظواهر الاجتماعية . ان المجتمع يفرض على الفرد طرقاً للفعل والتفكير ، وهذا الضغط الذي يمارسه « الكل » *le tout* على الفرد ليس الا الرمز المميز للوقائع الاجتماعية . هذا « الكل » الذي يتحدث عنه ليس مجموع اجزائه وانما هو شيء آخر مختلف وله خصائص تتميز عن خصائص العناصر المكونة له . فالمجتمع اذن ليس بمجموع افراده وانما هو النسق المكون من ارتباط الافراد ، وهو يمثل واقعة محددة لها خصائصها الذاتية . واذا كان المجتمع يحتاج للوعي الفردي كشرط ضروري الا ان هذا الشرط ليس بكاف ، ولا بد بالاضافة

الى ذلك ان يرتبط كل وعى فردى بوعى فردى آخر بطريقة معينة ، ومن هذا الارتباط تنتج الحياة الاجتماعية ومن هنا فان هذا الارتباط يفسرها . وتندمج النفوس الفردية وتتداخل وتتحد لكى تعطى كائنا نفسيا له طبيعة جديدة وهو « الوعى الجمعى » المتميز عن وعى الأفراد . فعلينا ان نحصر بحثنا فى طبيعة هذا الوعى ، وليس فى الوحدات المكونة له ، لكى نتوصل الى الاسباب القريبة والمحددة للوقائع التى تحدث . ان المجموع يفكر ، ويحس ويفعل بطريقة تخالف تماما اعضاءه اذا عزل كل منهم عن الآخر . فاذا بدانا بالأفراد فلن نستطيع ان نفهم ماذا يدور فى الجماعة ، وبالتالي كلما فسرنا ظاهرة اجتماعية بواسطة ظاهرة نفسية فهذا التفسير باطل بالضرورة (٥٩) .

ان هذا الارتباط هو مصدر كل جبرية : فبسبب مولدى ، انا مرتبط قسرا بشعب معين ، وحتى لو قبلت هذا الارتباط فان جنسيتى تظل قسرا حتى لو كان مقبولا ، وكل ما هو اجبارى يستمد مصدره من خارج الفرد . وما دمنا لم نخرج من التاريخ فان واقعة الترابط لها نفس خصائص الوقائع الأخرى ، وبالتالي تفسر بنفس الطريقة . ولما كانت كل المجتمعات قد صدرت عن مجتمعات أخرى يمكننا ان نتأكد انه لم توجد لحظة واحدة ، فى سلسلة التطور الاجتماعى ، كان على الأفراد خلالها ان يفكروا اذا ما كانوا جزءا من الحياة الجمعية ام لا . ان التماثلات والانفعالات والميول الجمعية لا ترجع ابدأ الى اسباب متماثلة فى بعض حالات الوعى ولكنها ترجع الى الظروف التى وجد فيها الجسم الاجتماعى فى شموله أو كليته (٦٠) .

وبيلور دوركايم خلاصة مناقشته فى القاعدة التى تقول : « يجب علينا البحث عن السبب المحدد للواقعة الاجتماعية فى الوقائع الاجتماعية

(59) Ibid. p. 102.

(60) Ibid. p. 104.

السابقة وليس في حالات الوعى الفردى « . وما ينطبق على « السبب » ينطبق أيضا على « الوظيفة » ، فوظيفة الواقع الاجتماعى لا يمكن الا ان تكون اجتماعية . ثم يضيف دوركايم الغاية الى الوظيفة فيقول : « يجب ان نبحث عن وظيفة اى واقعة اجتماعية فى علاقتها بالغاية او الهدف الاجتماعى *fin social* » (٦١) . وعلى الرغم من ان دوركايم جعل للمجتمع دورا رئيسيا واساسيا فى تفسير الوقائع الاجتماعية ، الا انه لم يستبعد الوقائع النفسية تماما من التفسير . لقد رأى انها اساسية لارتباطها بالوقائع الاجتماعية ، وانتهى الى ان الوقائع النفسية لا تستطيع ان تفسر الحياة الجمعية ولكنها تستطيع ان تساعد على تفسيرها ، على ان يكون واضحا ان الحياة الجمعية لا تشتق اطلاقا من الحياة الفردية .

واذا استعرضنا آراء دوركايم فى التفسير من خلال مؤلفاته الرئيسية فسوف نجد أنه فى كتابه الأول « تقسيم العمل الاجتماعى » « *De la division du travail social* » وهو رسالته للدكتوراه ، ان دوركايم مازال متأثرا بآراء كونت . فدار اهتمامه فى هذه المرحلة حول العلاقة بين الافراد والمجموع . ويمكن التعبير عن هذا الموضوع على النحو التالى : كيف يستطيع التعدد بين الافراد ان يكون مجتمعا ؟ اى كيف يستطيع الافراد تحقيق شرط الوجود الاجتماعى عن طريق التوصل الى اتفاق على رأى واحد ؟ وتحدد اجابة دوركايم على هذا السؤال عن طريق تفريقه بين نوعين من التماسك : التماسك الاالى والتماسك العضوى .

ان النظام الاجتماعى لا يمكن تفسيره كما يفعل البعض فى ضوء المنفعة الذاتية للأفراد . فلا بد من وجود شئ مختلف عن الميول الفردية

الخالصة يربط بين الأفراد في كليات اجتماعية . هذا « الشيء » هو نوع من التماسك الاجتماعى . فى المجتمعات البسيطة يسمى « بالتماسك الألى » ، ويقوم على التشابه : فالأفراد هنا يشبهون بعضهم البعض ، والأفكار والاحساسات والقيم المشتركة تجمع الكل . ان التماسك فى هذه المجتمعات يرجع الى كون الأفراد ليسوا مختلفين .

اما فى المجتمعات المتقدمة فيسمى التماسك « بالتماسك العضوى » الذى يقوم على تقسيم العمل . ان الاتفاق فى هذا النمط من التماسك ليس الا نتيجة للاختلاف بين الأفراد ، اى ان الأفراد لم يعدوا متشابهين وانما حدث بينهم اختلاف ، وهذا الاختلاف هو السبب فى وحدة المجموع . وترجع تسمية هذا التماسك بالعضوى الى أن اجزاء الكائن الحى تشبه بعضها البعض : فكل عضو فيه يقوم بوظيفة ، للقلب والرئتان وظيفية تختلف عن وظيفة العقل ، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن اى منهم فى الحياة . وهذا ما يحدث بالضبط فى المجتمع (٦٢) . فتقسيم العمل فى هذه المجتمعات ليس وسيلة لمضاعفة السعادة البشرية ولكنه واقعة خلقية واجتماعية هدفها تماسك المجتمع .

ويعرف دوركايم الوعى الجمعى *collective consciousness* فى هذا الكتاب « بأنه نسق من المعتقدات والمشاعر العامة الموجودة لدى متوسط أعضاء جماعة ما » (٦٣) . ويعتبر دوركايم هذا النسق كيانا قائما بذاته ، فالوعى الجمعى الذى يعتمد وجوده على المشاعر والمعتقدات الموجودة لدى الوعى الفردى يعتبر مستقلا ، على الأقل من الناحية التحليلية ، عن الوعى الفردى ، انه يتطور حسب قوانينه الخاصة وليس كنتيجة للوعى الفردى . ان الفرد قد نشأ عن المجتمع ، فيما

(62) Aron op cit. p. 21.

(63) Ibid. p. 24.

يرى دوركايم ، ولم ينشأ المجتمع عن افراد . وتمثل هذه الفكرة جوهر العلم الاجتماعى لديه . وتتضمن هذه الفكرة معنيين غير متعارضين :

المعنى الأول : يتمثل فى السابق التاريخى للمجتمعات التى يتشابه فيها الأفراد ، وحيث يضيع الفرد فى وسط المجموع ، على المجتمعات التى اكتسب أفرادها وعيا بفرديتهم ويقدرتهم على التعبير عنها . ان المجتمعات الجمعية ، حيث يشبه كل فرد الآخر ، تاتى فى المقدمة زمنيا ، ومن هذا التقديم التاريخى ياتى تقديم منطقى فى تفسير الظواهر الاجتماعية . ان القول بان البشر قد قسموا العمل بينهم من اجل زيادة الناتج الجمعى يصدم دوركايم لانه يقوم على افتراض ان الأفراد يختلفون ويعون هذا الاختلاف قبل ان يحدث الاختلاف الاجتماعى . ان هذا الوعى بالفردية لا يمكن ان يوجد قبل التماسك الاجتماعى فى ضوء الرغبة فى زيادة الناتج الجمعى .

اما المعنى الثانى : المشتق من نشأة الفرد من المجتمع فهى تتمثل فى الفكرة الأساسية التى لازمت دوركايم فى كافة كتاباته والتى يفسر بواسطتها علم الاجتماع ، وهى اسبقية الكل على الأجزاء ، أى استحالة رد الكل الاجتماعى الى مجموع عناصره . ويعنى ذلك تفسير العناصر بواسطة الكل وليس العكس . ومن هنا تفسر الظواهر الفردية بواسطة الظواهر الجمعية ولا تفسر الظواهر الجمعية اطلاقا فى ضوء الظواهر الفردية (٦٤) .

ان الظاهرة التى يحاول دوركايم تفسيرها ، وهى تقسيم العمل ، تختلف فى مفهومها عن المفهوم الموجود لدى رجال الاقتصاد . ان تقسيم العمل الذى يتحدث عنه دوركايم هو بناء structure للمجتمع ككل ،

معبرا عنه في شكل تقسيم فنى أو اقتصادى للعمالة . وقد حاول دوركايم ان يدرس هذه الظاهرة بالطريقة الموضوعية التى قال بها وهى الدراسة من الخارج . ولذا حاول أن يجد طريقة لدراسة هذه الظواهر التى لا يمكن ادراكها بشكل مباشر . وقد وجد ان الظواهر فى تقسيم العمل معبر عنها فى صورة ظواهر قانونية . لذا ميز بين نوعين من القوانين يختص كل منها بأحد انواع التماسك : اولها هو القانون القمعى الذى يعاقب الآثام والجرائم ، وثانيها هو القانون الرجعى *restitutive* أو التعاونى الذى لا يختص بالعقاب وانما باعادة الأشياء الى النظام اذا وقع جرم ما أو بتنظيم التعاون بين الأفراد (٦٥) .

ويرفض دوركايم هنا أيضا تفسير تقسيم العمل برده الى اتفاق الأفراد العقلانى من أجل زيادة الناتج العام عن طريق تقسيم المهام بينهم . ان المجتمع الحديث فى رأيه لا يقوم على العقد كما قال اصحاب نظرية العقد من امثال هيربرت سبنسر . ان دوركايم يعترف بتزايد دور العقود فى المجتمعات الحديثة ، تلك العقود التى تبرم بحرية بين الأفراد . ولكن يجب ان نلاحظ ان هذا العنصر العقدى هو احد مشتقات البناء الاجتماعى او أحد مشتقات الوعى الجمعى فى المجتمع الحديث . وهكذا نعود مرة ثانية الى اولوية البناء على الفرد واسبقية النمط الاجتماعى على الظواهر الفردية .

ان دوركايم فى تفسيره لظاهرة تقسيم العمل يهدف الى تحديد سبب الظاهرة ، وما دامت ظاهرة اجتماعية أساسا ، فلا مندوحة أن يكون سبب الظاهرة اجتماعيا أيضا ، وذلك تمشيا مع مبدأ التجانس بين العلة والمعلول . تفسر اذن ظاهرة تقسيم العمل بواسطة ظاهرة اجتماعية اخرى تتمثل فى مجموعة مؤتلفة من عدة أشياء هى حجم المجتمع وكثافته

المادية بالاضافة الى كثافته الخلقية(٦٦) . وهنا تتضح احدى المبادئ التى قررها دوركايم بعد ذلك فى كتاب القواعد وهو تفسير الظاهرة الاجتماعية عن طريق ظاهرة اجتماعية اخرى . وهكذا تتحدد الفكرة الرئيسية لدى دوركايم وهى ان الفرد ليس الا تعبيراً عن الظاهرة الجمعية .

واذا كان دوركايم قد حدد بجلاء مبادئ التفسير السليم فى كتاب القواعد فانه مضى فى كتاب التالى عليه وهو « الانتحار » دراسية اجتماعية « Le Suicide , étude sociologique » الى اختبار مبادئه . ففى هذا الكتاب تتضح بجلاء كافة مبادئ التفسير الرئيسية : النظرة الواقعية الى المجتمع باعتباره « ظاهرة كلية » تعلق على مجموع عناصرها ، والتصورات الخاصة بالتمثيلات الجمعية والوعى الجمعى ، واخيراً استخدام منهج المقارنة بين مختلف الجماعات والمجتمعات وقد عبر عن اهمية المقارنة بقوله : ان المقارنة وحدها تتيح التوصل الى التفسير ، ومن هنا اذا كنا بصدد وقائع قابلة للمقارنة فاننا نستطيع القيام ببحث علمى ، ويزيد من فرص نجاح البحث امتلاك الوقائع لكل ما يمكن ان نقارنه بنجاح «(٦٧) .

لقد اختار دوركايم موضوع الانتحار كظاهرة تتيح الدراسة نتيجة لاهتمامه بمحنة المجتمع الحديث المتبدية فى التفكير الاجتماعى وضعف العلاقات بين الافراد . وقد اختار دوركايم استخدام الطريقة الاحصائية فى الدراسة لانه وجد ان التجربة غير صالحة بسبب تميز الطابع العام

(66) Ibid. 31.

(67) E. Durkheim. Suicide . a study in sociology . trans. by J. A. Spaulding and G. Sympson . London : Routledge and Kegan Paul 1952, p. 41.

على حساب الخاص في تلك الواقعة الاجتماعية . وميزة الاحصاء انه يركز على المظاهر الجماعية للسلوك لانه يقدم علاقة بين واقعيتين اجتماعيتين وهكذا درس دوركايم الانتحار كواقعة اجتماعية من أجل التوصل الى العلاقة بين نسبة المنتحرين وكل من الدولة المدنية ، والدين ، وأسلوب الحياة . هذه الطريقة تتجاهل بشكل الى المظاهر الفردية لكل انتحار ، ذلك انه وجد ان الاحصاءات المتاحة لا تدعم أي افتراض قائم على ارجاع تفسير معدلات الانتحار الى أسباب فردية .

وقد توصل دوركايم الى ان العزاب ينتحرون في المتوسط بنسبة اكبر من المتزوجين ، والمتزوجون بدون أطفال اكثر من المتزوجين بأطفال ، والبروتستانت ينتحرون بنسبة اكبر من الكاثوليك ، والكاثوليك اكثر من اليهود . وترتفع نسب الانتحار في زمن الهدوء السياسي والسلام اكثر من زمن الأزمات السياسية او الدبلوماسية او الحروب .

وقد بين دوركايم ان هناك انواعا من الانتحار ، فبالإضافة الى الانتحار من خلال الأنانية والانتحار من خلال الغيرة يوجت الانتحار اللامعيارى suicide anomic ، وهو الذي يصيب الفرد نتيجة وجوده في المجتمعات الحديثة . وهنا لا يخضع الوجود الاجتماعي للتقاليد ، فالأفراد في تنافس ، ينتظرون الكثير من الحياة ويطالبون بالكثير . وهم في خطر مستمر من الشعور بالألم نتيجة عدم التناسب بين ما يطمعون اليه وما قد تحقق منه . وقد ساعد هذا الجو من القلق وعدم الرضاء على نمو الدافع الانتحاري (٦٨) . ويقول دوركايم في هذا الصدد : « ان اللامعيارية . او اختلال المعايير an.mle هي عامل محدد ومطرزد للانتحار في مجتمعاتنا الحديثة . ويختلف هذا النوع من الانتحار عن الأنواع الأخرى لا لمجرد اعتماده على الربط بين الفرد والمجتمع

(68) Aron op. cit. p. 43.

ولكن لصلته بالطريقة التى ينظم بها المجتمع نفسه . ان الانتحار الانانى ينتج عن شعور الانسان بأنه لا يوجد ما يربطه بالحياة ، والانتحار الغيرى يرجع الى ان اساس الوجود يبدو للفرد خارج نطاق الحياة ذاتها . اما النوع الثالث فيحدث نتيجة اختلال نشاط الانسان وما ينتج عنه من معاناة ، ويسبب نشأة هذا النوع من الانتحار نطلق عليه اسم انتحار لا معيارى ، suicide anomic (٦٩) .

ويمكن تلخيص نظرية دوركايم انه نظر الى الانتحار كظاهرة فردية ترجع اساسا الى اسباب اجتماعية . فتوجد قوى اجتماعية يسميها دوركايم دوافع انتحارية تخترق المجتمع ، يكون منشأها جمعيا وليس فرديا . هذه القوى هى السبب الحقيقى للانتحار . ان هذه الدوافع الانتحارية لا توجد ممثلة فى شخص نكون قد اخترناه للدراسة ، بناء على اختيار عشوائى ، لأن اقدام شخص ما على الانتحار يرجع ولا شك الى أنه كان لديه استعدادا مشتقا من تكوينه النفسى ، أو ضعفه العصبى أو اضطرابه العقلى . الا ان نفس الظروف التى تخلق الدوافع الانتحارية هى نفسها التى تخلق الاستعداد النفسى ، وذلك لأن الأفراد الذين يعيشون فى المجتمعات الحديثة يتصفون بحساسية مرهفة وبالتالي يكونوا سريعى التأثير . ان الاسباب الحقيقية اذن هى القوى الاجتماعية . وهى تختلف من مجتمع الى آخر ومن ديانة الى أخرى ، كما أنها تنشأ من الجماعة وليس من الأفراد مأخوذين كل على حدة . وهذا يعود بنا الى الموضوع الرئيسى وهو ان المجتمع بطبيعته غير متجانس فى علاقته بالأفراد ، وأن هناك ظواهر اى قوى تنبع عن الشكل الجمعى وليس من مجموع الأفراد . ويمكن اكثر من ذلك القول ان الأفراد معاهد يصدر عنهم ظواهر لا يمكن تفسيرها الا اذا أخذت ككل واحد . وينتج عن ذلك وجود ظواهر اجتماعية معينة تسيطر على الظواهر الفردية ، واغوى مثال على ذلك

هى القوى الاجتماعية التى تدفع بالافراد الى حتفهم . بينما يعتقد كل فرد منهم انه يطيع نفسه فقط (٧٠) .

واكد دوركايم على اهمية النظام discipline فى كتابه « الأشكال الأولى للحياة الدينية Les formes élémentaires de la religion ويخضع الانسان للنظام بواسطة قوة عليا ليست الا المجتمع نفسه . وقد بين دوركايم فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان العنبة او العلية تاتى من المجتمع وحده . ومن هنا فان النزعة التجريبية غير سليمة لأنها لا تستطيع ان تفسر كيف تظهر التصورات او المقولات . والنزعة العقلية القبلية apriorism ايضا غير سليمة لأنها لا تفسر شيئا ، فهى تضع فى العقل البشرى ، على شكل معطيات لا تتغير ، نفس الشيء الذى يحتاج الى تفسير . ان ما فهمته النزعة القبلية هو ان الحس لا يمكن ان يعطى تصورات او مقولات وان هناك فى العقل شيء آخر خلاف معطيات الحس . ولكن ما لم يفهم كلاهما - النزعة الحسية والنزعة القبلية - هو ان هذا الشيء اكثر من مجرد معطيات حسية وان له منشأ origin ، وهذا المنشأ هو تفسير له . وتعتبر الحياة الجمعية هى المنشأ والاصل والتفسير للتصورات والمقولات . ان المجتمع فى رأى دوركايم هو العملية التى بواسطتها تصل الافكار الى التعميم وفى نفس الوقت الى السلطة التى تحدد كل من التصورات والمقولات (٧١) .

وقد اضاف دوركايم على الدين مكانة مؤثرة فى تكوين الحضارة ، لانه رأى فى تفسيره له انه باعتباره ، اعلى تعبير عن القوى الجمعية قد صدر عن تفاعلات الافراد فى داخل الجماعة الاجتماعية . وليست المعتقدات والطقوس الدينية الا تعبيراً رمزياً عن القوة الخلقية للمجتمع نفسه .

(70) Aron op. cit. p. 44.

(71) Aron op. cit. p. 65.

وقد ادى به هذا الى النظر الى كل من الدين والمجتمع باعتبارهما مرتبطان مصائريا (٧٢) .

ان التفسير الاجتماعى للدين هو من ناحية تعبير جمعى راجع الى تجمع الأفراد فى نفس المكان ، ومن ناحية اخرى يستدعى القول بان المجتمع نفسه هو موضوع عبادة الفرد من حيث لا يدري (٧٣) .

وقد ميز دوركايم بين علم الاجتماع والتاريخ ، فبينما يكون التاريخ وصفا فان علم الاجتماع يكون تفسيريا . وقد اعتبر دوركايم ان وصف فكرة او نظام ما لا يعتبر تفسيريا له (٧٤) . ان التحليلات التاريخية فى رايه لا تكشف عن اسباب او وظائف نظام ما على الرغم من تناولها لمراحل النظام . فلهذا فى اهتمامه بالحدث الفريد يهمل كل ما هو مشترك بين الأحداث ، لذا يعجز عن عقد المقارنات فى تحليلاته التاريخية .

لقد راي دوركايم ان التفسير التاريخى الذى يعتمد على الماضى لا يعتبر تفسيريا علميا صادقا ، فالظاهرة الاجتماعية تفسر فى ضوء الظروف المصاحبة لها عن طريق العلاقة السببية . وقد وضع قاعدة تقول : « يجب علينا ان نبحث عن الأصل الاول لكل عملية اجتماعية ذات اهمية معينة فى تكوين الوسط الاجتماعى الداخلى » (٧٥) ذلك ان الظاهرة الاجتماعية تتأثر بواقعة الترابط ، أى الطريقة التى تتجمع حسبها الأجزاء المكونة للمجتمع ، وتتخذ هذه الأجزاء لتكون « كلا محددا » هو الوسط الداخلى . وقد اعتبر دوركايم هذه العناصر المكونة للوسط نوعين : أشياء

(72) Tiryakian op. cit. p. 42.

(73). Aron op. cit. p. 69.

(74) E. Durkheim. La science positive de la morale en Allemagne. Revue Philosophique XXIV (1887) p. 282.

(75) E. Durkheim, Les règles de méthode sociologique op. Cit. p. 111.

واشخاص وتشير الأشياء ، بالإضافة الى الموضوعات المادية الموجودة في المجتمع ، الى نتائج النشاط الاجتماعى السابق ، والقانون السائد ، والعادات القائمة ، والأعمال الأدبية والفنية ... الخ . ولكن ما يحدد التغيرات الاجتماعية لا يصدر عن هذه الأشياء لأنها لا تنتج أى قوة محرّكة ، فهى المادة التى تنطبق عليها القوى الحية في المجتمع دون ان تصدر عنها أى قوة حية . فيتبقى اذن كعامل نشط ، العنصر الانسانى وحده . ومن واجب عالم الاجتماع أن يحاول كشف الخصائص المتعددة لهذا الوسط فهى الكفيلة بأن تؤثر على مجرى الظواهر الاجتماعية .

ويخبرنا دوركايم انه قد امكنه التوصل الى مجموعتين من الخصائص هى : عدد الوحدات الاجتماعية او حجم المجتمع ، ثم درجة تركيز الحجم *le degré de la concentration de la masse* التى اسمها « الكثافة الديناميكية » ، ويعرفها بأنها أى حجم فى تناسبه مع عدد الأفراد المرتبطين بعلاقات . هذه العلاقات ليست فقط علاقات تجارية وانما أخلاقية أيضا أى أن الأفراد يتبادلون الخدمات كما يعيشون حياة مشتركة ، ولذا فإن ما يعبر بجدارة عن الكثافة الديناميكية لشعب ما هو درجة التهام *coalescence* القطاعات الاجتماعية (٧٦) .

وقد أضفى دوركايم على المفهوم الخاص بالوسط الاجتماعى أهمية عظمى كعامل محدد للتطور الجمعى . فإذا ما استبعد فان علم الاجتماع يصبح عاجزا عن اقامة أى علاقة سببية . وقد انتهى دوركايم الى النتيجة التى تقول « ان الأحداث الحالية فى الحياة الاجتماعية لا تنشأ من الوضع الحالى للمجتمع ، ولكن من الحوادث السابقة أى من السوابق التاريخية ، وسوف تنحصر التفسيرات الاجتماعية فى ربط الحاضر بالماضى » (٧٧) .

(76) Ibid. p. 112.

(77) Ibid. p. 116.

وقد انتهى دوركايم الى تقرير اهمية التاريخ بالنسبة للانسان في علاقاته بالآخرين . فقد اعتبر دوركايم ان الطبيعة الانسانية متغيرة وان التاريخ ليس مجرد اطار تدور بداخله حياة الانسان بل أنه يشكل ويغير ويخلق الانسان . فالانسان ليس الانتاج التاريخ ، والطريقة التي يرتبط بها العالم - متضمنة الطريقة التي يدرك بها علاقاته بالآخرين - تختلف من زمن الى آخر ، ومن مكان الى آخر . وهذه التغيرات في طبيعة الانسان ليست بتغيرات ثانوية ، وانما لها دلالة كبيرة (٧٨) . ان هذه الفكرة التي طورها دوركايم في اواخر اعماله تدل على اهتمام متزايد بتقبل النزعة الفردية . ونستطيع بناء على ذلك القول ان منطق التفسير عند دوركايم كان اجتماعيا وتاريخيا في الوقت ذاته (٧٩) .



رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم

نتبين من العرض السابق لفكر دوركايم انه كان فيلسوفا وضعيا مؤمنا بالتفكير العلمى وهذا ما حدا به الى النظر الى الوقائع الاجتماعية كاشياء ، فالوقائع الاجتماعية في نظرة حقيقية ومتميزة تماما مثل الوقائع الطبيعية ، ولا يمكن فهمها في ضوء أى شئ خارجها . وقد حدد دوركايم خاصيتين أساسيتين تتميز بهما الواقعة الاجتماعية : اولهما ، انها خارجية بالنسبة للفرد ، وثانيهما ، انها تمارس ضغطا عليه . ويعنى النظر الى

(78) E. Durkheim . Introduction à la morale ed . by M. Mauss.
Revue philosophique LXXXIX - XC 1920 pp. 79 - 97 p. 88 Quoted
in Tiryakian op. cit. p. 51.

(٧٩) د . محمد عارف : المنهج في علم الاجتماع ، الجزء الأول :
المنهج الكيفى والمنهج الكمي في علم الاجتماع ، القاهرة ، دار الثقافة
للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٣٠

الوقائع كاشياء خارجية التخلص من التصورات المسبقة والاحكام السببية التى تجعلنا عاجزين عن معرفة الوقائع بطريقة علمية . والقصر والالزام المصاحبان للواقعة الاجتماعية تابع من كونها تفرض نفسها على الأفراد وتجبرهم على ملاحظتها . فاذا نظرنا من هذا المنطلق الى المعنى الشئى والخارجى الذى ينسب دوركايم الى الظواهر فسوف ينتفى ولا شك النقد الذى وجه اليه باعتباره اراد تفسير الوقائع الاجتماعية فى ضوء العوامل الطبيعية ، ففى واقع الأمر أن دوركايم قد استعار من العلوم الطبيعية المنهج أو الشكل دون المضمون .

وعد اعتبر دوركايم أن الوقائع تمثل الطريقة التى يرى بها المجتمع نفسه وما يحيط به . والتعبيرات النمطية الشائعة للحياة الجمعية هى كل من المبادئ الأخلاقية ، والمعتقدات والممارسات الدينية ، والرموز القانونية والأساطير ، والفلكلور والأمثال ، والحكم ، واخيرا اللغة وهى اكثر الطرق تعبيرا عن الجماعة أو المجتمع فى علاقته بالعالم (٨٠) .

ولقد رأى دوركايم أن التفسير يمثل هدف علم الاجتماع ودليلا على قدرته العلمية ، وقد حاول أن يبين فى مؤلفاته ما ينبغى أن يكون عليه التفسير . لقد شعر دوركايم أن عليه أن يقدم ادلة على رايه هذا ، ويرجع هذا الى عدة اسباب :

اولا : وجود النزعة العقلية لديه وبالتالي الاتجاه الفلسفى فى طابعه الفكرى ، ويدعوه هذا الاتجاه الى مناقشة ما يستحق التثبت منه ، مناقشة تتفحص الافتراضات والتاثيرات التى يستدعيها الموقف المتخذ .

ثانيا : كان لدى دوركايم الرغبة القوية فى اقناع الرأى المعارض والرأى الشاك فلم يكن ليريد أن يتابع طريقة فى استقلال عن وجهات نظر

الآخرين . وقد رأى ان الاراء المقاومة لدعاوى علم الاجتماع هى آراء غير مسئولة ، وحيانا خطره وكان لديه الاحساس بأنه يعيش مرحلة أزمة اجتماعية .

ثالثا : كان دوركايم يهدف الى تأسيس مدرسة ، اى مجموعة من الباحثين يساهمون فى بحث مشترك بحيث يحولون كافة الدراسات الاجتماعية الى فروع لعلم موحد هو العلم الاجتماعى . لذا استشر دوركايم الحاجة الى وضع برنامج ناجح من المبادئ يثير طريق البحث فى المستقبل . ومن هنا كان كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » (٨١) لقد جعل دوركايم من المفهوم « مجتمع » النقطة المركزية فى فكره وهذه الكلمة هى اكثر الكلمات شيوعا وتعقيدا فى كتاباته . وقد تجاوز تصور دوركايم للمجتمع مجموع الأفراد المكونين له ليمثل نسقا او واقعا محددا . لقد اعتبر دوركايم الواقع الاجتماعى منفصلا عن الواقع الفردى ، وفسر الظواهر الاجتماعية سواء الفردية او الجمعية بواسطة الظواهر الاجتماعية .

ولقد تضاربت الآراء حول تصور دوركايم للمجتمع . فقد اعتبر البعض هذه النظرة اتجاه سوسيولوجى ولكنه ليس مطلق ما دام لم يعتبر الفرد مجرد نتيجة للمجتمع وانما فصل بينهما كمجرد خطوة لازمة لتصوير المجتمع نفسه ، ثم اعتبر التفاعل بين التنظيم الاجتماعى والاحتياجات البشرية اهم نقطة فى تفسير التطور من شكل معين الى شكل آخر (٨٢) . بينما اعتبرت نظرة دوركايم من جانب مفكرين آخرين بأنها اقامت تفرقة حاسمة بين الفرد والمجتمع (٨٣) .

(81) S. Lukes . Emile Durkeim . New York: Harper and Row Publishers 1972 p. 228.

(82) P. Q. Hirst . Durkeim, Bernard and Epistemology. London : Routledge and Kegan Paul 1975 p. 146.

وفى الواقع ان مفهوم او تصور دوركايم « للمجتمع » هو ، من وجهة نظره ، الكلمة الأخيرة التى ترد اليها التفسيرات فى كافة المجالات ونحن وان كنا قد تعرضنا لتصور دوركايم للمجتمع فى كتاباته الرئيسية الا انه ايضا تحدث عنها فى مؤلفاته الأخرى . وفى كتابه المشترك مع مارسيل موس *M. Mauss* تحت عنوان « التصنيف البدائى » نجده ، قد اهتم بالتصنيفات الرمزية ذات الطبيعة الخلقية او الدينية وميزها عن التصنيفات ذات النسق التى اسمها تصنيفات تكنولوجية . وقد اعتقد دوركايم وموس ان العقل الانسانى يفتقد القدرة على بناء انساق معقدة للتصنيف الذى نجده فى كل المجتمعات الذى يعتبر نتاج حضارى غير موجود فى الطبيعة . ويتساءل المفكران عن النموذج الذى اشتقت منه هذه التصنيفات للأفكار وتجيء الاجابة مؤكدة على ان هذا النموذج لا يمكن الا ان يكون المجتمع نفسه . ان المقولات المنطقية هى المقولات الاجتماعية ، واول مجموعة للأشياء كانت مجموعة البشر ، ليس فقط كشكل خارجى وانما كعلاقات لها طبيعة اجتماعية. واذا نظرنا الى مجموع الأشياء كنسق واحد فمسبب ذلك ان المجتمع نفسه يخضع لهذه النظرة ، وبالتالي فان السلسلة المنطقية ليست الا مظهرا آخر من السلسلة الاجتماعية ووحدة المعرفة ليست الا وحدة الكل الاجتماعى التى امتدت لتشمل الكون بأسره (٨٤) .

وفى مقالة كتبها دوركايم قرب أخريات حياته « *Le dualisme de la nature humaine et ses conditions sociales* » . اهتم بالتركيز على ثنائية الروح والجسم . وقد تناول دوركايم هذه الثنائية كتعبير جمعى يحتاج الى تفسير اجتماعى يظهر الواقعية خلف

(84) E. Durkheim , M. Mauss. *Primitive Classification*, trans. & ed. by Rodney Needham . Chicago. The University of Chicago Press 1963 , p. 8 , 9 .

هذا المفهوم الثنائي للطبيعة البتريه . لذا رفض الحلول التجريبية والحلول المثالية لتفسير هذه الثنائية لأن الاتجاه الأول انكر وجود ثنائية حقيقية في الانسان بناء على ان الانشطة العقلية والخلقية لا تختلف عن الانشطة والاحساسات الجسمية الأخرى . اما الاتجاه المثالي ففقد رأى الواقع مكونا من افكارا (تصورات) ولا يوجد بالتالى صراع حقيقي بين الانسان والعالم او بداخل الانسان ذاته . ويعتبر دوركايم أن النزعتين عاجزتان عن تفسير سبب احساس الانسان على مر التاريخ بتعارض ماخلى . ويرى دوركايم ان فكرة كون الروح غير فان وان الحياة مستقلة عن الوجود الفانى للجسم هي فكرة واقعية . فان حياة المجتمع أطول من حياة الفرد ، فالأفراد يولدون ويفنون بينما يستمر المجتمع . ان فكرة الروح باعتباره افضل جزء فينا واسمى من الجسم ، هذه الفكرة تتضمن عنصرا مقدسا يفرض على الفرد ، وهو انعكاس لتفوق المجتمع على الفرد وتأثيره الخلقى عليه . ويقول دوركايم في هذا الصدد : « ان كل واحد منا يعيش حياة مزدوجة : احدها فردية خالصة ذات اصل نفسى ، والثانية خارجة عنها *extraindividual* باعتبارنا امتدادا للمجتمع » (٨٥) . والصراع الذى نشعر به بين مطالب الروح ومطالب الجسم ليس الا انعكاسا للواقعة في كون مطالب المجتمع تختلف تماما عن المطالب التى تفرزها الطبيعة الفردية (البيوفيزيائية *Biophysical*) . ان المجتمع اذن يعتبر قوة خلقية متقدمة على الفرد ، فهو واقع نفسى أكثر ثراء وتعقيدا من أى فرد لأنه يستفيد من مساهمات كل اعضاءه . الا ان المجتمع يعتمد على وعى الأفراد لأنه لا يوجد الا اذا فكر فيه الأشخاص ، وبالتالي فانه يملك طابعا مزدوجا فهو مباطن ومتعال معا . انه يوجد لدى الفرد ولكنه في نفس الوقت يتجاوزه . ان

(85) E. Durkeim. « Le dualisme de la nature humaine et ses conditions sociales » *Scientia* XV (1914) pp. 206 - 221 , p. 216 Quited in Tiryakian op. cit. p. 49.

المجتمع هو الذى حرر الانسان من الطبيعة الحيوانية ، واعطاه الشخصية ، وجعل منه انسانا اى كائنات اخلاقيا . ويختصار فان المجتمع هو الذى جعل منا بشرا ، فان لم تكن اجتماعيين فمن المستحيل ان نكون متحضرين (٨٦) .

لقد افرد دوركايم لعلم الاجتماع مكانة بارزة تفوق المجالات الأخرى ، وهو يقول : « ان المجتمع اقوى شبكة من القوى المادية والخلقية موجودة فى الطبيعة . واننا لا نرى فى اى مجال آخر مثل هذا الثراء فى المعطيات المختلفة بهذه الكثافة المرتفعة » (٨٧) وقد اعتبرت هذه النظرة ميتافيزيقية وانعكاس لموقف كونت من علم الاجتماع حينما افرد له مكانة رفيعة على أساس انه يدرس الظواهر الأكثر تعقيدا .

ويقوم التفسير فى فكر دوركايم على مبادئ رئيسية ثلاث : انه تفسير سببى يقوم على الوظيفة التى تؤذيها الواقعة الاجتماعية ، وهذا يتأتى بفضل الطبيعة القابلة للمقارنة التى تتميز بها العلوم الاجتماعية . وقد قام دوركايم بنقد « قانون الحالات الثلاث » عند كونت لافتقاده الى العلاقة السببية واعتبره قانونا تجريبيا او نظرة شاملة الى التاريخ الماضى للجنس البشرى ، كما انه تساعل عن امكانية ظهور « حالة » رابعة جديدة فى المستقبل (٨٨) .

ويعتبر دوركايم ان اسباب الظواهر الاجتماعية داخلية بالنسبة للمجتمع ، وعلى هذا الأساس رفض النظرية التى تجعل المجتمع يشق

(86) Tiryakian , op. cit. p. 64.

(87) E. Durkheim. Les formes élémentaires de la vie religieuse p. 637. Quoted in Tiryakian op. cit. p.

(88) Durkheim. Les règles de la méthode sociologique op. cit. p. 117.

من الفرد . ويأخذ عليها انها تبحث لايخراج الداخل الى الخارج لانها تفهم الكائن الاجتماعى بواسطة شيء آخر مختلف عنه ، فهي تحاول استنتاج الكل من الجزء (٨٩) ان تفسير الظاهرة الاجتماعية في رأى دوركايم تعنى البحث عن السبب وهذا يعنى البحث في الظواهر السابقة التى أدت اليها . وقد وجد دوركايم ان التفسير السببى هو خاصية كافة العلوم ولا بد بالتالى ان يكون ايضا الطريق الطبيعى لعلم الاجتماع . . .

ويعد التوصل الى السبب يحتاج التفسير الى البحث عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية . وفي الواقع ان هذا الاتجاه لدى دوركايم كان مصدرا لكثير من النزعات الوظيفية المعاصرة Functionalism في علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، ان دوركايم وجد استحالة فهم أى شكل من اشكال السلوك الاجتماعى من مجرد وصف شكله او استخدامه لان هذا ينتهى بنا الى مجرد نظرية وصفية ذرية وهى القطب المقابل للتفسير . وما نحتاجه بالفعل هو تحديد وظيفة الواقعة في المجتمع . وقد اعطى كمثال على ذلك : العقوبة . وتسأل ما هو سبب العقوبة ؟ وقد تكون الاجابة المباشرة هى ان سببها الجريمة او العدوان المعين الذي نتجت عنه العقوبة . الا ان هذه الاجابة لا تنبئنا عن وظيفة العقوبة التى يلاحظ دوركايم انها لا تفهم الا في علاقتها ، ليس فقط بعدوان معين او عقوبة معينة ، وانما في علاقتها بنظام اجتماعى اوسع تعتبر العقوبة جزءا منه . ان وظيفة العقوبة بنائية ، أي انها تشارك في العمليات المؤثرة في تدعيم نظام اجتماعى معين . ان ما يؤكد عليه دوركايم هو ان معالجة طبيعة الواقعة الاجتماعية لا تكون تامة حتى نتوصل الى الوظيفة التى تلعبها ، آخذين في الاعتبار بقيقة المجتمع . وقد تكون الواقعة مبتذلة امام الوعى او لا عقلية او متطرفة في الخرافة ، الا ان هذا لا يمنع دراستها على شريطة ان تكون مستمرة

زمنيا . ولا يمكن فهم هذا الاستمرار الزمني الا في ضوء الوظيفة التي تلعبها الواقعة بالنسبة للأفراد المؤمنين بها أو الجماعة التي تقبلها . وبهذا الشكل بين دوركايم أن وظيفة الدين اجتماعية وليست فلسفية أو عقائدية أو كونية . وقد اعتبر مؤلفه « الأشكال الأولية للحياة الدينية » من أكثر أعماله اثارة لاهتمام الباحثين المعاصرين خاصة ما كتبه عن المظاهر الوظيفية للظواهر الاجتماعية (٩٠) .

وقد رأى دوركايم أن الطريقة الوحيدة للوصول الى فهم للعملية السببية في أى علاقة ، هو من خلال مقارنتها بعمليات أخرى بواسطة علاقات معرفية ، هذه المقارنة تهدف أساسا الى التوصل ، من خلال الملاحظات المقارنة ومن خلال التحليل ، الى العوامل السببية أو الأساسية في العملية الاجتماعية . ويشترط دوركايم على المقارنة ، لكي تكون منهجا علميا صالحا للدراسة ، أن تقوم بين إبنية وعمليات أى « أنماط اجتماعية » أو أشكال السلوك بحيث يؤخذ في الاعتبار كل من الوظيفة ، والغزى السياقى ، والمعنى ، مثلما يؤخذ في الاعتبار السلوك الواضح الصريح . فيقول دوركايم « تختلف الوقائع الاجتماعية باختلاف النسق الاجتماعى التى هى جزء منه ، ولا يمكن فهمها الا اذا فصلت عنه . لذلك لا يمكن مقارنة واقعيتين مختلفتين لمجرد انهما تظهران متشابهتان ، فلا بد أن يكون المجتمعان أساسا يشبهان بعضهما البعض . ويكون المنهج مستحيلا اذا لم توجد الأنماط الاجتماعية ، ولا يمكن تطبيق هذا المنهج بنجاح الا من خلال نمط واحد » (٩١) .

ولا شك أن نزعة دوركايم الوضعية ، وأخذه بالتفكير العلمى ، مع ادخاله لمناهج جديدة في الدراسة الاجتماعية قد أدى به الى وضع أسس

(90) Nisbet op. cit. p. 67, 68.

(91) E. Durkheim, *Elementary Forms of Religious Life*. Trans. by Swain, J. W . Quoted in Nisbet Ibid. p. 69.

علمية للتفسير سبق بها المفكرين في عصره . وقد اثر دوركايم بشكل لم يسبق له مثيل في الاتجاه الفكرى والاجتماعى التالى له ونذكر منه الوضعيات المحدثة والوظيفية ، بالاضافة الى المدارس الفكرية الاخرى التى قامت لتعارضه .



خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ونظرتهما الى التفسير

قامت الاتجاهات الوضعية المعاصرة كامتداد لأعمال كل من ماح وبوانكاريه وفريجيه وفنجشتين ومل وكونت ، وتشكلت فى مدارس عديدة تتجمع حول مجموعة مبادئ أساسية . ولقد مرت الاتجاهات الوضعية المعاصرة فى عدة تطورات بادئة من دائرة فينا مع الوضعية المنطقية المكونة من شليك وكارناب وويسمان وفيجل ونورث وفرانك وفون ميزس وآخرين منتهية بالوضعية المحدثة أو التجريبية المنطقية مع رايشنباخ وهمبل وناجل وبردجمان وآخرين .

ويتفاوت تأييد الاتجاهات الوضعية للمبادئ المشتركة التى تجمع بينها . فمنها ما يؤكد بصفة خاصة على النزعة الفيزيائية *Physicalism* التى ترد العلم الى تقريرات تعبر عن وقائع قابلة للملاحظة بشكل مباشر . ومنها ما يؤكد على النزعة الذرائعية *Instrumentalism* التى تنظر الى الفكر باعتباره ذريعة أو وسيلة للوصول الى الهدف . ومنها ما يؤكد على النزعة الطبيعية *naturalism* التى ترى أن العلوم الاجتماعية لها نفس اهداف ومناهج العلوم الطبيعية .

ولا شك أن الوضعية موقف فلسفى من المعرفة الانسانية ، موقف يقوم على عدم مناقشة أسئلة معينة مثل : كيف وصل الانسان الى

المعرفة ؟ او ما هي الآسس النفسية والتاريخية للمعرفة ؟ وانما هو موقف متمثل في مجموعة مبادئ ومعايير تقديرية تشير الى المعرفة الانسانية . فهي تقوم بالتمييز بين المضامين الموجودة في تصوراتنا عن العالم ، فتركز على المضامين التي تستحق ان تسمى معرفة وتتيح معايير لمعرفة ما ينبغي ان يكون موضع السؤال . وهكذا تصل الى الموضوعات الفلسفية والعلمية التي يجوز الخوض فيها والموضوعات التي لا تستحق ذلك . ومن هنا وجهت الوضعية نقدها الى التاويلات الدينية للعالم والى الميتافيزيقا وذلك بهدف اقامة موقف تجريبي حر من الافتراضات الدينية والميتافيزيقية . وهكذا قام موقفها الفلسفي على رفض قيام اى نظرية او فلسفة ، وعلى التاكيد على الحذر والدقة والوضوح ، وعلى تفضيل المسائل الممكنة الحل علميا والمفيدة عمليا ، واخيرا على البعد عن اى اتجاه تاملى .

وتتجه الوضعية المحدثه الى اخطر قرار لها وهو تحديد الفلسفة على مستوى اللغة ، فالعلم في رايها يهتم بالأشياء الموجودة في العالم بما فيها الانسان ، والفلسفة تهتم باللغة التي يعبر عنها هذا العلم . ولقد زعموا - على حد قول د. الطويل - ان كل ما نستطيع معرفته عن العالم وعن الانسان ومكانه منه ، يمكننا ان نستقيه من العلوم الطبيعية التي تدرس الكون والعلوم الانسانية (الاجتماعية) التي تدرس الانسان ، وليس للفلسفة بعدهما مجال ! انها مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية او يصطنعها العلماء في مباحثهم العلمية (١٢) .

ويمثل الجانب الوضعي من الفلسفة التحليلية في « التجريبية المنطقية » التي اعتبرها راسل اساسا هاما في المدرسة التحليلية . وهي

(١٢) د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٥٩

تقوم على تطبيق واسع للمناهج الرياضية ، فقد كانت هناك قبل ذلك
فرقة تقليدية بين المنهج الرياضى للتثبت والمنهج التجريبي للبحث ، وقد
ادى هذا الى تصورين للمعرفة : احدهما لاتجاه العقلى ، والثانى
الاتجاه التجريبي . وقد حاول التجريبيون المناطقة التخلص من هذا
التقسيم ، فهم يرون ان الخبرة experience هى الوسيلة الوحيدة
لمعرفة اى شىء عن العالم الواقعى . والرياضيات بذاتها لا يمكن ان تصف
العالم الا انها تتيج طريقة ضرورية للتفكير . ولقد تطور المنطق الصورى
فأصبح اداة ساهمت فى توسيع العلم التجريبي ، وذلك عن طريق التخلص
من الموضوعات الزائفة مما جعله قادرا على حل المسائل الانطولوجية .
ومن هنا ساهم كل من المنطق والرياضيات فى فعالية الرموز اللغوية وفعالية
التفكير .

وتقوم الفلسفة التجريبية المنطقية على مجموعة من الأسس تتمثل
فى التالى :

اولا : هى اتجاه عقلى قائم على فكرة انه لا يمكن التوصل الي
معرفة فى العالم الا بالطريق المستخدمة فى العلوم الطبيعية والرياضيات .

ثانيا : انها تدعم النزعة الاسمية nominalism فى نظرية المعرفة ،
وفى نظرياتها عن المعنى وعن الموضوعات الرياضية وعن القيم . وتقوم
النزعة الاسمية على القول بانه من الخطا ان نفترض ان اى استبصار
Insight مصاغ فى عبارات عامة يمكن له مدلولات اخرى خلاف
ما هو موجود فى الواقع . فنحن نعترف بوجود الأشياء عندما تجبرنا
الخبرة على القيام بذلك .

ثالثا : انها موقف معارض للميتافيزيقا على اساس ان التقريرات
الميتافيزيقية لا تقبل متطلبات التحكم التجريبي والسبب فى ذلك كونها
تتعامل مع ظواهر خاصة ، ولا تتعامل مع العالم ككل ومن هنا عدم امكان
استخدام منهج معين للتأكد منها .

رابعاً : انها تتبنى الاتجاه العلمى *Scientism* اى انها تؤكد على الوحدة الضرورية للمنهج العلمى .

والاختلاف الحالى بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ليس الا نتيجة كون العلوم الاجتماعية لم تنضج بعد ، وهذا الوضع مؤقت ، ومن المنتظر فى المستقبل ان توضع العلوم الاجتماعية على صورة العلوم الطبيعية (٩٣) .

ويرى الوضعيون المناطق ان المهمة الاولى للفلسفة هى تحليل التصورات والنظريات والمناهج فى مختلف فروع البحث العلمى ، مبتداه من المنطق والرياضيات مجتازة الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا الى علم النفس والعلوم الاجتماعية وعلم التاريخ . وقد بدا الاتجاه المسمى بالفيزيائى *Physicalism* على يد الوضعية المنطقية عندما نظرت الى كافة القضايا العلمية باعتبارها قابلة للترجمة الى لغة الفيزياء . وتميز نورث *Otto Neurath* بين الوضعيين المناطق باهتمامه الخاص بالعلوم الاجتماعية ، فقد كان عالم اجتماع واقتصاد ، وبالتالى تركزت اغلب كتاباته حول موضوعات ومناهج ونظريات اجتماعية ، بالإضافة الى اهتمامه بتاريخ العلوم الاجتماعية .

وقد رفض نورث فكرة وجود أى اختلافات جوهرية بين العلوم الطبيعية من جهة والأنظمة الاجتماعية والتاريخية من جهة اخرى . فلا يوجد اختلاف بين موضوعات الدراسة لأن الأفراد من البشر وكذلك المجتمعات لا تزيد عن كونها اتسقة فيزيائية *Physical systems* يقل أو يزيد تعدها . وقد قام نورث بوضع قائمة من التعبيرات الخاصة بالعمليات العقلية التى قد تؤدى الى اخطاء ميتافيزيقية والى خلط مثل : عقل *mind* وعقل *mental* ودافع *motive* ، ومعنى *meaning* واخرى مثل مادة *matter* وعلة ومعلول *cause and effect*

واقعة fact . وقد اعترض بشدة على القول بأن التقريرات statements تعبر عن وقائع واعتبر أن افكار فنجشتين الأولى عن بناء تعبيرات القضايا التي تعكس الوقائع التي تلائمها ، اعتبرها افكارا ميتافيزيقية . فقد رأى نوارث أن التقريرات النفسية والاجتماعية التي تحتوى تعبيرات عقلية أما انها تمتلك معنا علميا او موضوعيا أولا تمتلكه فاذا كانت بالفعل تمتلك هذا المعنى فان من الممكن تغييرها واحلال تقريرات ذات طابع فيزيائى مكانها(٩٤) .

ودعى نوارث الى العلم الموحد unified science الذى لا تقوم بجانبه « فلسفة او ميتافيزيقا » . ولن يكون هذا العلم الموحد انجازا لفرد او افراد وانما لجيل بأكمله . ولا بد أن يكون فى مقدور كل قانون فى العلم الموحد أن يرتبط فى ظروف محددة مع القوانين الأخرى ، وذلك بقصد التوصل الى صياغات جديدة . وكل القوانين سواء كانت كيميائية أم متعلقة بعلم المناخ Climatological مثلا أو اجتماعية تمثل مكونات نسق ما هو العلم المحدث(٩٥) .

ويذهب نوارث أبعد من ذلك فى نزعته الفيزيائية مطالبا بلغة موحدة ، أى لغة فيزيائية موحدة Physicalostic unitary language من أجل تكوين كافة التقريرات العلمية . واننا لنجد فى علم السلوك ، عند نوارث ، أن التقريرات المتعلقة بظواهر الوعى والعمليات العقلية قد تركت مكانها

(84) C. G. Hempel, Logical positivism in the social Sciences. In The Legacy of Logical positivism, ed . by p. Achinstein, and S. F. barker, Baltimore : The John Hopkins Press 1969 pp. 162 - 209. p. 169 .

(95) O. Neurath . Sociology and Physicalism in Logical Positivism . ed. by A. J. Ayer, Glencoe. The Free Press 196 pp. 282 - 317 p. 283 , 4 .

لكل من تقارير الأحداث المحددة مكانيا وزمانيا مثل السلوك الواسع المدى Macroscopic (متضمنا لأفعال الحركة والكلام) ، وتقارير العمليات الفسيولوجية أو الفسيوكيميائية التى تحدث فى العقل وفى الجهاز العصبى . ويطلب نوارث باستبعاد التعبيرات العقلية أو الغائية أو أى تعبير غير فيزيائى . ويتمشى موقفه هذا مع تصوره للعلم باعتباره يهدف الى التنبؤ بأحداث جديدة قابلة للملاحظة استنادا الى تقارير عن ملاحظات مناخية . وبناء على هذا يرى نوارث إعادة صياغة كافة العلوم التجريبية فى لغة فيزيائية موحدة . فمثلا علم النفس يتضمن نظريات هامة مثل النظرية الجشتالطية ونظرية التحليل النفسى ، والنظريات السلوكية الا ان وضعها الحالى لا يتيح المقارنة فيما بينها أو الاتحاد معا وذلك بسبب استخدام كل منها للغة مختلفة وغير قابلة للربط . فاذا امكن إعادة صياغة المعلومات التجريبية لهذه النظريات فى لغة فيزيائية موحدة فان ذلك سوف يؤدى الى تقوية النظريات ويمكنها من تطوير قدراتها التنبؤية (٩٦)

وقد اكد نوارث على امكانية التنبؤ بالظواهر الاجتماعية بطريقة لا تقل فاعلية عما هو موجود فى العلوم الأخرى . ويتم ذلك اذا استطعنا تسجيل مختلف الانماط الثابتة للسلوك ثم الكشف عن الشروط التى تحدد ظهورها وانتشارها ثم انهيارها . ولن يتأثر هذا الا اذا رفضنا النظر الى العلوم الاجتماعية باعتبارها تتعامل مع أهداف أو غايات انسانية أو خبرات أو تطلعات أو شخصيات ، وانما هى تتعامل فقط مع سلوك الأجسام البشرية Human organisms . ومن هنا فعلى هذه العلوم ان نستبعد كافة التصورات المرتبطة بالوعى وما يشق عنه وتقوم فقط بدراسة الاطرادات الملاحظة للسلوك الانسانى مؤكدة على العلاقات لاقابلة للقياس بين مختلف ابعاد السلوك (٩٧) .

(96) Hempel. op. cit. pp. 170 - 72.

(97) Kolakowski op. cit. p. 221 .

وقد شاب تصور نورات للنظام العلمى رنه برجماتية ذرائعية ، فكثيرا ما ذكر التنبؤ بالظواهر التجريبية فى كتاباته باعتبارها الهدف الاساسى للنظام العلمى ، مستبعدا كهدف فهم العالم فى حد ذاته . ولحرصه على سلامة التنبؤ أكد على أهمية دمج مختلف الأنظمة فى نمق واحد ، فلكى نتنبئ بأحداث فريدة ، نحتاج الى تجميع معلومات مستقاة من فروع عدة فى العلم التجريبي : الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وكذلك علم النفس وعلم الاجتماع (٩٨) .

وقد اتفقت آراء رودلف كارناب Rudolf Carnap مع الأفكار الرئيسية للاتجاه الفيزيائى كما تبلور لدى نورات ، الا انه عدل من هذه الأفكار لئتمشى مع طابعه الفلسفى الخاص المتميز عن نورات . لقد كان كارناب دقيقا فى صياغة افكاره الفلسفية وفى تقديم أدلة لتأكيدھا ، لذا طالب بتعريف كافة التعبيرات العلمية بواسطة تعبيرات فيزيائية ، وبترجمة كل الجمل العلمية الى جمل فيزيائية ، على أن يؤخذ فى الاعتبار ان التعريفات والترجمات ليست قائمة فقط على حقائق منطقية او تحليلية وانما تقوم فى بعض نواحيها على قوانين تجريبية .

ثم عدل كارناب من آرائه بالنسبة للاتجاه الفيزيائى فجعل تعبيرات العلم التجريبي ترتبط بمفردات لغة الفيزياء بواسطة جمل الرد أو الاختزال reduction وليس بواسطة التعريفات . ثم تراجع كارناب اكثر من ذلك عندما تنازل عن رد كل التقريرات أو القضايا العلمية الى لغة الفيزياء . وقد أدى به هذا الى اضعاف الاتجاه الفيزيائى وجعله قائما على مجرد رد التعبيرات العلمية الى تعبيرات الفيزياء ثم الاكتفاء بردها الى محمولات الأشياء الملاحظة observational thing predicates

(98) Hempel op. cit. p. 173.

(99) Ibid. p. 182, 3.

واعتبرت النزعة الفيزيائية ان الظواهر التي تفسر في ضوء القوانين البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية قابلة للتفسير في ضوء القوانين الفيزيائية وحدها . وهكذا توصلوا الى القول بإمكانية استنباط كافة القوانين البيولوجية والنفسية والاجتماعية من القوانين الفيزيائية - ان لم يكن هذا ممكنا الآن فسوف يتم في المستقبل . ويرى فيجل اننا لا نستطيع ان نكون جامدين بازاء هذا الموضوع ، فاذا كانت العلوم البيولوجية والنفسية والاجتماعية قد توصلت الى نظريات ناجحة في مجالها فليس علينا ان نفرض رد هذه النظريات في الوقت الحالي الى نظريات الفيزياء . الا ان علينا ان ندرك ان هناك أدلة تاريخية وتجريبية ونظرية تؤيد الاتجاه الفيزيائي ، بدليل الدراسات العديدة عن مستويات التفسير (مثل مستويات الوصف والقوانين التجريبية والنظريات) في مختلف فروع العلم . وتكشف هذه المستويات عن اتجاه النظريات للتلاقى في مخطط موحد Unitary scheme . والدليل على ذلك هو تحقيق قدر من الوحدة بين كل من الميكانيكا والفلك والسمعيات acoustics والدينامكا الحرارية Thermodynamics والبصريات optics والكهرباء المغناطيسية والكيمياء متمثلة في نظريات النسبية والكم Quanta . وتبدو البيولوجيا من خلال الفيزياء البيولوجية ، وكل من البيوكيمياء وعلم النفس من خلال الفسيولوجيا متابعين لنفس الاتجاه ، وهو تحقيق قدر من الوحدة (١٠٠) .

واذا كانت الوضعية متمثلة في الاتجاه الفيزيائي قد طالبت بوحدة اللغة ووحدة القوانين فان النتيجة الطبيعية لذلك هي القول بوحدة المنهج

(100) H. Feigl . Unity of Science and Unitary Science, in Readings in the Philosophy of Science, ed . by H. Feigl and M. Brodbeck, 1953 pp. 382 - 384, p. 383.

بين مختلف العلوم . وقد ظهر هذا الاتجاه ليعارض من يقولون باختلاف
الأنظمة العقلية والثقافية عن العلوم الطبيعية استنادا الى وجود اختلافات
اساسية بينها في المناهج اللازمة لتأكيد وتفسير الوقائع موضع الدراسة .
ان التجريبية المنطقية او الوضعية المحدثة ترفض وجود مثل هذا الاختلاف
وترى أن تفسير الظواهر الاجتماعية لا يختلف عن تفسير الظواهر المادية

وقد شاب الفلسفة البراجماتية العملية جانبا وضعا تمثل في الاتجاه
الذرائعى . فبدأ شارلز ساندروس بيرس (١٨٣٨ - ١٩١٤) بالتمييز بين
المسائل المصاغة بعناية والمسائل الخيالية ، وبين الاجابات ذات القيمة
والاجابات الخالية من القيمة ، وبين الموضوعات الواقعية والموضوعات
اللفظية . لقد بين بيرس في احدى مقالاته الهامة وهى « كيف نجعل افكارنا
واضحة » سنة ١٨٧٨ : ان العلم له قواعد منهجية مشتركة تتمثل في قواعد
الوضوح والنقد والقابلية للتثبت والموضوعية ويمكن للفلسفة ان تصل الى
مكانة العلم اذا تخلصت من التعبيرات التى لا معنى لها ، والموضوعات
المصاغة صياغة زائفة .

ان معنى أى تقرير نقبله - فى رأى بيرس - يكمن فى سلوكنا العلمى
او فى استعدادنا للسلوك بطريقة معينة . ولكى نجد معنا لهذا التقرير لا بد
ان نتساءل عما اذا كان هذا التقرير يؤثر على افعالنا وتوقعاتنا . ولكى
نصل الى ذلك يكفى ان ننظر الى النتائج العملية المترتبة على قبوله .
والهدف من هذا يكمن فى التوصل الى معيار يمكننا من التعامل مع
الموضوعات التى تحتل الاجابة ، وذلك بدلا من تبديد الجهود فى
موضوعات لا تستحق البحث وليس لها حلول ، كما فعل البعض لقد
راى بيرس أن افضل معيار للتمييز بين الموضوعات الواقعية وغير الواقعية
يكمن فى التطبيق العلمى Practical applicability (١٠١) .

لقد اراد بيرس باتجاهه الوضعى التخلص من القول بوجود اختلافات بين العالم كما نلاحظه وصفات ذلك العالم الذى يدعى البعض انها مخفية ، فالعالم فى نظره لا يحتوى على اسرار وانما على مشاكل قابلة للحل . اما القول بوجود اختلافات بين الظاهرة والجوهر ، بين الصفات التجريبية وطبيعة الأشياء فهى لا تزيد عن كونها تفرقة لفظية . والممارسة هى المحك للكشف عن الطابع الزائف لهذه التفرقة التى اذا اخذ بها فانها سوف تؤدى الى تدمير التفكير الانسانى بل والحياة نفسها وكذا عالم القيم . اذن يمكن النظر الى بيرس كرائد للنزعة العلمية *scientificism* وهى النزعة التى ترى ان اى سؤال غير قابل للجابة بواسطة مناهج العلوم الطبيعية والاستنباطية هو سؤال غير شرعى ، وكل اجابة على مثل هذا السؤال تفتقد ايضا الشرعية واكثر من ذلك تكون خالية من المعنى (١٠٢) . ويمكن من هنا ان ندرك ان بيرس قد اعتبر العلوم الاجتماعية جزءا من العلم الطبيعى والاما استحققت الدراسة :

واذا كان بيرس قد وضع العلوم الطبيعية فى مكانة متميزة باعتبارها تقوم بالبحث عن الحقائق العلمية المستقلة عن خواتمنا ، فان وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) قد اعتبرها موجودة لتبرير التفسير البيولوجى للانسان ، ليس فقط فى وجوده المادى وانما ايضا فى سلوكه الفكرى ، وفى انجازه العلمى والمنطقى ، وفى داخل الضرورة البيولوجية . لذا قال بالنفع الذى يعود على افعالنا من وراء حكم او تقرير معين . وعلى حين راي بيرس ان الاحكام والتقارير الصادقة تكشف عن صدقها بواسطة الأفعال الفعالة التى تفترض صدق الأحكام او التقارير ، فقد اكد جيمس ان الشيء الصادق هو الذى يعود علينا بالنفع بطريقة ما ، واى تصورات أخرى للحقيقة او للصدق لا معنى لها . وقد أدى هذا الراى بجيمس الى القول بان الحقيقة لا تكمن فى اتساق تقريراتنا مع وضع

الاشياء وانما فى اتساق تقريراتنا مع الفائدة العائدة علينا اذا قبلنا هذه
التقاريرات : وهذا هو التأويل البيولوجى . ويؤدى هذا المنهج الى النسبية
انتساملة ، فان حكما واحدا قد يصبح صادقا او كاذبا حسب الموقف الذى
يصاغ فيه . ان انعلم فى نظر جيمس ليس مجموعة حقائق بالمعنى التقليدى
المتافيزيقي وهو ليس بمتعال ، وانما هو عبارة عن مؤشرات عملية
يكون لها معنى اذا نفذت ، وتكون صادقة اذا ساهمت فى تدعيم الحياة
ومضاعفة الطاقة واتاحة الاشباع (١٠٣) .

وقد رأى ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٢) ان المنظور الذرائعى مفيد
بالنسبة لأفكارنا عن العالم وعن القيم وعن انظمتنا الاجتماعية والسياسية .
ومعنى ذلك ان الاسئلة التى نثيرها ، قبل رفضنا او قبولنا لحكم
او تقرير ما ، هى اسئلة عن هدف بعض الأنشطة الاجتماعية . وبالتالي
فان احكامنا تنقسم الى احكام سليمة *satisfactory* واحكام غير
سليمة *unsatisfactory* وذلك بازاء الهدف المراد تحقيقه اى انها
اما ان تؤيد الأفعال المؤدية الى هذا الهدف او ترفضها . ويمثل هذا ،
الصدق والكذب بالمفهوم الذرائعى . الا ان اهتمام ديوى انصب اساسا
على الحياة العامة وليس على الفرد ، ولذلك فقد ايد المعيار او المحك
المرتبط بالحاجة الجمعية الذى يتيح لنا التوصل الى معيار للاختيار
الجمعى .

ولم يرى ديوى اى اختلاف بين المعرفة والتقييم ، فالمعرفة ككل
ليست الا تقييما ، اى محاولة لاعطاء وصف « جيد » للواقع من وجهة
نظر السلوك العملى . ولما كان النفع فى نظره هو نفع اجتماعى فان
الصدق يصبح وسيلة او ذريعة لتحقيق الفعل الاجتماعى وليس وسيلة
لبلوغ غاية الفرد (١٠٤) .

(103) Kolakowski op. cit. p. 190.

(104) Ibid. p. 188 - 189.

لقد حاول البرجماتيون مثل التجريبيين أن يربطوا التفكير في العالم بتصور الخبرة التي تسبق الكليات كلها . لذا قاموا باستبعاد الأسئلة التي لا إجابة لها . إلا أن وليم جيمس كان يذهب أحيانا الى القول بوجود معلومات صادقة قد لا يكون لها وظيفة في الوقت الذي توجد فيه وإنما تستاهل الاحتفاظ بها لحين الانتفاع بها في المستقبل . ولم يذهب اصحاب المذهب العملى الى القول بصدق الأحكام بناء على اختبارها بواسطة نجاح أو فشل التنبؤات كما يقول التجريبيون ، وإنما اكتفوا باعتبار الحكم ذو معنى اذا استطعنا أن نفعل « شيئا » (١٠٥) .

وتضع الوضعية متمثلة في الاتجاه الطبيعي *naturalism* مسلمات عن الواقع وعن المعرفة. تنطبق على كافة العلوم . وتقوم المسلمة الأولى على ان المعلومات أو الخبرات التي تهم الانسان تتكون في استجابات الاجسام في البيئة . وتقوم المسلمة الثانية على ان الرموز *symbols* تخرج من اجل التعبير عن تلك الاستجابات ، وهى في العادة لفظية . وتقوم المسلمة الثالثة على القول بأن تلك الرموز هى معلومات علمية متاحة امام كل معرفة وبالتالي لكل العلوم . وتقوم المسلمة الرابعة على ان كل قضايا أو مسلمات الوقائع الاساسية تتكون من استدلالات *inferences* ، وتعميمات *generalizations* وتجريدات *abstractions* مستنتجة من الرموز أو من الاستجابات التي تمثلها الرموز . وتقوم المسلمة الخامسة على ان هذه الاستنتاجات بدورها تمثل رمزيا ، وعلى اننا نستجيب لها كما نستجيب للظواهر الأخرى التي تستدعى السلوك (١٠٦) .

ومن هذا المنطلق وضع الطبيعيون مبادئ التفسير السليم ، وهو

(105) Ibid. p. 184.

(106) Lundberg op. cit. p. 40 - 41.

يبدأ من ملاحظة الباحثين لما يحدث ، وإذا أمكن فأنهم يتخمنون تجريبيًا للوصول إلى ملاحظات أفضل للحدث موضع الدراسة . ويساعد هذا على صياغة النظريات التي تتيح التنبؤ بالأحداث المستقبلية . إلا أنه لا يمكن التنبؤ أو التحكم إلا إذا حدث فهم شامل للظاهرة موضع الدراسة . ويعنى هذا الفهم إدراك حدوث الظاهرة على أساس من القوانين والنظريات وتتميز التفسيرات العلمية في أنها لا تقبل على أساس من السلطة أو التقاليد ولا تقييم في ضوء شعبيتها أو مكانة المؤيدين لها ، وإنما تقبل ، حسب متطلبات العلم ، على أساس المنفعة البراجماتية أو العملية ، أى تأثيرها في المساعدة على التنبؤ والتحكم . أن من خصائص التفسيرات العلمية أن دعواها تتجاوز المعلومات الملاحظة من قبل ، وهدفها هو التنبؤ بملاحظات لم تحدث من قبل أكثر منها وصف لآحداث الماضى (١٠٧) .

أن الاختلافات المدعى وجودها بين طرق التفسير في كل من العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية زائفة فيما يرى همبل C. G. Hempel أن تفسير حدث فردي في العلوم الطبيعية يعنى تفسير تكرار حدوث خاصية معينة (مثل ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاض ضغط الدم ٠٠٠ الح) وذلك في مكان محدد وفي وقت معين أو في خلال فترة زمنية معينة . وهذا التفسير لا يعنى مراعاة كافة الخصائص المتكررة للواقعة المحددة ولنسمها (ع) ، لاننا لو فسرنا كل المظاهر العامة للواقعة (ع) كان معنى ذلك هو تفسير كل واقعة فردية في العالم سواء في الماضى أو في الحاضر أو في المستقبل . ولا شك أنه من المستحيل الحصول على هذا النوع من التفسير للحدث الواقعى في « تفردة » سواء في مجال علم الاجتماع أو في مجال الفيزياء ، وحتى الوصول إلى معناه الدقيق يمثل مشكلة . ومن هنا فإن ما ينبغي علينا أن نقوم به هو مجرد تفسير حدوث الخاصية

(107) Lundberg, G. A. Sociology. New York : Harper & Row Publishers 1963, p. 47. . .

المتكررة ولنطلق عليها (و) التى تحدث للواقعة (ع) ، وذلك مهما كانت درجة تعقدها . ولكى نصل الى تفسير له معنى فى العلوم الاجتماعية ، فعلينا - مثلا اذا كنا بصدد تفسير الراسمالية الغربية - ان نقوم بما نفعله اذا كنا بصدد تفسير خسوف الشمس الذى حدث فى ١٨ مارس ١٩٥٨ .

فى الحالتين نجد بعض الخصائص - المشار اليها بالرمز (و) - تحتاج الى تفسير . وتتمثل هذه الخصائص بالنسبة لحالة كسوف الشمس فى شكل الكسوف ، ومدته ، وقابليته للرؤية ... الخ ، الا اننا يجب ان نضع فى اعتبارنا وجود خصائص اخرى عديدة لا ننوى الاهتمام بها (مثل عدد الصحف التى قامت بوصف الحدث) ، ويجب ان نلاحظ ان الخاصية (و) التى نقوم بتفسيرها لازالت فريدة بمعنى ان الواقعة (ع) لا تكرر . وحتى اذا كان فى مقدورنا ان نتصور وجود امثلة اخرى للخاصية (و) ، على الاقل من الناحية المنطقية ، الا ان هذه الامثلة لا تملك الموقع الزمانى ولا المكاني للواقعة (ع) (١٠٨) .

ويأخذ همبل والوضعيون بالنموذج الاستنباطى للتفسير (١٠٩) . المتمثل فى اعتبار الحدث الفريد الذى نقوم بتفسيره مستنتجا من مجموعة احداث اخرى واقعية سابقة او مصاحبة ، استنادا الى قوانين عامة او مبادئ نظرية . ومن ثم فقد نظر همبل الى « الانماط المثالية » Ideal types (١١٠) ، التى قدمها علماء آخرون من اجل تفسير

(108) C. G. Hempel . Aspects of Scientific Explanation . 1965 p. 163.

(١٠٩) تحدثنا بالتفصيل عن هذا النموذج فى الفصل الثانى من الرسالة .

(١١٠) عرفها همبل بانها « نماذج أو أنماط تكونت على اثر عزل بعض المظاهر الواقعية التجريبية المبالغ فيها . وهى تصورات حدية لا توجد لها امثلة مطابقة فى الواقع وانما قد توجد لها بعض الصور التقريبية » . المرجع السابق ، ص ١٦٠

الوقائع الاجتماعية ، باعتبارها انظمة نظرية محتوية على فروض عامة قابلة للاختبار . وقد حدد هبل مجموعة من القواعد للوصول الى هذه النتيجة وتتمثل في :

- (١) تحديد قائمة من الخصائص لتتعامل معها النظرية .
- (ب) تكوين مجموعة من الفروض في ضوء تلك الخصائص .
- (ج) اعطاء تلك الخصائص تاويلا تجريبيا يحدد للنظرية مجالا خاصا للتطبيق .

(د) ادخال النسق النظرى في نظرية اكثر شمولاً باعتباره « حالة خاصة » . وتعتبر هذه القاعدة الأخيرة هدفا بعيد المدى (١١١)

وهكذا امكن لمهبل باعتباره فيلسوفا وضعيا استخدام النماذج او الانماط المثالية كطريقة للتفسير في العلوم الاجتماعية بعد ان جردها من محتواها الذاتى ثم طبق عليها منهجه العلمى .

وقد ارجع فيلسوف العلم ناجل Ernest Nagel الوضع المتأخر للتفسير في العلوم الاجتماعية واعتماده الرئيسى على التعميمات الاحصائية ، ارجعه الى اللغة المستخدمة في الدراسة والى تخلف الاساس النظرى ، أى النظرية . ان ناجل يرى ، على عكس ما هو شائع ، ان نتعد موضوع الدراسة الاجتماعى وتدخل العامل الذاتى المتمثل فى الارادة الانسانية لا تمثل تبريرات كافية . وفى رايه ان الاهتمام يجب ان يركز على تعديل العبارات المستخدمة فى الدراسة الاجتماعية التجريبية وتعديل النظرية .

ان اللغة المستخدمة حاليا مأخوذة فى أغلب الأحيان من سياق الحياة اليومية الذى يدور حول مسائل اجتماعية ، ثم تستخدم هذه اللغة

(111) Ibid. p. 171.

في التعميمات التجريبية مع اعادة تعريف مبسط لمعناها . ويترتب على ذلك ان تكون العبارات المستخدمة في البحث الاجتماعى التجريبى محتوية على معان غير محددة . ومن هنا تنتهى الى تعميمات مكونة من احكام ذات علاقات احصائية بدلا من ان تتكون من علاقات ثابتة ومترابطة *invariable relations of dependence* . واقتراح ناجل هو تطوير التصنيفات لتصبح اكثر تعبيراً عن الظاهرة الاجتماعية . وذلك بهدف اقامة قوانين اجتماعية عامة (١١٢) .

اما عن النظرية الاجتماعية فيرى ناجل انه على الرغم من تغير وعدم ثبات الظواهر الاجتماعية الا انها من الممكن ان تندرج تحت نظرية عامة . ويحذر ناجل من ان تكون هذه النظرية هى عبارة عن نظرية للتطور التاريخى لتتابع حسبها المجتمعات والانظمة في سلسلة من التغيرات الحتمية . فمن الخطأ البحث عن نظرية اجتماعية عن طريق مجرد رصد لنمو الحضارات ثم انهيارها . وانما على النظرية الاجتماعية ان تكون مجردة تجريدا تاما حتى تستوعب كافة الاختلافات الحضارية في السلوك الانسانى . ومن الضروري ايضا ان تبتعد تصوراتها عن الاشياء المألوف وعن السمات البديهية في مجتمع ما ، وسوف تتضمن صياغتها استخداما لطرق متطورة ، اما عن طريقة تطبيقها على الاشياء الواقعية فنتحتاج الى تدريب معين من طراز متقدم . واهم شروط تكوين النظرية يتمثل في احتوائها على منهج لتقدير البداهة لا يعتمد على استبصارات ذاتية او حدوس شخصية (١١٣) . ومن الطبيعى ان نجد ان ناجل في النهاية يؤكد على كون هذه النظرية الاجتماعية امتدادا لنظريات العلوم الطبيعية من حيث منهج صياغة التصورات او تقدير البداهة ، فان ناجل يأخذ بالاتجاه الطبيعى في اطار فلسفة وضعية شاملة .

(112) Nagel. *Structure of Science* op . cit. pp. 506 - 8.

(113) E. Nagel, *Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences* in Natanson op. cit. p. 209.

وقام بوير (١٩٠٢ -) Karl popper باعتباره فيلسوفا طبيعيا ، وان كان تعرض بالنقد للوضعية كما سنرى فيما بعد ، قام ببيان ان التفسير العلمى او السببى لحادث معين هو استنباط قضية تصف هذا الحدث من نوعين من المقدمات : بعض القوانين الكلية ، وبعض القضايا المخصوصة او المعينة التى يمكن ان نطلق عليها « الشروط الاولى المعينة » . ولا يقبل هذا التفسير العلمى من الوجهة العلمية الا اذا كانت القوانين الكلية قد حازت مرحلة الاختبار او التأييد ، وكان لدينا ايضا بينه مستقلة تشهد بصدق العلة ، اى الشروط الاولى .

لقد طالب بوير كما طالب كافة الوضعيين بوحدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، ولذا اهتم بالنظرية لانه رأى ان عليه - مهام عديدة اهمها المساعدة فى توحيد العلم وفى تفسير الوقائع والتنبؤ بها . بل لقد خطى بوير خطوة اخرى بدعوته الى التثبت من النظريات فى مختلف مجالات البحث عن طريق اخضاعها لاقسى انواع الاختبار ، فيتبغى ان تحاول اكتشاف وجود النقص فيها ، وينبغى ان نحاول تكذيبها . وهذا هو السبب فى ان اكتشاف الشواهد المؤيدة للنظرية يكاد لا يكون له شأن الا اذا حاولنا اكتشاف ما يكذبها وفشلنا فى هذه المحاولة . ذلك اننا اذا لم نتخذ ازاء النظريات موقفا نقديا ، فسوف نعثر دائما على ما نريد : اى ننا سنبحث عما يؤيدها وسنجده ،، سنصرف النظر عن كل ما يمكن ان يهدد النظريات التى نفضلها فلا تقع عليه ابصارنا ، وهكذا يسهل الحصول على ما يبدو لنا انه بيئة هائلة على صدق نظرياتنا ، ولو نظرنا الى هذه النظريات نظرة تقديرية ليتبين لنا كذبها . واذن فاذا اردنا ان نضمن البقاء للنظريات الصالحة وحدها فعلينا ان نجعل كفاحها من اجل الحياة عسيرا . كل ذلك لا يصدق على العلوم الطبيعية وحدها ، بل يصدق ايضا على العلوم الاجتماعية . بل ان عجزنا من رؤية الاشياء قبل التفكير فيها يكون اكثر وضوحا فى العلوم الاجتماعية منه فى العلوم الطبيعية . ذلك لان معظم الاشياء

التي تدرسها العلوم الاجتماعية ، بل ان لم تكن كلها ، هي اشياء مجردة ، فهي مركبات نظرية . (ويصدق هذا الوصف على مفاهيم مثل « الحرب » او « الجيش » ، فهما مفهومان مجردان ، وان بدا ذلك غريبا لبعض الناس ، اما العنى فهم الافراد الكثيرين الذين يقتلون) . وهذه الاشياء او المركبات النظرية المستخدمة في تاويل التجربة ، قد نتجت عن تركيبنا للنماذج المعينة (وبخاصة نماذج النظم) بقصد الاستعانة بها في تفسير التجارب المعينة (١١٤) .

وقد أدرك بوير أنه لا توجد نظرية يمكن ان نقول عنها انها الحقيقة النهائية التي نضم كل شيء ، فكل ما يمكن ان نقوله ان الملاحظات التي نجربها تؤيد النظرية وانها تعطى تنبؤات درجة دقتها مرتفعة . وتظل النظرية قابلة لان تحل محلها نظرية افضل اذا توفرت (١١٥) . ان النظرية الاصلية تضع نفسها دائما محل مخاطرة ، والتكذيب Falsifiability هو معيار التمييز Criterion of demarcation بين العلم وما ليس كذلك .

وفي الواقع ان موقف بوير من التفسير في العلوم الاجتماعية يعد تطورا للاتجاه المنطقي ، فعلى الرغم من تاكيده على ضرورة استخدام النموذج الاستنباطي في التفسيرات العلمية بما فيها التفسيرات الاجتماعية ، فانه لم يجد تعارضا في القول ببناء نماذج لتفسيرات العلوم الاجتماعية اطلق عليها « المنهج الصفرى » Zero Method ويتكوين ما يسمى « منطق الموقف » في تفسيرات التاريخ .

(١١٤) كارل بوير : عقم المذهب التاريخي : ترجمة د. عبد الحميد

صبره ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٢ ، ص ١٦٤

(115) B. Magee, K. Popper . Glasgow : William Collins Sons

and Co. 1975 p. 28 .

وقد قام « المنهج الصفري » على فكرة بوير بأنه يوجد في معظم المواقف الاجتماعية ، ان لم يكن فيها كلها ، عنصر عقلى . نعم أن الناس يكادوا لا يعملون قط بما يطابق العقل تمام المطابقة ، ولكنهم مع ذلك يعملون بما يتفق والعقل في كثير أو قليل ، وهذا من شأنه أن يمكننا من تركيب نماذج بسيطة نسبيا تمثل افعالهم وتفاعلتهم ، وهذه النماذج يمكن استخدامها بوصفها صورا تقريبية للواقع . لقد وجد بوير أننا نستطيع في العلوم الاجتماعية ان نستخدم منهاجا يمكن تسميته بمنهج التركيب المنطقي أو العقلى ، أو « المنهج الصفري » . وهو منهج يقوم على تركيب النماذج بناء على افتراضنا المعقولة التامة (وربما افترضنا ايضا المعرفة التامة) في جانب كل الأفراد الذي يحتويهم موقف معين ، ثم نقدر انحراف السلوك الفعلى لهؤلاء الأفراد عن سلوك النموذج ، باعتبار هذا السلوك احداثيا قيمته صفر . ومن امثلة المنهج المقارنة بين سلوك الناس الفعلى (الخاضع ، مثلا لتأثير الاحكام السابقة الموروثة ، وما الى ذلك) وبين السلوك النموذجى الذى نتوقعه بناء على « منطق الاختيار البحت » كما تصفه المعادلات الاقتصادية (١١٦) .

وقد ذهب بوير الى التمييز بين العلوم التعميمية كالعلوم الطبيعية وعلم الاجتماع من ناحية وبين التاريخ من ناحية أخرى ، ففي مجال التاريخ نجد أنفسنا بأزاء « موضوع دراسة محدد » . والتفسير التاريخى - فى رايه - لا يستخدم كثيرا القوانين الاجتماعية والنفسية بقدر استخدامه « لمنطق الموقف » . وهذا يعنى أنه يفترض بجلاء ، بجانب الشروط الأولية التى تصف الاهتمامات الشخصية كالأهداف والعوامل الأخرى الموقفية مثل المعلومات المتاحة للدارس ، يفترض نوعا من التقريب الأولى ، أى القانون العام البسيط الذى يقوم على القول

بان الشخص السوى ، كقاعدة ، يتصرف بطريقة عقلية الى حد ما (١٥٧) .

واذا كان الوضعيون قد اتفقوا على ان النموذج الاستنباطى هو الشكل السليم للتفسير فى كافة العلوم كما اكدوا على اهمية النظرية الاجتماعية ، الا ان آرائهم تعددت حول القضايا العامة التى تفسر الظواهر فى ضوءها ، هل هى قضايا اجتماعية ام نفسية ؟ لقد رأى هومنز Georges Homans اننا لا نستطيع ان نفسر كل شئ ، لاننا لا نستطيع الحصول على معلومات كافية عن الظروف المحددة التى تطبق القضايا العامة فى ضوءها . وكل ما فى الامر هو اننا حين اننا نفسر (سواء فى التاريخ ، او فى الاقتصاد او فى علم الاجتماع) فان مبادئنا العامة تبدو على شكل نفسى . لقد قال هومنز بمبدأ « الفردية المنهجية Methodological individualism » وهو مبدأ يقوم على القول بأن العالم مكون من افراد تتحرك فى ضوء استعداداتها وفهمها للموقف . وكل موقف اجتماعى معقد او نظام او حدث ليس الا نتيجة لشكل او وضع معين للأفراد ، واستعداداتهم ، ومواقفهم ، ومعتقداتهم ، وامكانياتهم المادية واخيرا بيلتهم (١١٨) . وقد اعتبر هومنز ان القضايا الأساسية للعلوم الاجتماعية كلها واحدة وهى نفسية ، فاذا قبلنا هذا الرأى - على حد قوله - فسوف نجد ان النتائج التى توصلنا اليها فى كل علم على حدة ، من خلال مناقشة هذا العلم لشكلته الخاصة ، تساهم فى حل مشاكل العلوم الأخرى (١١٩) .

وقد اختلف بوبر مع رأى هومنز لأنه رأى مبدأ الفردية المنهجية ومبدأ المنهج الصغرى فى تركيب النماذج النظرية لا يستلزمان اتباع أى

(117) K. Popper . The Open Society and its Enemies, Vol. II, London : Routledge and Kegan Paul 1962, p. 464.

(118) Homans, G. op. cit. p. 61.

(119) Ibid. p. 23 .

منهج نفسى ، فعلم النفس والعلوم الاجتماعية الأخرى مستقلون ، حل بموضوعه المتمثل فى نوع معين من الوقائع التى تحتاج الى مجموعات مختلفة من التقارير العامة من أجل تفسيرها . وعلى هذا الأساس تكون العلوم الاجتماعية متحررة نسبيا من الاعتماد على الفروض النفسية ، وعلم النفس واحد من العلوم الاجتماعية وليس أساسا لها . وقد رأى بوير أن المذهب المعارض الذى يقول ببرد النظريات الاجتماعية الى علم النفس على نحو ما نحاول رد الكيمياء الى علم الطبيعة إنما هو مذهب يركز على فهم خاطئ . وفى استطاعتنا أن نقبل المذهب الفردى دون أن يضطرنا ذلك الى قبول المذهب النفسى (١٢٠) .

وهناك رأى ثالث يرفض كل من التقسيم والرد ويقول بعلاقة اعتماد متبادل بين القضايا النفسية والقضايا الاجتماعية . فالأنظمة الاجتماعية ، مثلا ، من الممكن أن تفسر أما فى ضوء أنظمة اجتماعية أخرى بالتوافق مع القوانين الاجتماعية ، أو تفسر فى ضوء أفعال فردية بالتوافق مع القوانين الخاصة بتفاعل الأفراد . كما سوف توجد عوامل اجتماعية وعوامل نفسية فى تفسير الأنظمة ، تماما مثلما توجد فى تفسير أفعال الأفراد (١٢١) .

وتعتبر المدرسة السلوكية Behaviorism فرعاً من الاتجاه الوضعى فى مجال علم النفس . ويقوم هذا الاتجاه على الاعتقاد فى أن البحث النفسى والاجتماعى يعتمد فى وصفه وتفسيره على الوقائع الملحظة ، وبالتالي على السلوك المادى للموضوعات التى يقوم بدراستها . وعلى هذا الأساس رفض السلوكيون منهج الاستبطان ، القائم على ملاحظة

(١٢٠) بوير : مرجع سابق ، ص ١٨٧

(121) Q. Gibson. The Logic of Social Inquiry . London : Routledge and Kegan Paul, 1960. p. 105.

الذات ، الذى ظل يحتل مكانة مرموقة فى علم النفس التقليدى فترة طويلة ، باعتباره غير علمى ونتائجه لا تخضع للاختبار . وفى مواجهة ادعاء المؤيدين للاستبطان بأن السلوك البشرى لا يمكن فهمه اذا نظر الى البشر باعتبارهم موضوعات طبيعية ، اكد السلوكيون على ان منهجهم يقوم على الخبرة وحدها . ولذا قاموا ببيان فساد منهج الاستبطان . فهذا المنهج يقوم على سؤال العميل عن تجاربه فى مواقف تجريبية ثم تؤخذ استجاباته على انها معلومات . وتقع هذه الطريقة - فى نظر السلوكيين - فى اخطاء . فعندما يفكر الفرد (العميل) فى سلوكه فلا بد له ان « يعقلها » ، وبالتالي يحرفها . ويختلف نوع التحريف مع نوع الخبرة ، ومع التوازن الشخصى للعميل ، ومع شروط البيئة . وينتج عن هذا ان تكون التنبؤات عن سلوك الافراد استنادا الى ما يقولونه عن انفسهم ، تكون فى العادة غير دقيقة (١٢٢) . وما دامت هذه التنبؤات غير قابلة للتحقق الذاتى ، فقد توصل السلوكيون الى ان العلم القائم على الاستبطان ليس علما حقيقيا ، لان من شروط القضايا العلمية ان تكون ممكنة الاثبات . وقد اثبتت الخبرة ان الملاحظة المنظمة لسلوك الحيوانات والاطفال فى ضوء مجموعة فروض بيولوجية وفسيولوجية تؤدي بنا الى تنبؤات للسلوك ممكن الاعتماد عليها . ويفضل هذا على مجرد سؤال الافراد عن تجاربهم الخاصة .

ويرجع اتجاه علم النفس الى المنهج السلوكى الى تأثيره بالتطور الداروينى فى البيولوجيا ، والى التفسيرات السببية الخاصة بتطور الاجسام فى علاقتها بالبيئة . وقد حاول السلوكيون ابتداء من واطسن واستمرارا مع نيل ميلر ، وسينمر ، وتولمان ، وسكينر وغيرهم تغيير علم النفس وجعله فرعا من العلم الطبيعى . وقد ايد هذه الحركة ودعا

(122) F. Kaufman. Methodology of the Social Sciences. New York : The Humanity Press 1938, p. 149.

بعض الفلاسفة المنطقيين أمثال كارناب وهمل - في بداية انتاجهم
الفكرى - بواسطة مبررات فلسفية ومنهجية .

ان اعتماد المنهج السلوكى على الملاحظة وحدها في دراسة السلوك
ادى به الى استبعاد الخبرات الداخلية للانسان باعتبارها ذاتية وخالية
من المعنى ، ولذا تخلصوا من فئة « الوعى او الشعور » *consciousness*
لغموضه وعدم قابليته للملاحظة . وقد رأى سكينر ان من المقبول ، في
المنهج العلمى ، كمبدأ عام ، تدخل الباحث بدرجة معينة في الظاهرة
اثناء ملاحظتها . وقد ينتج عن هذا التدخل تأثيرا على السلوك
فلا بد للباحث ان يأخذ هذا التأثير في الاعتبار ويحاول بقدر الامكان
الحد منه .

ويرى سكينر ان هناك تحكم في الشروط والظروف المتعلقة بالسلوك
البشرى في الصناعة على شكل مراتب وظروف عمل ، وفي المدارس
على شكل درجات وظروف عمل ، وفي التجارة بواسطة أى شخص يملك
البضاعة او النقود ، وفي العبادة النفسية على شكل موافقة الشخص
الخاضع لعملية التحكم . هناك اذن في العلوم الاجتماعية نسبة من التحكم
الفعال لا يمكن كشفها بسهولة تكمن في الكتاب والقائمين على اوجه
الترفيه ورجال الاعلام والاعلان . هذه الامكانية على التحكم تسمح
بامتداد نتائج العلم المعملى ليشمل تفسير السلوك البشرى (١٢٣) .

ويبين سكينر خطأ النظر الى داخل الكائن للبحث عن تفسير للسلوك
لان هذا يؤدى الى حجب المتغيرات . وهذه المتغيرات توجد خارج
الكائن ، في المحيط المباشر وفي التاريخ المحيط . وهى تملك كيانا واقعيًا
يسمح بتطبيق الوسائل العلمية عليها مما يجعلها قادرة على تفسير

(123) B. F. Skinner. *Is a Science of Human Behaviour Possible?*
in *Philosophical Problems of the Social Sciences* ed. by Brodbeck,
D. 1965, pp. 19 - 26, pp - 25 - 26 .

السلوك . ويضرب سكينر مثالا على فساد النظر الى الحالات او العوامل الداخلية من اجل تفسير السلوك : اذا قلنا ان شخصا ما يشرب الماء لشعوره بالظمأ وكان معنى الظمأ هو الميل الى الشرب فان هذا يعتبر تحصيل حاصل ، اما اذا قلنا انه يشرب بسبب حالة الشعور بالعطش فان هذا يعتبر اثارة لحادث سببي داخلى . فاذا كانت هذه الحالة الاخيرة استدلالية بحته اى لم يكن هناك وسائل تجعل الملاحظة المباشرة ممكنة فان هذا السبب لا يصلح كتفسير . اما اذا كانت هناك خصائص فسيولوجية او نفسية *Psychic* فاننا نمضى الى السؤال : ما هو الدور الذى من الممكن ان تلعبه فى علم السلوك (١٢٤) ؟ وهكذا يقوم سكينر وغيره من السلوكيين باستبعاد كافة التفسيرات الداخلية لمستقبلي فقط التفسيرات السببية الخارجية القائمة على الملاحظة المباشرة والتجربة المحدودة بأزاء السلوك الخارجى الظاهر ، وهكذا اصبح من الممكن تكوين مبادئ مفسره للأفعال الهادفة بواسطة عبارات سلوكية خالصة غير استبطائية .

ويطلق بوير على هذا المنهج اسم المنهج الفرضى الاستنباطى *hypotical deductive method* او منهج الفروض . وهو ذلك المنهج القائم على تقديم تفسيرات استنباطية سببية واختبارها عن طريق التنبؤ . والسبب فى وصف هذا المنهج بأنه فرضى يرجع الى أنه لا يقدم يقينا بالنسبة للأحكام العلمية التى يقوم باختبارها ، وانما تحتفظ هذه الأحكام دائما بالطابع الفرضى الخاضع للمحاولات على الرغم من ان المحاولات قد تتوقف بعد عديد من الاختبارات الصعبة (١٢٥) .

(124) B. F. Skinner. The Scheme of Behaviour explanations in Braybrook (ed.) op. cit. p. 44 .

(125) K. Popper. Unity of Method in the Natural and social Sciences in Braybrook (ed .) op. cit. p. 33 .

وقد مال بعض السلوكيين الى التطرف عندما رفضوا وجود ظواهر عقلية على الاطلاق ، فكانوا بذلك قريبين من النظرة المادية (١٢٦) . فلم يقنع هؤلاء بتبنى المنهج الطبيعي في علم النفس وانما مضوا الى القول بأن مهمة علم النفس تتمثل في دراسة السلوك الانساني والحيواني بدون النظر الى الحالات العقلية « الخاصة » ولو حتى كفروض تقع خلف المثيرات والاستجابات الملاحظة ، وقد برروا هذا الراى عن طريق انكار وجود اى موضوع « خاص » بعلم النفس وحده . هذا الشكل من السلوكية وتسمى السلوكية المختزلة *reductive behaviorism* ليست الا وجه آخر للمادية القديمة : فلا يوجد ما يسمى بالوعى أو الشعور وانما كل ما هنالك سلوك ، وميول للاستجابة على نحو معين تجاه مثيرات معينة ، واخيرا عمليات عقلية - فسيولوجية داخل الجسم الانساني والحيوانى . انهم لم ينكروا بالطبع الاختلاف اللفظى بين عقلى *Mental* ومادى *physical* الا انهم راوا ان العمليات والحالات العقلية ليست الا انواعا خاصة من العمليات والحالات المادية . ويسعى اغلب مؤيدى هذا الاتجاه الى تطوير نظريات تتضمن تعبيرات تشير الى حالات او عمليات فيزيائية او كيميائية او فسيولوجية . وهكذا يستبعدون النظريات النفسية التى ترمى الى تفسير السلوك الظاهر عن طريق الاشارة الى احداث « عقلية » - مثلا النظريات التى تجعل الميول « الذاتية » او الاهداف سببا للسلوك . وبهذا الشكل تكون السلوكية عبارة عن برنامج للبحث النظرى والتجريبى ، هدفه تحقيق نسق مدرك من اجل

(126) H. Feigl, *Comparative Methodology of the Natural and the Social Sciences in Philosophy* by R.M. Chisholm, H. Feigl, and W. K. Frankana, & others. New Jersey : Prentice Hall 1964, p . 523 .

تفسير السلوك الانساني عن طريق « رد » علم النفس الى علوم
اخرى(١٢٧) .

سادسا : نظرية نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية:

مما لا شك فيه ان اعجاب الوضعيين بالطفرة التى حدثت فى العلوم
الطبيعية كان له ابلغ الاثر عليهم مما ادى بهم الى اصفاء مكانة خاصة
على مناهج تلك العلوم . ومن هنا طالبوا بمنهج علمى واحد مشترك
بين كل العلوم بما فيها العلوم الاجتماعية . كما وضعوا العلوم الطبيعية
الدقيقة خاصة الفيزياء والرياضة كمثال اعلى منهجى يقيس درجة التطور
فى كل العلوم . واخيرا فقد اعتبروا كافة التفسيرات العلمية مسببة او عليّة
ممثلة فى خضوع الحالات الفردية تحت قوانين عامة مفترضة للطبيعة .

وفى الواقع ان المدرسة الوضعية تعرضت لتيار نقدى لم يسبق له
مثيل فى تاريخ الفكر الانسانى ، وقد تراوح هذا النقد بين التأييد
والمعارضة . ولا شك ان للوضعية جانبا ايجابيا تمثل فى رفض المسائل
الخاطئة ، والنظر الى الظواهر ودراستها كموضوعات محايدة محكومة
بواسطة قوانين عامة صادقة ، وذلك عن طريق دراسة الوقائع الموضوعية
على غرار ما هو متبع فى العالم الطبيعى وفى ضوء الضرورة الموضوعية .
لقد قامت الوضعية بشكل عام بتوجيه الفكر نحو موضوعات واقعية والارتقاء
بدور التجربة فى المعرفة . ومما لا شك فيه ان الوضعية قامت بتحطيم
كثير من الخيالات اللاهوتية واليتافيزيقية وساعدت على تقدم التفكير ،
خاصة فى مجال العلوم الطبيعية(١٢٨) .

(127) Nagel. Structure of Science op. cit. p. 480.

(128) P. Marcus . Reason and Revolution . London : Routledge
and Kegan Paul 1955 p. 326 .

وقد تعرضت الوضعية للنقد من الداخل ومن الخارج . فمن داخلها قام بوير بشن هجوم شديد عليها لدرجة ان كثير من فلاسفة العلم والعلماء اعتبروه خارج اطار الاتجاه الوضعى بل وأكثر من ذلك معارضا له (١٢٩) . وقد هاجم معيار التثبث لدى الفلاسفة الوضعيين ، فبهدف استبعاد الميتافيزيقا قام الوضعيون بايجاد مبدأ للتمييز criteria of demarcation بين التقريرات التى تخبرنا بشء والتقريرات التى لا تفعل ذلك . وانتهاوا الى نوعين من القضايا :

الأولى : خاصة بالمنطق والرياضيات ، وهى لا تعطى أى معلومات عن العلم التجريبي ، ويمكن الاقرار بصحتها دين الرجوع الى الخبرة .
والثانية : تقريرات تعطى معلومات عن العالم التجريبي ويمكن التثبث منها عن طريق الملاحظة .

وقد اقام بوير هجومه استنادا الى مجموعة من الحجج :

أولا : رأى بوير ان التقريرات المفردة يجوز التثبث منها ، اما التقريرات العامة فهى مثل القوانين العلمية ليست قابلة للتثبث ، وبالتالي فان معيار التمييز يقوم بهذا الشكل باستبعاد ليس فقط الميتافيزيقا ولكن ايضا كل العلم الطبيعى .

ثانيا : ان مبدأ التثبث اذان الميتافيزيقا كلها باعتبارها غير ذات معنى ، بينما نتبين تاريخيا ان العلم قد نشأ من الميتافيزيقا ، من التصورات الخرافية والأسطورية والدينية . والفكرة غير القابلة للاختبار

(١٢٩) وفي الواقع اننا فى هذه الدراسة نظرنا الى الفيلسوف كارل

بوير باعتباره امتدادا لتطورا للاتجاه الوضعى فى شكله الطبيعى . naturalism

حاليا وتعتبر ميتافيزيقية قد تصبح قابلة للاختبار وتصبح علمية حينما تتغير الظروف الموجودة . وحتى في حالة عدم خضوع هذه النظريات للاختبار فانها تظل قابلة للمناقشة والمفاضلة فيما بينها .

ثالثا : اذا قلنا مع الوضعية ان التوكيدات القابلة للاختبار ، والتي هي تحصيل حاصل ، تعتبر وحدها ذات المعنى ، فان اى مناقشة عن تصور « المعنى meaning » لا بد بالتالى ان تحوى تقريرات لا معنى لها (١٢٠) .

لذا قال بوير بوجود عوالم ثلاث : الاول موضوعى ، وهو خاص بالاشياء المادية ، والثانى ذاتى ، وهو مكون من العقول minds والثالث مكون من ابنية موضوعية ، وهذه الابنية وان كانت نتاج للعقول والكائنات الحية الا انها تستمر مع ذلك مستقلة عنها . ويعتبر هذا العالم الثالث هو عالم الأفكار ، والفن ، والعلم ، واللغة ، والأخلاق ، والأنظمة (١٣١) .

ويرى النقاد ان العلم الاجتماعى الوضعى لم يتجاوز المرحلة التخطيطية ، حقيقة ان الوضعيين اهتموا باللغة وقدموا دراسات قيمة عن لغة العلوم الاجتماعية ، ولكن هذا الاتجاه ، وان كان هاما لكونه يتيح ادوات للدراسات الانسانية ، الا انه لا يتضمن تطبيقا لتلك الادوات (١٣٢) . وحقيقة انهم حددوا المهام العلمية للنظرية في التفسير الاجتماعى ، الا ان تركيزهم انصب على النظرية بشكل عام ، فلم تتحدد بالنسبة للموضوعات الخاصة بالعلوم الاجتماعية . لقد كان منطلقهم الاساسى هو اشتراك مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية في نفس

(130) Mageee op. cit. p. 47 - 48 .

(131) Ibid p. 80.

(132) Kolakowski , op. cit. p. 223 .

المنهج ، وبالتالي لم يروا ضرورة لمناقشة النظرية الاجتماعية بمعزل عن النظرية الفيزيائية : فما يقال عن الأخيرة ينطبق بطريقة بعدية على الأولى . ولما كانت نظريات العلوم الفيزيائية أكثر تطوراً أو تعقيداً من نظريات العلوم الاجتماعية فإن مناقشة طبيعة النظرية تركز فيما يعتقدون على النظرية الفيزيائية . وإذا تناولوا النظرية الاجتماعية بالنقاش على حدة فلمجرد بيان عيوبها في ضوء المثل الأعلى الطبيعي ، وذلك بدلا من مناقشتها في سياقها الخاص .

وفي محاولة الوضعيين لكي يصبحوا علميين تبنا كافة أساليب البحث العلمية وادعوا صلاحيتها لدراسة السلوك الانساني . ومن هنا استخدمهم للملاحظة والتجربة والطرق الاحصائية ، كادوات رئيسية في متناول الباحث . الا ان الاعتماد الكامل على المعطيات *data* كمصدر للمعرفة يؤدي الى افقارها ، اما عن عدد الفروض التي سوف يكون على الباحث اختبارها فلن يتوقف عند حدود معينة . ويضاف الى ذلك صعوبة اجراء التجربة في المجال البشرى . ذلك أن الشخص الذي تجرى عليه التجربة (المستجيب) يقوم بدوره بتصميم للتجربة مثله في ذلك مثل الشخص القائم عليها تماما ، بحيث نجد أن كل محاولة تجريبية تصبح فريدة . فيؤدي ذلك بالتالى الى استبعاد الطرق الاحصائية المقتنة . وإذا حاول القائم على التجربة ان يمنع المستجيبين من وضع تصوراتهم الخاصة فان الموقف يصبح غير صالح للدراسة ، ذلك أن الباحث لم يعد يطبق تجربته على بشر ، لأنه يتدخله في الموقف استبعاد العنصر الانساني تماما (١٣٣) .

وفي الواقع ان المنظور الوضعي قد اغفل جانباً هاماً في الدراسات

(133) C. W. Churan. On the Unification of the Social Sciences . Proceedings of the Fourth International Conference on the Unity of the Sciences. 1975 New ork pp. 101 - 110 , p. 102.

الانسانية هو موضوع التفاعل . فنلاحظ ان الطريقة التجريبية في البحوث الاجتماعية والنفسية قد ادت الى ترك مسائل هامة في قيمتها بالنسبة لفهم النشاط الاجتماعى وتوجيهه . ومن هذه المسائل جانب العمليات الاجتماعية والنفسية التى تحدث حين يتم تغير كى أو كىفى في ظاهرة اجتماعية ، أو حين تقوم علاقات بين متغيرات في مواقف اجتماعية .

وإذا كان المنهج العلمى فى العلوم الطبيعية يقتنع بايجاد علاقات في صورة قوانين معينة ، دون اهتمام بما يتم اثناء تفاعل هذه العلاقات ، فان ذلك من الأمور الجوهرية فى العلوم الاجتماعية . كيف تحدث العلاقات ، وكيف يتم التغير ، وما هى العمليات التى جرت حتى حدث ما حدث ؟ هذه اسئلة جوهرية فى الدراسات الاجتماعية والنفسية وتمثل عمليات النسيج الاجتماعى والصياغة النفسية لخامات الحياة (١٣٤) .

وقد هاجم فيلسوف العلم ونش Peter Winch الاتجاه الطبيعى . فعلى حين قبل النظرة الوضعية للعلم الطبيعى بشكل عام والفيزياء بشكل خاص فى القرن ١٩ ، فانه رأى على العكس ان تفسيرات الأفعال الإنسانية لا يمكن ان تكون آلية او ميكانيكية ، كما انه لا توجد قوانين حتمية للأفعال الإنسانية او لنتائجها (وهى الأنشطة الابداعية) نستطيع عن طريقها التنبؤ بهذه الأفعال (١٣٥) .

الا ان نقد ونش للوضعية يغفل اتجاه كثير من التجريبيين المنطقيين والطبيعيين الى ادخال العوامل الإنسانية كالأهداف والدوافع النفسية ، وان لم يجعلوها وحدها العوامل الرئيسية - فى التفسيرات الاجتماعية .

(١٣٤) حامد عمار : المنهج العلمى فى دراسة المجتمع (وصفه وحدوده) القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨ ، ٤٩

(135) P. Winch. The Idea of a Social Science. Quoted in Geidymn op. cit. p. 245.

ولقد رأينا كيف أن بوبر بقوله « بالمنهج الصفري » في العلوم الاجتماعية و « بمنطق الموقف » في التاريخ قد ادخل أهداف الفرد في التفسير . وذلك مع تأكيد على النموذج الاستنباطي وحرصه على بيان أن الظواهر الاجتماعية لا تفسر كلها في ضوء الأهداف والدوافع والميول .

وكما تعرضت المدرسة الوضعية للهجوم كان من الطبيعي أن تتعرض المدرسة السلوكية للنقد . فعلم النفس السلوكي وإن كان قد نجح في كشف قوانين سببية واحصائية عن السلوك الانساني والحيواني إلا أن إغفاله للحالات الواقعية التي قام الاستبطان بكشفها ، بحجة أن الأجسام وحدها هي محدّدات السلوك الصريح ، ليس له أي مبرر فلسفي .

والسلوكية باعتبارها نظاما موضوعيا هاما في العلوم الاجتماعية تضع كهدف رئيسي تفسير ما يحدث بالفعل في العالم الاجتماعي لحياتنا اليومية ، تفسيراً يقوم على طرق علمية صحيحة . إلا أن عيب هذه النظرية تظهر في إحلال عالم خيالي مكان الحقيقة الاجتماعية وذلك عن طريق تطبيق مبادئ منهجية على العلوم الاجتماعية . هذه المبادئ وإن كانت قد تأكّدت فاعليتها في مجالات أخرى ، إلا أنها تفشل في مجال التواصل أو العلاقة بين الذات intersubjectivity لذلك يرى شوتز Schutz ضرورة الاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية للتوصل إلى نظرية للفعل ، بدونها تفقد النظرية أسسها الرئيسية . فالاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية هو الضمان الوحيد والكافي بأن العالم الاجتماعي الواقعي باقٍ ولن يحل محله عالماً آخر خيالياً غير موجود ، قام الملاحظ العلمي ببنائه (١٣٦) .

أن البرنامج الذي يهدف إلى ردّ أو اختزال العمليات النفسية

(136) A. Schutz . The Social World and the Theory of Social Action in Braybrook (ed.) op. cit. p. 55

الخاصة بالتفكير والاختيار والاحساس ... الخ الى العمليات
 الفسيولوجية ، يثير هذا البرنامج مشكلات او صعوبات . الصعوبة الأولى
 تنشأ عن عدم انتماء التعبيرات المستخدمة في الوصف النفسى الى نفس
 المقولة المنطقية الموجودة . في النظريات الفسيولوجية او الفيزيائية عن
 الأحداث النفسية . وترجع الصعوبة الثانية الى ان هذا الوصف ، لما
 يقوم به الشخص او يفكر فيه او يحس به ، يحتوى على طرق أخرى
 لادراك الأحداث تختلف عن الطرق الفسيولوجية والفيزيائية ، ويمثل
 هذا عقبة امام رد التقارير النفسية - او اليومية - للسلوك الانسانى
 الى تقرير سببى للأحداث بواسطة تعبيرات فسيولوجية . وتمثل الصعوبة
 الثالثة في الطريقة التى يتم بها التعرف على الأحداث النفسية . فهى
 طريقة مختلفة عن الطريقة التى نتعرف بها على أحداث
 فسيولوجية (١٣٧) . وفي الواقع ان الاتجاه السلوكى عجز بالفعل عن
 التوصل الى ترجمة التقارير النفسية الى لغة الفيزياء ، وكل ما فعله
 هو انه قام بترجمة تلك التعبيرات الى لغة الحياة اليومية .

الا انه كما طرأت تطورات على الاتجاه الوضعى الطبيعى فقد
 طرأت تطورات مشابهة في الاتجاه السلوكى . فلا نجد حالياً علماء نفس
 أو علماء اجتماعيين ، ممن يتبنون الاتجاه السلوكى ، يخضعون للاتجاه
 التقليدى للسلوكية القائم على الادانة الكاملة لمنهج الاستبطان . وانما
 نجد ان السلوكيين المعاصرين يقبلون التقارير الاستبطانية ، التى يقدمها
 الأشخاص الخاضعون للتجربة ، باعتبارها استجابات لفظية قابلة
 للملاحظة تحت شروط معينة ، وليس باعتبارها حالات نفسية خاصة .
 وبالتالي فان التقارير الاستبطانية تأخذ مكانها ضمن المعلومات
 الموضوعية التى تقوم عليها التعميمات . وقد تطور السلوكيون أكثر

(137) A. Ryan, The Philosophy of the Social Sciences. London:
 Macmillan Co. Ltd. 1970, p. 105.

من هذا عندما قاموا ، منطلقين من اطار منهجى اكثر تحررا ، بدراسة موضوعات فريدة عن السلوك الانسانى ، مثل التعليم ، وحل المسائل ، وكذلك موضوعات اجتماعية ، مثل الاتصال ، والقرارات الجمعية ، والتماسك الجمعى . وقد اقترحوا لذلك طرقا خاصة لدراسة الظواهر المعقدة ، طرقا تختلف عن بعضها البعض ، وتختلف عن الطرق المستخدمة من جانب السلوكيين الأول . الا أن هذه الطرق ، على الرغم من جدتها ، لم تستطع التوصل الى تفسير لمدى السلوك الانسانى بأكمله . لذا تستمر السلوكية ، مثل كافة المدارس المعاصرة فى علم النفس ، فى كونها برنامجا للبحث يؤكد على الاعتبارات المنهجية اكثر منها مدرسة تدبى بنظرية دقيقة مستقلة . ولا يشير التعبير « سلوكية » فى الوقت الراهن الى اى دلالة مذهبية محددة ، وانما يتمسك السلوكيون بهذه التسمية كتعبير عن اهتمامهم بالعطيات الموضوعية ، والقابلة للملاحظة عن طريق التواصل intersubjectively (١٣٨) .

ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن الاتجاه الوضعى الا أن نؤكد مع همبل أن تقييم هذه الاتجاه لا بد الا يتركز على الوسائل الطبيعية المبسطة التى قام مؤيديه باستخدامها ، وانما على الدراسات المنطقية والمنهجية المفصلة . ومن واجب كل من يقيم هذا الاتجاه ان يفحص معايير الوضوح والشدة كما تعرضها تلك الدراسات ثم ما قدمته من اثاره للاخرين ، وانخيرا الضوء الذى ركزته على القضايا الفلسفية . فاذا ما تم الحكم على الاتجاه الوضعى من هذا المنطق فسوف نجد انه قد شكل تأثيرا قويا ومنجبا على الفلسفة المعاصرة (١٣٩) .

* * *

(139) Nagel. Structure of Science op. cit. p. 477.

(139) Hempel. Logical Positivism in the Social Sciences op. cit. p. 104.

الفصل الرابع

« الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم الذاتى »

تمهيد : ما هى الفنونولوجيا •

اولا : اتجاه فيلهلم دلتاي ونظريته الى التفسير •

ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظريته الى التفسير •

ثالثا : اتجاه آدموند هوسول ونظريته الى التفسير •

رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظريته الى التفسير •

خامسا : نظرة نقدية الى الفنونولوجيا •

تمهيد :

يشترك التعبير فينومولوجيا phenomenology من كلمة
phainomenon (وهى مكونة من كلمتين phainomai
اى يظهر ، و logos اى عقل) ، وهدفها هو دراسة الخبرات بقصد
اظهار ماهياتها او العقل المخفى وراءها (١) . ويجب الا نخلط بين
هذا الاتجاه واتجاه آخر طبيعى يدعى rhenomenalism
يقوم على القول بان المعرفة محدودة بالمعلومات التى تقدمها الخبرة ،
وبالتالى فان الذى يبحث عن المعرفة فى هذا المذهب لا يلجأ الى التعالى
عن عالم الظواهر اى هو المذهب الذى يسلم بالخبرة المباشرة بالواقع
التجريبى (٢) . هذا بينما الاتجاه الفينومولوجى ، على الرغم من قيامه
على الاستقصاء المستمر للخبرة . الا انه يقصد من وراء ذلك الوصول الى
عالم الماهيات .

وتقوم الفينومولوجيا بشكل عام على تبني صريح او متضمن للمنهجين
التاليين :

اولا : الحدس insight المباشر كمصدر وكاختبار نهائى لكل
معرفة .

ثانيا : الاستبصار induction داخل الابنية الاساسية ،
كامكانية اصلية وكحاجة للمعرفة الفلسفية .

(1) Edo Pivcevic Husserl and Phenomenology London :
Hutchinson University Library 1970 p. 11.

(2) R. B. Macleod . Phenomenology in D. L. Sills (ed.)
International Encyclopedis of the Social Sciences . Macmillan
Co. and The Free Press 1968 pp. 68 - 71. p. 68.

وتوجد بعض المحاولات التقليدية السابقة التي قد تعتبر سوابق للفنومولوجيا مثل فلسفة القديس أغسطين . اما الحركة الحديثة فبتبدأ مع ديكرت ، ويتضمن منهجه تعليق كل المعتقدات وقبول الأفكار التي تتبدى بوضوح وتميز الى حد استبعاد أى شك واعتبارها أفكارا صادقة . وعلى الرغم من ان تفرقة كانط لعالم النومين وعالم الفنومين تقوم على تحليل فنومولوجى ، الا ان الاستخدام الذى جاء بعده للتعبير فنومولوجيسا (مثلا عند هيجل) ثم استخدمه فى العلوم ليعنى أى شئ قابل للملاحظة ، هذه الاستخدامات لا ترتبط بالمعنى الذى نقصده . وفى الواقع ان فنومولوجيا هوسرل ترجع الى ديكرت كما تأخذ عن التحليلات النفسية لوليم جيمس (١٨٩٠) كما تأخذ عن برنتابى (١٨٧٤) خاصة نظريته عن القصدية intentions.ity (٣) . والسبب فى كوننا قد استبعدنا تأثير فكر هيجل على هوسرل هو ان هيجل ، على الرغم من تأكيده على اولوية الوعى او الذاتية كنقطة بداية للنسق الفلسفى ، وعلى الرغم من اصراره على اعتبار الفلسفة علما ، لم يقم الفنومولوجيا فى نسقه الاولى على منهج محدد . لقد اقام ما يسمى بمورقةولوجيا الوعى الذى يمكن التوصل اليه دون تطبيق لمذهب فنومولوجى جديد . وبالتحديد ، لا يوجد عند هيجل أى ذكر لتعليق الحكم كما نجد فى « نزعة الرد » عند هوسرل . كما لا توجد لديه أى اشارة صريحة الى المنهج الحدمى ولا أى اهتمام بالاستبصار داخل الابنية الأساسية (٤) .

ويعتبر الاتجاه الفنومولوجى منهجا للتحليل الفلسفى اكثر منه مدرسة أو نظاما بالمعنى التقليدى . فالقول بأنها مدرسة يعنى وجسود

(3) Loc, Cit.

(4) H. Spiegelberg . The Phenomenological Movement. A historical Introduction. The Hague : Martinus, Nijhoff. 1969, p.

مبادئ وقواعد ثابتة تسمح لنا أن نجيب بوضوح عن السؤال : ما هي الفنونولوجيا ؟ بينما في واقع الأمر أن الفلاسفة الفنونولوجيين قد تميزوا بتفردهم وتميزهم . لذلك فإن منهجنا في دراسة هذا الاتجاه سوف يقرم على تتبع نمو الفكر الفنونولوجي لدى الفلاسفة الألمان أمثال هومرل ودلتاي وفير وشوتز وكما تطور لدى الفلاسفة الفرنسيين الوجوديين مثل مارتير وميرلوبونتي . وسوف نحاول في هذا التمهيد التعرف بشكل عام على الأفكار الرئيسية لهذا الاتجاه .

لقد نشأت الفنونولوجيا بشكل فعال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويرجع هذا الى الظروف التي كانت موجودة في الحقل الفلسفي في هذا الوقت . وتتضح هذه الظروف في العوامل التالية :

١ - تدهور الفلسفة التأملية وانهارها .

٢ - التطور الضخم في العلوم الطبيعية وكذلك في العلوم التاريخية مما ادى الى نمو اتجاه تاريخي نسبي .

٣ - النجاح المحدود والمؤقت للجهود التي تهدف الى بناء تركيبات على الاسس العلمية الجديدة كما نجد لدى هرمان لوتز وفونت ، وهربرت سبنسر .

٤ - المحاولات القوية من جانب العلوم الطبيعية لكي تتولى بنفسها المهمة السابقة عن طريق المادية والنزعة الواحدية monism .

٥ - المحاولات الناجحة للوضعية في أوروبا وخاصة انجلترا للسيطرة على ما تبقى من الفكر التأملى واستبداله بالدراسة « العلمية » للظواهر المعطاء .

٦ - وجود جهود أخرى مرتبطة بالسابق تهدف الى تحويل الفلسفة

الى فرع من علم النفس ، مما ادى بعد ذلك الى تطور ما سمي بالنزعة النفسية المتطرفة Psychologism .

٧ - المحاولات المتكررة من اجل احياء مراحل تاريخية سابقة مثل الكانطية المحدثه والتوماوية المحدثه Neo - Thomism .

وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة ظهور ازمة فى الاتجاه الفلسفى: فالفلسفة تواجه تهديدا من الخارج بسبب فقدانها لوضعها المتميز مما جعلها غير واثقة من دورها الحالى . فاصبح على الفلسفة اما ان تحاول اللحاق بالعلم او الحفاظ على مستوى مساو للعلم ، او كاحتمال ثالث محاولة البحث عن اساس جديد بالرجوع الى مواقف سابقة . وهنا ظهرت الثورة الكبرى التى احدثتها الفنونولوجيا فى عالم الفلسفة وذلك حينما اكتشف منذ البداية ثراء مفهوم « الدلالة » significance فحاولت الفنونولوجيا ان تضع « فلسفة المعنى » فى مقابل فلسفة التفسير بالعللة (٥) .

وقد تركز الاتجاه الفنونولوجى ، فى الفترة الاولى ، فى المانيا وخاصة فى المرحلة الزمنية السابقة على الحرب العالمية الثانية ، ثم انتقل الى اجزاء اخرى من العالم ابتداء من عام ١٩٣٥ .

ودار اهتمام الفنونولوجيين حول ما هو مثبت بذاته ويدهى وهنا يظهر تأثير ديكارت الذى اصر على استبعاد التصورات القبيلة المسبقة معتمدا فقط على ما ندرك انه حقيقى . وقد رأى الفنونولوجيون ان المنهج الفنونولوجى قادر على التوصل الى اساس المشاكل وتفسير نشاتها ومعناها . والتفسير الفلسفى يختلف عن التفسير فى العلم الطبيعى فى كونه يمتلك خاصية هامة هى عدم وضعه لافتراضات تحتاج هى نفسها الى

تفسير (٦) . ويترتب على هذا قولهم بضرورة استبعاد الافتراضات الأولية الميتافيزيقية ، وهم فى هذا يشتركون مع الوضعيين الا ان الوضعيين يريدون هدم الميتافيزيقا تماما بينما يرى كثير من الفنومولوجيين امكانية اقامة اساس سليم تقوم عليه ميتافيزيقا جديدة . ولا نستطيع القول بان هناك اجماعا من الفنومولوجيين حول هذا الموضوع ، وانما يقوم الاجماع فقط على رفض الدجماتيقية او الجمود الميتافيزيقى الذى يقوم على قبول صريح او ضمني لبعض القضايا الميتافيزيقية التى لم تفسر او تبرر بطريقة سليمة . ولذلك بدأت التحليلات الفنومولوجية من الخبرات الواقعية استنادا الى ما هو اسامى ورثيسى فى هذه الخبرات دون الاعتماد على اى افتراضات جامدة او تحيز ميتافيزيقى (٧) .

يقوم اذن الهدف الاول لهذا الاتجاه الجديد على توسيع وتعميق خبرتنا المباشرة ، وذلك عن طريق الاهتمام بالظواهر بشكل اكثر عمقا من النزعة التجريبية التقليدية ، مع مراعاة القيام باستبعاد تام للتصورات والاحكام المسبقة اى الانماط المعتادة للتفكير . ويعتبر « مبدأ البساطة » احد التصورات المسبقة التى ترفضها الفنومولوجيا وتأخذ على العلم الحديث البدء بها مما ينتج عنه الانتهاء بتعبير محدود عن التصورات العلمية . فمبدأ البساطة يدعى انه يزودنا بصورة فريدة وكاملة عن الواقع بينما هو ينتهى الى تضيق مجال الخبرة (٨) .

ويتضمن المنهج الفنومولوجى فى بحثه للظواهر المحددة particulars ، ثلاث خطوات رئيسية هى الطور الحدسى ، والطور التحليلى ، والتطور الوصفى . ويعتبر الطور الحدسى عملية قائمة فى

(6) Pivcevic op. cit. p. 13.

(7) Ibid. p. 17 .

(8) Spiegelberg . op. cit. p. 585 .

التركيز على الموضوع بدون الاندماج فيه حتى لا نفقد النظرة النقدية اليه . وتعتمد هذه العملية على ملاحظة الظاهرة ، وأحيانا المقارنة بينها وبين الظواهر الأخرى المرتبطة بهدف تسجيل التشابهات والاختلافات توصلا الى ادراك تميز الظاهرة موضع الدراسة عن غيرها . وثار فى هذا الصدد مشكلة ما اذا كانت الفنونولوجيا تتناول الظواهر الذاتية دون غيرها عند حديثها عن الظواهر المحددة ، وهناك اعتقاد شائع فى ان الفنونولوجيا ليست الا دراسة لظواهر ذاتية وتمثل رده الى علم النفس الذاتى ان لم يكن وقوعا فى منهج الاستبطان (٩) الا ان الأمر فى الواقع ليس كذلك ، فالمفهوم « ذاتى » يستخدم فى الفنونولوجيا بطريقة متميزة .

فهو :

اولا : لا يعنى ما يمكن التوصل اليه عن طريق منهج الاستبطان لأن الأوصاف التى تقدمها الفنونولوجيا لا تتناول فقط جانب الخبرة المتضمنه فى افعال الشخص وميوله - كما تتضمن فى انعكاساتها عليه - وانما تتناول مضامين أفعاله باعتبارها موضوعات لخبرته بدون الحاجة الى انعكاس *reflective turn* .

ثانيا : لا يعنى مفهوم « ذاتى » الملاحظات الذاتية التى يعبر عنها الأشخاص الذين يقومون بالملاحظة ، ويتصفون بقلّة الخبرة ، فالفنونولوجيا تتعارض مع مثل هذه « الذاتية » لأن الحدس والرصف يحتاجان الى درجة من الضبط *aptitude* والمران والنقد الذاتى الواعى .

ثالثا : لا يعنى مفهوم « ذاتية » تلك الذاتية المعبرة عن خصوصية الظواهر ، فكل الظواهر هى ظواهر خاصة سواء كانت فى مرحلة عامة او مشتركة مع الأخرى . ولا يوجد ما يدعو الى الشك فى أن الظواهر

(9) Ibid. p. 666 .

المتعلقة بالحدث الفنونولوجى هى ظواهر مشتركة ، فهناك ما يؤكد حدوث هذه المشاركة فى حالات كثيرة وان لم يوجد ما يضمن أن هذا سوف يحدث دائما .

رابعا : لا يتعارض مفهوم « الذاتية » فى الفنونولوجيا مع الاتجاه القائم على الاعتماد على الخبرة المباشرة . فكل خبرة هى أساسا خبرة ذاتية لأنها خبرتنا الخاصة .

ونخلص من هذا كله أن المفكر أو العالم الفنونولوجى يتناول ظواهر موضوعية بطريقة لا تقل أو تزيد عن أى معرفة تجريبية أصيلة . فإذا اختلفت عنها فذلك لأن الفنونولوجيا تقبل فى البداية الظواهر دون التساؤل عما إذا كانت هذه الظواهر ذاتية أم موضوعية . فإذا ما اتضح أنها ظواهر ذاتية فإن هذا سوف يظهر فى الوقت المناسب دون الحاجة الى استبعادها اعتمادا على مجرد شك (١٠) .

أما بالنسبة للتحليل الفنونولوجى فهو خطوة لا تنفصل عن كل من الحدس أو الوصف . إلا أنها تستحق اهتماما خاصا لأنها توضح العلاقة بين الفنونولوجيا ومختلف الأنظمة التى تتبنى اسم التحليل المنطقي أو الفلسفى . أن هذه الأنظمة تقوم على تحليلات لبعض التعبيرات اللغوية بهدف كشف بعض التعبيرات المساوقة لها والتى تتكون من عدد أقل من التعبيرات وتملك بناء أبسط وذلك لاحتلالها محل التعبيرات الأصلية . أما التحليل الفنونولوجى فهو بعكس السابق لا يهتم أساسا بالتعبيرات اللغوية ، قد يحدث أحيانا أن يبدأ الفنونولوجى من بعض الجمل المتميزة ويحاول تحديد معناها وكشف ما يشوبها من غموض ، ولكن هذا التحليل المبدئى ليس إلا اعدادا لدراسة الظواهر التى تشير

(10) Ibid. pp. 667 - 68.

اليها التعبيرات . فالتحليل الفنومولوجى هو تحليل للظواهر نفسها وليس للتعبيرات التى تشير اليها(١١) .

وتصاحب خطوة التحليل خطوة اخرى هى الوصف الفنومولوجى . ويحدث لحيانا ان يبالغ فى هذه الخطوة الى درجة وصف الاتجاه الفنومولوجى كله بأنه علم وصفى . ولا شك انه توجد خطوة مؤكدة فى البدء بوصف الظواهر قبل فحصها حدسيا وتحلييا . وهذا ما تقع فيه الفنومولوجيا لحيانا عندما تبادر بالوصف قبل التأكد من الشيء الذى تصفه ، فالوصف اساسا تنبؤ والتنبؤ كما بينت الفنومولوجيا يفترض خبرة سابقة عليه ، وتستحق هذه الخبرة الاهتمام منذ البداية . ويؤسس الوصف الفنومولوجى على تصنيف الظواهر ، ويفترض الوصف اطارا مكونا من قوائم للمجموعات classes ، وكل ما على الوصف ان يفعله هو ان يحدد مكان الظاهرة بالنسبة لنسق من المجموعات الموجودة من قبل . واذا كان هذا يعتبر ملائما بالنسبة للظواهر المالوفة فان الظواهر الجديدة أو الجوانب الجديدة من الظواهر القيمة تحتاج الى افتراض اطار من المجموعات أكثر اتساعا تجد بداخله تشابه بنائى بينها وبين ظواهر أخرى . ويتميز الوصف الفنومولوجى بصفة خاصة بأنه وصف انتقائى لأنه من المستحيل التوصل الى كل الخصائص المميزة لظاهرة ما خاصة الخصائص التى تربطها بالظواهر الأخرى . ويعتبر الانتقاء ميزة بجانب كونه ضرورة : فهو يجبرنا على التركيز على الخصائص الجوهرية والتجريد من الخصائص العرضية غير الجوهرية ومن هنا يتضمن الوصف الاهتمام بالماهيات(١٢) .

ان الوصف الفنومولوجى يقوم على كيفية تصدى البشر للظواهر التى تتبدى فى الشعور او الوعى وكيف يتأثرون بها . ويأتى اهتمام

(11) Ibid. p. 669 .

(12) Ibid. p. 672.

الفنومولوجيا بالذاتية من البحث داخل الوعي ، وعن طريقه ندرك ما هو خارج الذات فمستطيع ان نوجه سلوكنا نحو الواقع الخارجى غير الذاتى . ان الوعي هنا ليس شيئا سلبيا اى مجرد متلق للمثيرات ، وانما هو عبارة عن الذات فى ذاتيتها متجهة الى الخارج اى ممتدة بنفسها تجاه الأنشطة . وبالتالي اذا كان فعل او نشاط الوعي هو دائما وعيا بشئ ما (ما يمكن تسميته بمسئلة القصيدة) فاننا نستطيع القول ان كل موضوع هو موضوع بالنسبة لشخص ما (ما يمكن تسميته بمسئلة الذاتية subjectification) . ويتضمن هذا ان يأخذ الكيان المعطى او الظاهرة - سواء كانت حدثا سياسيا او شخصيا - معان مختلفة . يمكن ادراكها بطرق مختلفة حسب الأشخاص ، اعتمادا على وجهة نظرهم وعلاقتهم بالكيان او الظاهرة المثارة . ليس الموضوع اذن محددًا من الخارج ولكنه كيان ومجموعة معان يضيفها الشخص عليه . ويمثل هذا الكيان بمعانيه « الموضوع » بالنسبة للشخص (١٣) .

وتحرص الفنومولوجيا على الاهتمام بالماهيات العامة wesensschan الى جانب اهتمامها بالظواهر المحددة . ولا يوجد حدس سليم للماهيات دون حدس سابق للظواهر المحددة ، وقد تكون هذه الظواهر معطاة عن طريق الادراك الحسى او عن طريق الخيلة ، او بواسطة الاثنين معا . ويجب من اجل فهم الماهية ان ننظر الى هذه الظواهر باعتبارها أمثلة او شواهد تقوم مقام الماهية العامة ، اى ان حدس الظواهر المحددة يعتبر خطوة ضرورية من اجل فهم الماهيات العامة .

(13) E. A. Tiryakian . Sociology and the Existential Phenomenology in M. Natanson (ed.) Phenomenology and the Social Sciences Vol. I. Evanston : North Western Univ . Press. 1973 pp. 187 - 222 , p . 195 .

ان الجانبين الرئيسيين فى الفنونولوجيا هما « الوعى » و « العالم » ومهما اختلف الفنونولوجيون فيما لا شك فيه أن هدفهم الأساسى هو وصف وتحليل الوعى الانسانى . ويتضمن هذا المشكلة العامة التى تقوم على السؤال : كيف يتكون الوعى من مختلف اشكال القصيدة ؟ أى ان السؤال الرئيسى هو : ماذا نفعل لكى نختبر الأشياء داخل ذاتيتنا وكيف نستطيع كفينومولوجيين أن نتوصل الى الرد على السؤال التالى : كيف ينبى الواقع وكيف يدرك فى افعال الوعى ؟ (١٤)

وقد ميز الفنونولوجيون بين مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية من نواحي عدة ويعرض لنا ابل Abel هذا التمييز :

أولا : يمكننا بالنسبة للعلوم الطبيعية التثبت من الفرض عن طريق التجربة بينما لا يمكن اللجوء الى التجريب فى مجال العلوم الاجتماعية .

ثانيا : يمكننا تكرار التجارب فى العلوم الطبيعية حتى نصل الى التعميم بينما نجد أننا فى العلوم الاجتماعية نتعامل مع مواقف غير متسقة بحيث لا يوجد شخصان أو موقفان متماثلان .

ثالثا : يمكن للعلوم الطبيعية عزل العوامل بحيث تؤدى الفروض الى تنبؤات غير متأثرة بمتغيرات خارجية . بينما لا يمكن تحديد الظواهر الاجتماعية بوضوح بسبب تعقد العوامل الداخلة فيها .

رابعا : يمكن التوصل الى التنبؤ فى العلوم الطبيعية بينما لا يمكن بلوغ هذا المستوى بتاكيد مرتفع فى العلوم الاجتماعية .

خامسا : نستطيع أن نذكر الفروض فى العلوم الطبيعية بدقة وعمومية ، لأنها تتناول متغيرات صادقة خلال المجتمع كله بينما لا يتوفر

هذا الا بشكل محدود فى العلوم الاجتماعية (مثل معدل الوفيات) .
سادسا : نستطيع فى العلوم الطبيعية ان نتثبت من هذه الفروض
عن طريق الملاحظة ، ويمكن هذا بقدر محدود للغاية فى العلوم
الاجتماعية .

سابعا : يمكننا فى العلوم الطبيعية استخدام القياس بينما يتعذر
هذا فى العلوم الاجتماعية لأن مفاهيمها غامضة وكيفية .

ثامنا : يمكننا فى العلوم الطبيعية دراسة الظواهر بدون اهتمام
بالماضى ولا يمكن هذا بالنسبة للعلوم الاجتماعية لأنه يحدث احيانا
ان تكذب التنبؤات بسبب اشياء غير ملاحظة وغير متثبت منها حدثت
فى الماضى .

تاسعا : بينما لا يوجد تأثير لعالم الفلك على كسوفه فى العلوم
الطبيعية نجد فى العلوم الاجتماعية تفاعلا دائما بين الباحث وما يدرسه .

عاشرا : لا يهتم العالم الطبيعى بموضوع بحثه بقدر اهتمام العالم
الاجتماعى الذى يتصدى لبحث موضوعات مثل تنظيم النسل او الاشتراكية
او الجريمة .. الخ .

حادى عشر : يمكننا فى العلوم الطبيعية عزل الوقائع بينما يستحيل
هذا فى العلوم الاجتماعية ، ويرجع هذا الى ان العلماء الاجتماعيين
يواجهون غند وضعهم لفروضهم بأن الوقائع الاجتماعية توجد فى شكل
جمعى وترد فى سياقات ، بالاضافة الى وجود تصورات غامضة
وكيفية (١٥) .

(15) R. Abel . Man is the Measure : a Cordial Invitation to
the Cenrtal Problems of Philosophy . New York : The Free Press
1972, pp. 109 - 117 .

لقد اضى المفكرون ذوو النزعة الانسانية الى العلوم الاجتماعية او الثقافية طابعا مختلفا بشكل اساسى وجذرى عن العلوم الطبيعية . فقد ركزوا على الحالات الذاتية للبشر كالاهتمام بتأويل وفهم الدوافع البشرية ، وقد أصبحت هذه العملية التأويلية التى أسماها الفلاسفة الانسان الذين انشاوها Verstehen ، أصبحت بالنسبة لهم جزءا ضروريا فى تطور العلوم الاجتماعية (١٦) .

اولا : اتجاه فيلهلم دلتاي ونظريته الى التفسير :

يمثل دلتاي (١٨٣٣ - ١٩١١) الموقف المعارض للموضعية والنزعة الطبيعية ، فهو وان كان قد اتفق مع الوضعيين فى رفضهم للميتافيزيقا الا انه اختلف عنهم فى رفضه النظر الى العلم الطبيعى كنموذج للعلوم الاجتماعية وقد حاول دلتاي ان يضع العلوم الاجتماعية (علوم الروح) Geisteswissenschaften على أسس منهجية مختلفة عن العلوم الطبيعية Naturwissenschaften فقد رأى ان موضوعات العلوم الاجتماعية ، وهى العقول البشرية ، معطاء وليست مشتقة من أى شيء آخر . ويستطيع العالم الاجتماعى ان يجد داخل ذاته مفتاح الواقع الاجتماعى .

ان العلم الطبيعى لا يستطيع الا القيام بتفسير erklären الأحداث الملاحظة ، وذلك عن طريق ربطها ببعضها البعض حسب بعض القوانين الطبيعية . الا ان هذه القوانين لا تخبرنا بشيء عن الطبيعة الداخلية للأشياء ولا عن العمليات التى نقوم بدراستها . بينما نجد

(16) H. A. Hodges . Dilthey, Wilhelm in D. (pa) smg
International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, pp. 185
87 p. 185 .

معنى بالنسبة للبشر فى الذهاب لما وراء الأفعال الملاحظة الى ما هو داخلى (١٧) .

وبينما تبحث العلوم الطبيعية عن اهداف تفسيرية تقوم العزيم الاجتماعية بالبحث عن فهم مباشر من خلال استبصار داخل المادة الخام . وتعتبر كل من الاستبصارات الانسانية والفنية هدفا للعلوم الاجتماعية . ولا يمكن الوصول الى هذا الهدف عن طريق مناهج العلوم الطبيعية ، بل فقط عن طريق اعتناق القيم والمعاني الموجود داخل عقول القائمين بالفعل ، وتسمى هذه العملية بالفهم الذاتى أو التاويلى (Verstehen) . وقد طبق دلتاى منهجه على ثلاث أنماط من القضايا :

١ - الحقائق التاريخية المفردة .

٢ - الاطرادات التى تصل اليها عن طريق التعميم المجرد .

٣ - الأحكام القيمة .

وكان دلتاى أول من أثار موضوع الفهم الذاتى Verstehen (١٨) ،

(17) H. A. Hodgls . Disthey, Wiehelm. in D. Sills (ed.)
International Encyclopedia of the Social Sciences pp. 185 - 87,
p. 185 .

(١٨) أثرا ترجمة التعبير الألماني Verstehen بالتعبير « الفهم الذاتى » كما ترجمها M. Truzzi فى كتابه
«Verstehen : Subjective Understanding in the Social Sciences»

وقد ترجمها د . محمد عارف فى كتابه « المنهج فى علم الاجتماع »
مستخدما التعبير « الفهم التاويلى » بينما استخدم د . صلاح قنصوة فى
رسالته للدكتوراه « الموضوعية فى العلوم الانسانية » التعبير « التفهم » .

بطريقة واعية وفى سياق اجتماعى لم يكن قد انتضح تماما بعد ، ولم يكن يسع دلتاى كشاعر الا ان يرى الفرد ، بخبرته وشعوره وفهمه ، كممثل للواقع الانسانى الاساسى . لذا كانت مهمة الفهم الذاتى هى التوصل الى معرفة للفرد فى تعقده وبساطته خلال تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة .

ويتضمن الفهم الذاتى فى رايه عناصر عدة منها المشاركة الوجدانية sympathy ، والتعاطف empathy ، ثم عملية استعادة الخبرة ، وإعادة بناء الحياة موضع الدراسة . لقد اهتم دلتاى بمشكلة التوفيق بين الخاص والعام لذا فانه قام بتطوير الأدوات التصورية ، حتى يجعل الخاص يكشف عن معناه ورمزه اى يجعله يبدو عاما ومتعاليا ومعبرا الى درجة انه يمكن ان يخضع لعملية التثبيت . فكان دلتاى يرى ان عظمة الشاعر تكمن فى اختراق الوجود الفردى حتى يكشف عن نفسه فى نفسه باعتبارها رمزا عاما او معنى . وينجح الشاعر فى ذلك عن طريق جعل الحياة تؤول ذاتها دون تعبيرات : انه يسمح للسياق الحى ان يكشف عن نفسه فى وحدته المعقدة ، وفى معناه المباطن(١٩) .

ان عنصر الثبات فى الفكر يكمن فى الخبرة الداخلية وحدها اى فى وقائع الوعى . وكل معرفة ما هى الا ادراك للخبرة ، وتتوقف الوحدة الاصلية للخبرة وما ينتج عنها من صدق على العوامل التى تشكل الوعى اى على الطبيعة الانسانية بأكملها . ويعتبر هذا هو الموقف الابستمولوجى الذى لا يمكن للمعرفة الحديثة ان تقول بغيره ، وهو يمثل أساس استقلال العلوم الانسانية . وتتحول النظرة الى العالم الطبيعى فى ضوء هذا الموقف الى مجرد خيال خاص بواقع مختبىء

(19) W. Pelz . The Scope of Understanding in Sociology.
London : Routledge and Kegan Paul , 1974, p. 3.

عنا لا يمكن ادراكه كما هو الا ابتداء من وقائع الوعى ، كما تبدو فى الخبرة الداخلية . ان تحليل هذه الوقائع هو صلب الدراسات الانسانية ، فتصبح هذه الدراسات نسقا مستقلا بذاته (٢٠) .

وقد اختلف هنريك ريكرت ، وهو من اتباع مدرسة الفهم الذاتى ومعاصر لدلتاى ، مع دلتاى حول التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . انه يرى ان الفارق بين مجموعتى العلوم لا يكمن فى الواقعية التجريبية (اى الطريقة التى ندرك بها هذه العلوم) وانما فى الطابع الفريد للأحداث التاريخية فى مقابل الطابع العام للأحداث الطبيعية . وبالتالي يقع على عاتق العالم الاجتماعى دراسة الحدث الفردى المتميز (الايديوجرافى) بينما يدرس العالم الطبيعى الأحداث العامة المتكررة (النوموطيفية) . وعلى الرغم من هذا الموقف المعارض لدلتاى ، أكد ريكرت على ضرورة الأخذ بالمنهج الذاتى فى العلوم الاجتماعية ، اى ضرورة معرفة قيم واهداف القائمين بالفعل الاجتماعى من اجل تفسير سلوكهم بشكل تام . وقد عارض ريكرت فى استخدام التعبيرات « فهم ذاتى » *Verstehen* الا ان المنهج الذى طوره ، بما يتضمنه من تأكيد على معنى الأشياء التى يضيفها القائمون بالفعل كضرورة لفهم الظواهر الاجتماعية ، هذا المنهج يضعه ضمن مدرسة الفهم الذاتى (٢١) .

ويرى دلتاى ان موقف الفهم الذاتى يتحدد فى أعلى درجاته بازاء

(20) W. Dilthey . On the Special Character of the Human Sciences in M. Truzzi (ed.) *Verstehen : Subjective Understanding in the Social Sciences* . Reading : Addison - Wesley Publishing Co. 1974 pp. 8 - 17, p. 10.

(21) Max Weber . On Subjective Interpretation in the Social Sciences in Truzzi (ed.) *Op. Cit.* pp. 18 - 37. intr. by the ed. p. 18.

الموضوع ، عن طريق المهمة التى يقوم بها وهى كشف وحدة حية من المعطى . ويتوقف هذا على الوجود المستمر للوحدة النسقية Systematic unity وهى تلك الوحدة التى نجدها فى الخبرة المعاشة للشخص والتى تخضع للاختبار فى شواهد عدة . ويعنى هذا الوضع اسقاط للذات داخل الشخص أو العمل ذاته ، وينشأ عن هذا الاسقاط احياء للشئ ذاته من خلال الحياة العقلية عن طريق الفهم (٢٢) .

ان منهج الفهم يميز العلوم الانسانية كمجموعة مختلفة عن العلوم الطبيعية . ويتميز استخدام دلتاى للتعبير « فهم » عن اى استخدام عام آخر بأنه يعنى فهم مضمون عقلى معين - اى فكرة أو قصد أو احساس - ثم التعبير عنه فى شكل تعبيرات تجريبية معطاة مثل الحركات أو الكلمات أو الايماءات ... الخ . ان ما نفهمه من تعبير محدد هو المعنى الذى يدركه البشر أو يصفوه على موقف معين فى حياتهم .

لقد اقام دلتاى فلسفته المعرفية او نظريته فى المعرفة على اساس ثلاث هي :

١ - ان البشر يعيشون حياتهم ويمرون بخبرات خاصة ، وهذه الحياة لها معنى معين .

٢ - يميل هؤلاء البشر الى التعبير عن هذا المعنى .

٣ - من الممكن الوصول الى فهم هذا المعنى (٢٣) .

(22) W . Dilthey. On the Special Character of the Human Sciences . in Truzzi (ed.) op. cit. pp. pp. 8-17, p. 11.

(23) H. P. Rickman . Dilthey, Wilhelm. in P. Edwards (ed.) The Encyclopedia of Philosophy. New York : The Macmillan Co. 1967, pp. 403 - 407, p. 405 .

وقام دلتاى بوضع ثلاثة شروط للوصول الى الفهم الذاتى وهى :

اولا : لابد ان نتعرف على العمليات العقلية التى نستطيع عن طريقها اختيار المعنى ونقله . فاذا لم يكن فى مقدورنا أن نعرف مثلا ما معنى ان نحب أو نكره أو نملك قصدا ما أو ان نعبر عن شيء ما ، فإننا لن نستطيع فهم أى شيء . وقد تعرض هذا النوع من الفهم الذاتى الذى ظهر فى كتابات دلتاى الأولى للنقد باعتباره يعبر عن نزعة نفسية متطرفة أو اتجاه فردى منهجى الا ان دلتاى اضاف اليه شرطين آخرين .

ثانيا : يقوم الشرط الثانى على اننا كى نفهم التعبيرات علينا ان نعرف السياق الواقعى المحدد الذى ترد فيه ، فالكلمة نفهم بشكل أفضل فى سياقها اللفظى كما يفهم الفعل داخل الموقف الذى أدى اليه . وقد اشتق دلتاى من السابق مبداه المنهجى : لكى نفهم تعبيرا ما علينا ان نكشف بطريقة منظمة السياق الذى يرد فيه . وكمثال على ذلك : لكى نستطيع ان نفهم حركة دينية أو اتجاه فلسفى بشكل أفضل ، علينا ان نربطه الى كل من وجهة النظر ، ثم الى الظروف الاجتماعية التى كانت سائدة فى ضوء ظهور العلم والصراع بين المذاهب الدينية المختلفة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ثالثا : يتمثل الشرط الثالث فى معرفة الأنسقة الاجتماعية والثقافية cultural التى تحدد طبيعة أغلب التصورات . فعلىنا لكى نفهم جملة ما ان نعلم اللغة ، ولكى نفهم حركة معينة فى لعبة الشطرنج ان نعلم مبادئ اللعبة (٢٤) .

لقد جعل دلتاى وغيره من الفلاسفة الاجتماعيين للمعرفة Erkenntnis وهى عبارة عن فعل الفهم أو الإدراك ، جعل لها طابعا بناء وقوة . ان تفكيرنا ومعرفتنا وقدرتنا على التصور والتنبؤ تحدد

الوقائع والأشياء . والوعى الاجتماعى وحده وليس الوقائع هو الذى يحدد التفكير وذلك بواسطة الأهمية التى ننسبها الى الوقائع (٢٥) .

ويعتبر الفهم هو الطريق الوحيد لكى يفهم الانسان ذاته ، فنحن نتعلم ما كنا اياه فى الماضى وكيف تطورنا واصبحنا ما نحن عليه ، من الطريقة التى تصرفنا بها ، ومن الخطط التى تبينها ، ومن الطريقة التى عبرنا بها عن اهدافنا ومن الخطابات القديمة ، ومن الأحكام التى اطلقت بشأننا منذ زمن بعيد . ان الحياة تتضح لنا اذن من خلال عملية الفهم الذاتى ، فنستطيع فهم انفسنا والآخرين بشرط تحويل خبرتنا المعاشة الى نوع من التعبير عن حياتنا وحياة الآخرين (٢٦) .

لقد رفض دلتاى ان ينظر الى الحياة كواقعة بيولوجية صرفه يشارك فيها الانسان الحيوانات الأخرى ، وانما نظر اليها كخبرة معاشة فى تعقدها . هى عبارة عن تجميع لأعداد لا حصر لها من الأفراد الذين يكونون الواقع الاجتماعى والتاريخى . وقد اعتبر دلتاى الحياة مكونة من اشياء عدة مثل الآمال والخاوف ، والأفكار والأفعال ، الأنظمة التى اقامها البشر ، القوانين التى توجه سلوكهم ، الأديان التى يؤمنون بها ، ثم كل اشكال الفن والأدب والفلسفة . وتضاف العلوم الى ذلك كله باعتبارها نشاطا بشريا .

لقد تأثر دلتاى فى مذهبه عن « فلسفة الحياة » بكل من كانط وهيجل وفشته وشلنج والتجريبية البريطانية . وقد اعتبر الحياة هى الموضوع الوحيد للفلسفة وكفيلسوف تجريبى رفض أى معنى للتعالم : فلا يوجد أى شئ يتجاوز الحياة ، ولا يوجد شئ فى ذاته كما لا يوجد أى مطلق ميتافيزيقى أو فردوس افلاطونى . ومن هنا فقد اعتبر الفيلسوف

(25) Pelz . op. cit. p. 72.

(26) Dilthey. op. cit. p. 17 .

جزءاً من الحياة ولا يمكنه معرفتها الا من الداخل لأنه لا وجود لبداية مطلقة للفكر أو لهيكل من المعايير المطلقة خارج الخبرة . ومن هنا يصبح كل تفكير فى الحياة وما يصحبه من مبادئ تقييمية وخلقية نتاج لأفراد معينين يعيشون فى زمان ومكان معين تحددهم وتؤثر فيهم الظروف ووجهات النظر والعصر الذين يعيشون فيه(٢٧) .

ويرفض دلتاى الرأى الوضعى الذى يقوم على القول بأننا نعيش ونختبر الاحساسات والادراكات فقط ، ويعتبره رأياً ميتافيزيقياً جامداً يقوم ، عن طريق تلخيص الخبرة ، بتضييق طرق المعرفة ، ان ما نعيشه ونختبره بالفعل هى الحياة نفسها فى غناها وتنوعها . ولا يعنى هذا بالنسبة لدلتاى الاكتفاء بالنظر الى الأفراد وحدهم وانما الهدف هو الوصول الى نظرية شاملة للواقع . ومن أجل هذا يبدأ الفيلسوف من المعانى التى يضيفها البشر على عالمهم . فيصبح الفيلسوف باعتباره جزءاً من الحياة ومتأثراً بظروف عصره مثل الآخرين ، يصبح مصدر قوة ، فيستطيع التوصل الى المعنى عن طريق خبرته الخاصة . فهو يدرك عمل عقله وكيف تولد الأفكار احساسات ثم كيف تتحول الاحساسات الى ميول . انه يعلم الخاصية الزمانية لحياتنا مع تعاقب اللحظات التى تربط الحاضر بالخبرة ويتذكر الماضى ويتصور المستقبل . ان الفيلسوف مثل غيره من البشر يستخدم نفس المبادئ من أجل تنظيم خبرته الخاصة ويسمىها دلتاى مقولات الحياة . ويعتبر تحليل تلك المقولات حجر الزاوية فى فلسفته(٢٨) .

ولا تخرج هذه المقولات عن كونها وسائل لتأويل الأحداث فى ضوء بعض العلاقات . ويعرض دلتاى قائمة بتلك المقولات فمنها مثلاً مقولة القوة أو السلطة power التى نشعر فى ضوءها بتأثيرها على

(27) Rickman op. cit. p. 404.

(28) Loc. Cit.

الاشياء والأشخاص ويتأثيرهم علينا ، ويكون ذلك اما بمساعدتنا فى خططنا ، او بالعكس بإحباط رغباتنا . انها المقولة التى تتوافق مع العلية او السببية تجاه فهم العالم المادى . وهناك مقولات أخرى ، عن الجزء والكل ، الوسيلة والهدف ، التطور . وتعرض دلتاى لثلاث مقولات ذات أهمية خاصة فى منهجه ، وهى القيم Value التى عن طريقها نختبر الحاضر ، ثم الهدف purpose الذى من خلاله نتصور المستقبل ، واخيرا المعنى meaning الذى عن طريقه نتذكر المـ او نستدعيه . وقد اكد دلتاى بالذات على مقولة المعنى ودورها ، خاصة فى كتبه المتأخرة ، فاصبح سؤاله الرئيسى هو : كيف تكون الخبرة ذات المعنى ممكنة ؟ وجعل من المقولات كلها طرقا مختلفة يتضح من خلالها المعنى فى سياقات مختلفة (٢٩) .

وقد ارتبط « بفلسفة الحياة » عند دلتاى اهتمامه بطبيعة الدراسات الانسانية ومنهجها . فاذا كان على الفيلسوف ان يهتم بأوسع معرفة ممكنة لمظاهر الحياة فان هذه المهمة تقع على عاتق الدراسات الانسانية من علم نفس ، وتاريخ ، واقتصاد ، وفقه اللغة ، ونقد أدبى ، وعلم الأديان المقارن ، وقانون ، وعلى الفيلسوف ان يستوعب نتائج هذه الانظمة كما أن لديه ما يقدمه اليها حتى تشتق منه قوتها المنهجية . ويمكن من « فلسفة الحياة » اشتقاق نظرية فى المعرفة an epistemology ويعتبر الانسان هو الموضوع المشترك فى كافة الدراسات الانسانية بأفعاله وانجازاته الى العالم الانسانى المنظم اجتماعيا والمتطور تاريخيا . وهنا ميز دلتاى بين دراسات نسقية تهدف الى تكوين قوانين عامة وبين التاريخ الذى يهتم بالتتابع الزمنى للأحداث الفردية . الا ان هناك ارتباط بين هذه الدراسات : فالتاريخ يقدم للدراسات النسقية البدهة Evidence على شكل تاريخ الحالة وتسجيل للتطورات الاقتصادية ،

بينما تقدم الدراسات النسقية بالاشتراك مع الحس الشائع ونتائج العلوم الطبيعية ، القوانين التى يمكن فى ضوءها تفسير العلاقات بين الأحداث الفردية فى التاريخ (٣٠) .

وقد اعتبر دلتاى التاريخ هدفا مطلقا - فالمؤرخ هو نفسه الفيلسوف ، مهمته هى الكشف وتاويل التطور الفريد للانسانية - وكل العلوم الانسانية الأخرى ليست الا عوامل مساعدة لعلم التاريخ . ويفسر الفرد فى ضوء الموقف التاريخى ، ويقوم المؤرخ بالتفسير مستخدما فى ذلك السيرة الذاتية (٣١) . وقد اعتبر دلتاى الانسان تاريخيا فى جوهره لأنه يعيش فى الزمان ، ويتحدد بأحوال وظروف معينة ، ووجوده ذاته هى عملية زمنية تتحدد بال ميلاد والموت وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات تتكون من ماض وحاضر ومستقبل ، وتجرى هذه العملية فى اطار علاقاته مع الآخرين ، وعلاقاته مع الطبيعة ، ولما كان الفرد كذلك ، فان العلاقات بين الأفراد هى ايضا علاقات تاريخية . وحياة الانسان حياة تاريخية ، وعالم الانسان اذن هو عالم التاريخ (٣٢) .

وقد رفض دلتاى المبادئ المطلقة والقيم المطلقة . ولهذا يرفض كل محاولة لتفسير التاريخية او المذهب التاريخى Historicism بواسطة اللجوء الى مبدأ غير مشروط ، سواء كان ذلك بمعنى متعال او بمعنى محايث ، لأن عالم الانسان هو عمل الانسان اى عمل الأفراد فى علاقاتهم بعضهم مع بعض ، والتاريخية تنسب الى العالم الانسانى وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط ، فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انساني (٣٣) .

(30) Ibid. p. 405.

(31) Pelz. Op. cit. p. 45

(٣٢) د . عبد الرحمن بدوي : أحدث النظريات فى فلسفة التاريخ . عالم الفكر ، ج ١ ، ص ٥ ، يونيو ١٩٧٤ ، ص ٢١٥ - ٢٤٤ ، ص ٢١٨ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

لقد قام دلتاي بصياغة مبادئ ثلاث تكون جانب هام مما أصبح يسمى بالتاريخية او المذهب التاريخي وهى :

١ - ان كل الصور الانسانية هى جزء من عملية تاريخية ، وتحتاج ان تفسر بواسطة تعبيرات تاريخية ، ولا يمكن تعريف الدولة او الأسرة او حتى الانسان بطريقة دقيقة ومجردة ، لأن الخصائص الخاصة بكل منها تختلف باختلاف العصور .

٢ - من الممكن فهم العصور المختلفة والأفراد المختلفين بطريقة واحدة فقط وهى النفاذ بواسطة الخيال الى وجهة نظرهم الخاصة . فعلى المؤرخ ان يضع اذن نصب عينية كل ما اهتم به الفرد والعصر الذى يعيش فيه هذا الفرد .

٣ - ان المؤرخ نفسه محدد بأفئاق عصره ، وتمثل الطريقة التى يتضح بها الماضى من خلال تصورات المؤرخ جانبا هاما من معنى هذا الماضى(٣٤) .

ومن نتائج هذه النسبية المنبثقة عن التاريخية ان قرر دلتاي ان الفلسفة مشروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتحدد بطريقة قبلية ، بل على أساس تحليل الطرق المختلفة التى تجلت عليها الفلسفة فى التاريخ ، مما سيظهر منه ان وحدة الفلسفة لا تقوم فى وحدة الموضوع او المنهج ، بل فى وحدة الموقف الذى يفسر مختلف الاشكال التاريخية للفلسفة(٣٥) .

وقد اعتبر دلتاي علم النفس أساسا للعلوم الاجتماعية ، اى ان اهتمامه بالفرد جملة يختار علم النفس وليس علم الاجتماع كمنظور

(34) Rickman. op . cit. p. 405.

(٣٥) د عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٢١٩

اساسى . الا أن الفرد فى الحالتين يخضع لما هو عام ، فهو يرد الى مثال او الى حالة بالنسبة للمعلومات التى تسلم الى تعميمات ذات معنى . لقد اثارت اعمال دلتاى مشكلة الوعى الاجتماعى والفردى وجعلتها مشكلة مستمرة عبر السياق الاجتماعى . لقد كان دلتاى يعكس الايدولوجية الفردية لعصره ، التى تضع للفرد مكانه مثل مكانة الشيء فى ذاته عند كانط(٣٦) . وقد حاول دلتاى ان يصل الى علم نفس وصفى الى جانب علم النفس الطبيعى العلمى .

ولقد كان دلتاى ولا شك اول الداعين الى منهج جديد فى دراسة العلوم الاجتماعية وهو منهج الفهم الذاتى ، وعلى اساسه اقام دراسته للحياة الاجتماعية . بل لقد ذهب دلتاى الى ابعد من ذلك عندما اقام هذه الدراسة على الانتقاء ، انتقاء يتم فى ضوء انماط اجتماعية ذات معنى . وتقوم هذه الانماط على الوحدة النفسية او العقلية للجنس البشرى حيث يتاح فهم الماضى والمجهول فى ضوء الحاضر والمعروف . وقد وجد دلتاى أن مهمتنا تكمن اساسا فى هذا الفهم التدريجى « لذلك النمط الاساسى المثالى » فى تغيراته النفسية او العقلية من خلال اعادة كشف لاننا فى الآخر Thou (٣٧) .

ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظريته الى التفسير :

يعتبر فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) من اقوى المدافعين عن منهج الفهم الذاتى وأحد الممهدين البارزين للفنومولوجيا . وقد جمع بين تأثير كل من دلتاى وريكرت ومذاهب المثالية الألمانية والكاثية ، كما تأثر بتأكيد الوضعية على الاسباب والتثبت التجريبي والتعميم . ومن هنا اهتمامه بالدراسات الخاصة بالمنهج ، والنقد ، والفلسفة خاصة فى جانبها

(36) Pelz op. cit. p. 45.

(37) Dilthey. op. cit: introduction by Truzzi (ed). p. 9.

المرتبطة بالعلوم الاجتماعية ، بالإضافة إلى اهتمامه بالتاريخ وعلم الاجتماع .

وقد جعل فيبر التفسير الهدف الأساسى للعلم حتى أنه تحدث عن علم الاجتماع باعتباره يهدف إلى الفهم التأويلى للسلوك الاجتماعى من أجل الوصول إلى تفسير مسار السلوك ونتائجه . وقد ميز فيبر بين نوعين من السلوك : « السلوك الإنسانى » الذى ينشأ عن ارتباط شخص أو اشخاص بفعل ذو معنى ذاتى ، وقد يكون هذا السلوك عقلى أو خارجى ، وقد يتكون من فعل معين أو قد يكون استبعاد للفعل ، ثم « السلوك الاجتماعى » الذى يعبر عن الأنشطة التى ترتبط أهدافها بواسطة الأشخاص الموجودين فى الموقف بسلوك أفراد آخرين خارج الموقف . وتتأثر هذه الأهداف كنتيجة لهذا الارتباط (٣٨) . ويعتبر الفرد هو الوحدة الهامة فى علم اجتماع فيبر ، وليست الكليات الاجتماعية إلا نتيجة للأفراد وشكلا من أشكال تنظيم الأفعال .

ويتضمن الفعل الاجتماعى عند فيبر كل مظاهر السلوك الإنسانى ، حيث أن كل سلوك إنسانى هو ببساطة سلوك هادف ، ومن ثم يكون للإنسان الاجتماعى السالك أهدافه المحددة بالذات ، كما يكون لسلوكه هذا « معناه » وهذا المعنى الذى يستتبّه الفاعل الاجتماعى إنما هو « معنى ذاتى » Subjective meaning كما ويتطابق هذا المعنى الذاتى ، فى نفس الوقت مع ذلك المعنى « السائد فى عقول الآخرين » (٣٩) .

Weber. on Subjective Understanding in the Social Sciences
op. cit. p. 20.

(٣٩) د. قبارى محمد اسماعيل : قضايا علم الاجتماع المعاصر ،
الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٩

وقد ميز فيبر بين أربعة أنماط من الفعل هي : الفعل العقلي في علاقته بهدفه ما Zweck rational action ، والفعل العقلي في علاقته بقيمة ما wartrational action ، والفعل العاطفي affective or emotional action ، وأخيرا الفعل التقليدي traditional action

ترجع أهمية هذا التصنيف الى عدة عوامل تتمثل في :

١ - ان فيبر اعتبر علم الاجتماع علما شاملا للفعل الاجتماعي لذا فان تنميط الأفعال يعتبر أكثر المستويات تجريدا في النسق التصوري الموجود في المجال الاجتماعي .

٢ - وفي نفس الوقت اعتبر فيبر علم الاجتماع علما شاملا للفعل الانساني ويهدف من هذا الى فهم المعنى الذي يضيفه كل فرد على سلوكه الخاص لذا فمن المهم الوصول الى شمول للمعاني الذاتية عن طريق تصنيف أنماط الأفعال كمدخل لفهم البناء الواضح لهذا السلوك .

٣ - اثر تصنيف فيبر لأنماط الأفعال على تفسيره للحقبة الزمنية المعاصرة له ، فقد رأى ان الخاصية الرئيسية للعالم الذي نعيش فيه هي التعقيل rationalization ، ويظهر هذا في اتجاه المجتمعات الحديثة الى توسيع دائرة الأفعال العقلية المرتبطة بالأهداف .

٤ - يرتبط تصنيف الأفعال بجوهر فلسفة فيبر وهو علاقات الارتباط بين العلم والسياسة او استقلالهما (٤٠) .

لقد رأى فيبر ان هدف العالم هو الوصول الى قضايا عن الواقع

(40) Aron Main . Currents in Sociological Thought op. cit. pp. 186 - 188.

أو الى علاقات سببية أو الى تفسيرات صحيحة بشكل عام ، وبهذا المعنى يكون البحث العلمى احد الأمثلة العبرة عن فعل عقلى فى علاقته بهدف ما . ويعتبر هذا الهدف حقيقة عامة الا انه يتحدد عن طريق حكم قيمى ، وبالأذات قيمة الصدق التى يتم التثبت منها عن طريق وقائع أو آراء صادقة بشكل عام (٤١) .

ويذهب فيبر الى ان الفعل الاجتماعى هو كل عمل أو سلوك يقوم به الانسان ، كما يتضمن كل جهود الانسان فى ماضيه وحاضره ومستقبله ، كما يحوى محاولاته الناجحة وتجاريه الفاشلة . بمعنى ان الفعل الاجتماعى يتعلق أصلا بكل الجهود والمحاولات ، وكل ما لحق الانسان من اخفاق أو نجاح (٤٢) .

ويعبر فيبر عن أسس منهجه كالتالى : اننا نفهم . بوضوح معنى القضية $2 + 2 = 4$ كما نفهم نظرية فيثاغورس عن الاستدلال ، كما نفهم استخدام سلسلة من الاستدلالات العقلية وذلك بشكل منطقى وفى توافق مع طرق مقبولة للتفكير . ونحن نفهم بنفس الطريقة أفعال شخص ما فى محاولته تحقيق هدف معين عن طريق اختيار طرق مناسبة ، نفهمه فى حالة كون حقائق الموقف التى يقيم عليها اختياره مألوفة بالنسبة لنا . وملك تفسير هذا الفعل الهدلى العاقل - بقصد فهم الوسائل المستخدمة - أعلى درجات التاكيد . ويمكننا ان نفهم من أجل اهداف التفسير الأخطاء التى قد نتعرض لها نحن أيضا ، وذلك عن طريق التحليل الذاتى القائم على المشاركة الوجدانية . ويحدث أحيانا ان نفشل فى فهم كثير من الأهداف والقيم التى نتبين من الخبرة ان السلوك البشرى يتجه اليها ، وذلك على الرغم من كوننا نستطيع ان ندركها . فكلما اختلفت هذه الأهداف أو القيم عن قيمنا بشكل أساسى ، كان

(41) Ibid 189.

(٤٢) د. قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣١١

من الصعب علينا ان نفهمها عن طريق المشاركة الوجدانية . ويجب علينا في مثل هذا الموقف ان نكتفى بتحقيق فهم فكرى خالص لأمثال تلك القيم . وفى حالة فشلنا نكتفى بقبولها باعتبارها معلومات متاحة . الا ان علينا كلما كان هذا ممكنا ان نحاول فهم السلوك الذى تحركه تلك القيم وذلك بقصد التفسير أو التأويل الانفعالى أو العقلى فى مختلف مراحل تطوره . ويذكر فيبر كمثال على ذلك كثيرا من الأفعال الدينية أو الخلقية التى لا يفهمها من يتعرضون لثل هذه القيم (٤٣) .

وقد أخذ فيبر عن ريكرت الفكرة التالية : ان ما يقدم للعقل الانسانى ليس الا مادة بدون شكل ، والعلوم ما هى الا تشكيل أو بناء لتلك المادة الخالية من الشكل . وقد رأى ريكرت أنه يوجد حسب طبيعة التشكيل الذى تخضع له المادة نوعان من العلوم : التشكيل الأول ، وهو خاص بالعلوم الطبيعية يتمثل فى تناول الخصائص العامة للظواهر ثم إقامة علاقات منتظمة أو ضرورية بينها ، ويتجه هذا التشكيل نحو بناء نسق من القوانين أو العلاقات التى تتزايد عموميّتها وقسديّتها . تملك طبيعة رياضية . وتعتبر الفيزياء ، النيوتونية أو فيزياء أينشتاين ، أو العلم النووى الحديث نمطا مثاليا للعلم الطبيعى ، حيث تشير التصورات الى موضوعات قام العقل ببناءها . اما النسق الخاص بهذه العلوم فهو النسق الاستنباطى الذى يبدأ من قوانين أو مبادئ مجردة وبسيطة وإساسية . اما النوع الثانى من التشكيلات العلمية فنتميز به العلوم التاريخية أو علوم الثقافة . وفى هذه الحالة لا يحاول العقل أن يقدم مادة لا شكل لها فى نسق من العلاقات الرياضية ، وانما يقوم بانتقاء فى داخل المادة عن طريق ربط المادة بالقيم . ومن هنا يصبح كل تقرير تاريخى إعادة بناء انتقائى لما حدث فى الماضى (٤٤) .

(43) Weber op. cit. pp. 21 - 22 .

(44) Aron. op. cit. p. 195.

وهنا يقدم فيبر علما للاجتماع متضمنا لنوعين من السلب امام الواقعة : فمن جهة لا يوجد علم يستطيع ان يقول للانسان كيف يعيش او للمجتمعات كيف تنظم نفسها ، ومن جهة اخرى لا يوجد علم يستطيع ان يقول للبشرية ما هو المستقبل . السلب الاول يميز فيبر عن دوركايم والثانى عن ماركس . لقد رأى فيبر ان الفلسفة ذو النمط الماركسى تقع فى اخطاء لانها لا تتفق مع طبيعة كل من العلم او الوجود الانسانى . ان كل علم سواء كان تاريخيا ام اجتماعيا هو عبارة عن وجهة نظر جزئية وبالتالي لا يستطيع ان يدلنا مسبقا على المستقبل ، لان المستقبل لا يمكن ان يحدد مسبقا . وحتى فى حالة وجود بعض الاحداث الممكنة التحديد مسبقا فان الانسان الفاعل او الانسان العادى البسيط سيقى خرا فى رفض الحتمية الجزئية او فى التلائم معها (٤٥) .

ان التقارير التاريخية والاجتماعية تهتم بالوقائع الملاحظة او القابلة للملاحظة ، وتسعى للوصول الى واقع محدد اى الى سلوك انسانى فى ضوء المعنى الذى يضيفه الذين يقومون بالفعل . ان هدف فيبر ليس الا التوصل الى فهم طريقة حياة البشر فى المجتمعات المختلفة كمحصلة لمعتقدات مختلفة ، وكيف اعتمدوا على عنصر الوقت وكرسوا انفسهم لنشاط او آخر عاقدين الامل على العالم التالى واحيانا على العالم الحاضر يمتلكهم التفكير فى الخلاص واحيانا فى التطور الاقتصادى . ويحاول عالم الاجتماع فهم الطريقة التى يختبر بها البشر مختلف اشكال الوجود وذلك فى ضوء النسق المحدد للمعتقدات والقيم والمعرفة الخاصة بمجتمع معين (٤٦) .

ولا يقتصر فيبر على القول بان كل من العلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية هى تفسيرات مفهومه للمعنى الذاتى للسلوك ، وانما يرى

(45) Ibid. p. 197.

(46) Ibid. p. 198.

ايضا انها علوم عليية او سببية . ان عالم الاجتماع لا يقتصر على تفسير نسق المعتقدات وسلوك الجماعات وانما يبحث ايضا عن تأكيد لكيفية حدوث الاشياء وكيفية تحديد التفكير للفعل ، وكيفية تأثير نظام سياسى معين على نظام اقتصادى . اى ان العلوم التاريخية والاجتماعية تطمح فى التوصل الى تفسير سببى كما تطمح فى تاويله بطريقة مفهومه . ويعتبر تحليل التقارير السببية احدى الوسائل للتثبت من النتائج العلمية .

وتتحدد مشكلة السببية التاريخية فى دور السوابق (الشروط السابقة) الموجودة وراء الحدث . ويتضمن تحليلها الاجراءات التالية :

- ١ - تعريف واضح لخصائص الكيان التاريخى المراد تفسيره .
- ٢ - تحليل الظاهرة التاريخية فى عناصرها ، لأن العلاقة السببية ليست علاقة بين فترة زمنية حالية وفترة زمنية سابقة ، ان العلاقة السببية هى دائما علاقة جزئية وزائفة بين بعض عناصر الموضوع التاريخى وعناصر اخرى سابقة .
- ٣ - يحتاج التحليل السببى عند تناول حدث تاريخى فردى ان يستعين بعملية تغيير متخيل لأحد العناصر فى محاولة تبين ما يمكن ان يحدث فى حالة عدم وجود هذا العنصر او فى حالة وجوده بصورة مختلفة .
- ٤ - ولخيرا لا بد من مقارنة هذا التطور المتخيل القائم على اساس تغير مفترض فى احدى الشروط السابقة بالتطور الواقعى ، وذلك قبل ان نستخلص النتيجة التى تقوم على كون العنصر الذى غيرناه على سبيل الفرض ليس الا احدى اسباب الوجود التاريخى الذى ندرسه (١٧) .

لقد شعر فيبر انه لا يوجد الا منطق علمى واحد ينطبق بشكل متساو على كل من الظواهر الطبيعية والظواهر الثقافية ، ويتطلب التثبت التجريبي من تقارير كل نوع من الظواهر بناء للتصورات - خاصة وانه لا يوجد فى طبيعة الموضوعات الثقافية ما يمنع من اقامة التصورات العامة . واذا كانت قيم الملاحظ تؤثر على ملاحظاته الاجتماعية ، مثلا فى اختياره للموضوعات النظرية ، فانه يستطيع توضيح هذه القيم والمضى فى تناول دورها بالنسبة للظواهر الاجتماعية والثقافية التى يلاحظها بشكل موضوعى خالص . ومن واجب علم الاجتماع الا يقبل فكرة كون الأساس « غير العقلى » للحياة الانسانية يتبدى فى الموضوع الفردى ، لأن هذه الفكرة تؤدى الى افتراض تفرد الظواهر الثقافية . والعكس هو الصحيح لذا يجب أن يكون الافتراض الأولى قائم على كون السلوك الانسانى قابل للتأويل بواسطة « نسق متسق من التصورات النظرية » . فنحن نبدأ بتحليل الظواهر الاجتماعية المحددة ، فيما يرى فيبر ، عن طريق بناء « أنماط مثالية Ideal types وذلك على افتراض أن الأفعال تقوم على أساس عقلى . وفى حالة كون هذه الأنماط المثالية ، التى هى مقولات التحليل ، غير كافية لفهم المسار التجريبي للأحداث فإننا عندئذ نبحث عن عوامل « غير عقلية » irrational واننا لا نفترض ، حتى بالنسبة لهذه الحالة ، وجود « أشياء فى ذاتها » غير قابلة للاندماج فى اطار نظرى متماسك (٤٨) .

ونستطيع ان نؤكد ان فيبر يهدف الى كشف الفهم الذاتى لمضمون السلوك الاجتماعى . ولن يتحقق هذا الا بواسطة الأنماط المثالية ، ويعرفها فيبر بانها بناء تصورى يتشكل من ايجاد التآلف بين كثير من

(48) E. A. Tiryakian . Existential Phenomenology and the Sociological Tradition in the American Sociological Review XXX (October 1965) pp. 674 - 88 , p. 679 , .

الأبعاد الواقعية المتفرقة ، التى تنظم بمقتضى وجهة من النظر تعلم الى تصور متسق لهذه الأبعاد (٤٩) .

ويمثل النمط المثالى النتيجة المنطقية لعدة اتجاهات فى فكر فيبر . فهو يرتبط من جهة بمفهوم الفهم الذاتى : فكل نمط مثالى ليس الا نظاما من العلاقات المدركة فى داخل كيان تاريخى او تسلسل للأحداث معينة كما يرتبط النمط المثالى من جهة أخرى بخاصية تميز كل من العلم والمجتمع وهى عملية التعقيل rationalization ان بناء الأنماط المثالية ليست الا تعبيرا عن محاولة تتميز بها كافة الأنظمة العلمية وهى جعل موضوع الدراسة مفهوما عن طريق كشف (او بناء) المعقولة الداخلية . ويرتبط النمط المثالى ثالثا بالتصور التحليلى لهذا السببية أو العلية : فهو يساعدنا على فهم العناصر أو الكليات التاريخية الا انه فهم جزئى فى مواجهة كل شامل total whole (٥٠) .

وقد استخدم فيبر الأنماط المثالية ليشير الى ثلاثة انواع من التصورات :

الأولى : هى الأنماط المثالية الخاصة بالوقائع التاريخية المفردة historical particulars مثل الراسمالية أو المدنية الغربية (الأوروبية) . ويظل هذا النمط اعادة جزئية للبناء لأن العالم قد اختار عددا محدودا من السمات من الكل التاريخى لى يقيم وجودا مفهوما . وتعتبر عملية اعادة البناء واحدة ضمن عمليات أخرى ، وبالتالي فان الواقع بأكمله لم يدخل ضمن الصورة الذهنية لعالم الاجتماع .

(٤٩) د. عارف : مرجع سابق ، الجزء الأول ، ص ٦٢
(50) Aron. op. cit. pp. 208 - 207.

الثانية : هى الأنماط المثالية التى تشير الى عناصر مجردة للواقع التاريخى ، وتساعد هذه التطورات على فهم الكليات التاريخية الحالية وتمييزها عن غيرها . ويتضح الفارق بين التصور الأول والتصور الثانى اذا اخذنا الراسمالية كمثال للأول والبيروقراطية كمثال للثانى ففى الحالة الأولى نقوم بتحديد وجود تاريخى حالى لا يشبه غيره . بينما نشير فى الثانية الى نظام ما او شكل معين من الأنظمة السياسية لا يستوعب النظام كله وانما قد نجد له امثلة عديدة فى فترات زمنية مختلفة من التاريخ .

اما التصور الثالث للأنماط المثالية : فهو الذى يقوم على اعادة بناء نوع معين من السلوك ثم فهمه ، وكمثال على ذلك يرى فيبر ان كل قضايا النظرية الاقتصادية هى اعادة بناء نمطى مثالى للطرق التى كان سوف يسلكها البشر فيما لو كانوا موضوعات اقتصادية خالصة . ان النظرية الاقتصادية تعتبر السلوك الاقتصادى منسقا مع ماهيته essence ومع تحديد واضح لهذه الماهية (٥١) .

لقد رأى فيبر ان تكوين مسار عقلى خالص للسلوك وتوجيهه الى الهدف يفيد علم الاجتماع بفضل سهولة فهمه وعدم غموضه ، وذلك عن طريق اعتباره « نمطا مثاليا » . ومن هنا فان الذى يساعدنا على فهم السلوك الحالى الموجه الى الهدف هى العوامل غير العقلية ذات الأشكال المختلفة (مثل الانفعالات او الأخطاء) والتى نستطيع حينئذ تصنيفها باعتبارها انحرافات عن السلوك الاصلى المفترض (٥٢) .

وقد صنف فيبر الفهم الى فهم تجريبي مباشر لمعنى فعل ما الى فهم تفسيري . الأول هو طريقنا لفهم قضية مثل $2 \times 2 = 4$ عند سماعها

(51) Ibid. pp. 208 - 209 .

(52) Weber. op . cit. p. 22 .

أو قراءتها : اننا في هذه الحالة نمر بخبرة قائمة على الفهم العقلي المباشر للفكرة . وهكذا نستطيع فهم ثورة غضب من خلال التعليقات ، وتعبيرات الوجه والحركات غير العاقلة التي تصحبها .

اما الفهم من النوع الثانى وهو الفهم التفسيرى فيقوم على قدرتنا على فهم دوافع أى فرد يقول لنا سواء شفاهة أو عن طريقة الكتابة ان $2 \times 2 = 4$ ، وذلك فى وقت معين وفى ضوء مجموعة ظروف محددة . ويعتبر هذا فهما عقليا للدافع عن طريق النظر الى الفعل كجزء من موقف مفهوم . وبهذه الطريقة نستطيع فهم ثورة غضب اذا عرفنا ان سببها المباشر يرجع الى الغيرة أو جرح للكرامة أو اصابة للكبرياء وكلها حدثت بطريقة انفعالية وبالتالى ترجع الى دوافع غير عقلية . ان السلوك الذى نقوم بدراسته فى هذا الموقف ليس الا جزءا من سلسلة انفعالات قابلة للفهم . ويعتبر هذا الفهم صادقا للمسار الحالى للسلوك . فاذا كنا نريد علما يتناول المعنى الحقيقى للسلوك فعلينا ان ندرك ان التفسير يحتاج الى معرفة وفهم لمسياق المعنى الذى يحدث خلاله المسار الحالى للسلوك (٥٣) .

ان عملية الفهم اذن هى عبارة عن فهم تاويلى لمجموعات ثلاث : اما فهم لحالات فردية واقعية كما هو موجود فى التحليلات التاريخية ، او فهم لحالات عادية كالتحليلات الاجتماعية ، او لنوع خالص من البناءات المصاغة علميا والتي تحدث بكثرة كما هو موجود فى البناءات ذات النمط المثالى كالتصورات والبديهييات فى النظرية الاقتصادية الخالصة (٥٤) .

لقد قبل فيبر منهجى « الحدس » intuition والفهم الذاتى او التأملى verstehen كاشكال لادراك الظواهر الثقافية التى لا ترد

(53) Ibid. pp. 24 - 25.

(54) Loc. Cit.

بحكم طبيعتها الى الظواهر الفيزيائية . وقد استبعد فيبر التاويل السببي المادى للتاريخ فى ضوء حتمية اقتصادية ، لأنه أدرك بوضوح ان السلوك الانسانى غير قابل للفهم بدون الاشارة الى دوافع من يقوم بالفعل من البشر والى المعانى الذاتية التى يضيفها على افعاله . ويعتبر هذا التأكيد على المعانى الذاتية للموقف الاجتماعى جوهر علم الاجتماع الفيبرى . ويعبر منهج الفهم الذاتى لدى فيبر عن الفنونولوجيا الوجودية لأنه يتطلب من الباحث الاجتماعى ان يكشف عن المعانى الذاتية الموجودة فى الظواهر التاريخية ثم يقوم بربط مجموعة من المعان بمجموعة أخرى - مثلا ربط الفعل الاقتصادى بالدافع الدينى . لقد رأى فيبر أن المهمة الرئيسية للبحث الاجتماعى تنحصر فى تبسيط ابعاد البناءات الاجتماعية التاريخية ، ويختلف هذا تماما عن محاولة صياغة قوانين اجتماعية سببية قد تملك ضمنا وجهات نظر حتمية للباحث نفسه (٥٥) .

ويقول فيبر فى اطار الفهم الذاتى أو التاويل بمفهومات أربعة يركز عليها الانسان خلال عملية الفهم أو التاويل :

العنصر الأول من عناصر الفهم : هو « التفسير » أو « التاويل » وهو ما يسميه فيبر Denten ويتعلق هذا العنصر بالحالات الذاتية أو العقلية التى تتوظف فى محاولة الكشف عن « المعانى » من اجل التفسير أو التاويل (٧٦) .

اما العنصر الثانى من عناصر الفهم : فهو ما يسميه فيبر Sinn وهو التعبير المرادف للكلمة الانجليزية meaning حيث أن « المعنى »

(55) Tiryakian . Existential Phenomenology op. cit. p. 679.

(56) M. Weber. The Theory of Social and Economic Organizations trans. by Hindesson. Glencoe, 1947 pp. 88 - 89 Quoted in .

هو العنصر الضروري من عناصر الفهم ، حين يكشف المعنى عن طبيعة موضوع التفسير الذى هو « الفعل » او السلوك الاجتماعى .

والعنصر الثالث من عناصر الفهم : هو ما يسميه فيبر *Handeln* وتشير هذه الكلمة الى موضوع التفسير وهو الذى يتجلى فى الظاهرات العينية المشخصة ، تلك الظاهرات التى تتعلق بالسلوك الانسانى .
ولخيرا يشير فيبر الى العنصر الرابع : وهو ما يسميه باسم *Verhalten* وتشير هذه الكلمة بمعناها الواسع الى كل نمط من انماط السلوك الاجتماعى ، كما يتحقق عند سائر افراد بنى البشر (٥٧) .

لقد حاول فيبر فهم معنى كل الوجودات سواء الفردية او الجمعية ، المعاشة او المختارة ، وذلك بدون اخفاء عبء الضرورات الاجتماعية التى تضغط علينا و الاكزام الخاص باتخاذ القرارات التى لا يمكن القئبت منها علميا ومن المتعذر اجتئابها .

ولقد عبر فيبر بصراحة عن تصورهِ لعلم الاجتماع باعتباره علما للفعل الاجتماعى . فالانسان باعتباره مخلوقا اجتماعيا ودينا هو مبدع القيم والانسقة الاجتماعية ، وعلم الاجتماع يحاول فهم تلك القيم والانسقة اى القيام ببناء الفعل الاجتماعى . ان فيبر هو الذى صاغ تعريف علم الاجتماع كعلم شامل للفعل الانسانى وهذا يعنى فى المقام الاول استبعاد للتعريف المعروف باسم التفسير الطبيعى اى انه استبعاد لاحتمال النظر الى الفعل الاجتماعى فى ضوء الوراثة او البيئة . ان الانسان عندما يقوم بالفعل يختار اهدافه ، ويستخدم وسائل معينة ، ويتكيف مع ظروف قائمة ، ويسترشد بانسقة للقيم . ويشير كل تقرير من التقارير السابقة الى جانب واحد من عملية فهم السلوك اى الى عنصر واحد من عناصر بناء الفعل الاجتماعى (٥٨) .

(٥٧) د . قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٢٣٠ - ٢٣١

(58) Aron. op. cit. p. 269.

ثالثا : اتجاه ادموند هوسرل ونظريته الى التفسير :

برز هوسرل (١٨٥٣ - ١٩٣٨) كمؤسس للفنومولوجيا باعتبارها علما جديدا متميزا عن غيره من العلوم الأخرى . وإذا كان هوسرل قد اهتم بالخبرة *experience* كغيره من الفلاسفة أو العلماء ، إلا أنه اختلف عنهم في تأكيده على الخبرة المعاشة بشكل موضوعي غير متحيز . وقد تناول هوسرل موضوعات فنومولوجية متنوعة كالبحث عن الماهية والتأكيد على « قصدية » الوعي ؛ ومنهج الرد الفنومولوجي ، وأفكار النزعة النفسية المتطرفة ، والرجوع إلى أسئلة متعالية أو ترنسنتالية ، والاهتمام بعالم الحياة . وترتبط هذه الموضوعات ببعضها البعض فلا يمكن فهم أحداها بمعزل عن الموضوعات الأخرى .

وإذا كانت الفنومولوجيا هي علم « الظواهر » فإن بقية العلوم تناولت أيضا الظواهر ، فنرى أن علم النفس يتناول الظواهر النفسية والعلم الطبيعي الظواهر الطبيعية ، والتاريخ أحيانا يدرس الظاهرة التاريخية ، والعلوم الثقافية تتناول الظواهر الثقافية . إلا أن الفنومولوجيا تميزت عن هذه العلوم جميعا بأنها تتناول كل هذه الظواهر المذكورة في كل معانيها ، وذلك على الرغم من اختلاف استخدامات التعبير « ظاهرة » وتعددته في مختلف الأنسقة ، وعلى الرغم من اختلاف المعنى الذي ينسب إليه . إن دراسة الفنومولوجيا للظاهرة تنطلق من منظور متميز : فهي تقوم بتغيير كل المعاني التي تنسب إلى مفهوم الظاهرة في كافة العلوم الموجودة وذلك باستخدام طريقة معينة . ويعتبر هذا التعديل خطوة سابقة على ادخال هذه المعاني في مجال الفنومولوجيا (٥٩) .

(59) E. Husserl . *Ideas : General Introduction to Pure Phenomenology* . Trans . by W. R. B. Gibson London : George Allen and Unwin Ltd. 1931, p. 41.

ان موضوع الدراسة الفنونولوجية هو الخبرات بأنماطها وإبنيته .
وقد حرص هوسرل على التمييز بين التحليل الفنونولوجى والتحليل
النفسى لها . فعلم النفس علم تجريبى يدرس الخبرات كاحداث تجريبية
فى عالم تجريبى ، ويشير الوصف والتعميمات الخاصة ، الى خبرات داخل
هذا السياق التجريبى . بينما تتضمن الفنونولوجيا على حد
تعبير هوسرل « ان نضع بين قوسين الشكل الوجودى والتاريخى
للخبرة ، ونركز على الماهيات *essences* » او « الأنماط المثالية »
التي تمثلها الخبرات . هذه الخبرات اما اننا نملكها او نستطيع تصورها
عن طريق المخيلة . وتهتم الفنونولوجيا بدراسة امثال هذه الماهيات
وتوضيح مختلف العلاقات بينها : فهى تبحث فى الابنية الضرورية للشكل ،
والادراك الحسى ، والحكم ، والاحساسات ... الخ ، باختصار فى كل
ما نراه من خلال ادراك حدس صرف للماهية سواء كانت عامة
generic او محددة *specific* وينفس الطريقة يعبر علم الحساب
الخالص عن الاعداد ، وعلم الهندسة عن الاشكال المكانية مستخدما
الحدوس الخالصة فى عموميتها الواضحة والمنتجة (٦٠) .

يرى هوسرل اننا لى نحكم على الخبرة - او التجربة - نكون
فى حاجة الى علم يتجاوز حدودها . والأسئلة التى تثيرها الخبرة لا يمكن
ان نستخلص اجاباتها من نفس هذه الخبرة فلا بد لنا من نظرية للمعرفة
لتفسير معطيات الخبرة ، وهذه النظرية الجديدة تقوم على العلاقة
الوثيقة بين الوعى او الشعور والوجود باعتبار ان الوجود متضاف
الى الوعى او الشعور وان الوعى او الشعور هو المحل الوحيد الذى
تتحقق فيه موضوعية الوجود (٦١) .

(60) E. Husserl . Logical Investigations . in E. Pivcevic
(ed.) Phenomenology and philosophical understanding Cambridge
University press 1957 p. VIII .

(٦١) آدموند هوسرل : التأملات الديكارتية ، ترجمة د . نازلى
اسماعيل حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، مقدمة المترجم ، ص ٧١

أما المنهج الفئومئولوجى فهو ليس منهجاً استنباطياً كما انه ليس منهجاً تجريبياً ، وإنما هو ينحصر أولاً وبالذات فى الكشف عما هو « معطى » ، والقاء الأضواء على هذا « المعطى » . فهذا المنهج لا يصطنع طريقة التفسير بالالتجاء الى بعض القوانين ، كما انه لا يقوم بأى استنباط ابتداء من بعض المبادئ ، بل هو ينظر مباشرة الى ما هو فى متناول الوعي ، ألا وهو « الموضوع » . ومعنى هذا انه يستهدف « الموضوعى » ويحاول الكشف عما اصطالحنا على تسميته باسم « الظاهرة » ، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول أن ما يهم أولاً وقبل كل شئ ليس هو « الفكرة الذاتية » ، ولا هو النشاط الذى تقوم به الذات (وأن كان من الممكن أن يصبح هذا النشاط نفسه موضوعاً لمثل هذا البحث) ، بل ما يهمه هو هذا الذى يعرف ، أو يوضع موضع الشك ، أو يحب ، أو يرفض . . . الخ ، وحينما تكون بازاء تمثل خالص ، فانه لا بد لنا من أن نميز المتصور (بكسر الواو) عن المتصور (بفتح الواو) . ولنفرض مثلاً أننا نتصور ذلك الكائن الخرافى الذى يسمونه « القنطور » ، فلا بد لنا فى هذه الحالة من أن نميز بعناية هذا الموضوع نفسه عن أفعالنا النفسية . ومع ذلك فإن هوسرل يرفض « الأفلاطونية » : لأنه لا يمكن أن تكون الأفلاطونية صحيحة ، اللهم إلا اذا كان كل موضوع حقيقة واقعية (٦٢) .

ويشبه هوسرل الفئومئولوجيا بعلم الحساب الخالص ، وعلم الهندسة الخالص ، وكلاهما ليس بعلم تجريبى . انهما بالأحرى يهتمان بأنماط معينة من الأبنية والعلاقات الداخلية بينها ، وتعتبر قضاياها عن الخصائص المميزة لهذه الأبنية بدون أى إشارة الى خصائص تجريبية ،

(٦٢) د . زكريا إبراهيم : دراسات فى الفلسفة المعاصرة ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩

انها كما يقول هوسرل « علوم الماهيات او العلوم الايدتيكية » (ويستخدم هوسرل التعبيرين : ماهية essence وايدتيكى eidetic ليعبر عن نفس المعنى) . ويرى هوسرل ان العلاقة بين الفنومولوجيا وعلم النفس تشبه تماما العلاقة بين الرياضيات والفيزياء . فعلم النفس علم تجريبي مثل الفيزياء. ويعتمد على الفنومولوجيا لتوضيح تصوراته الاساسية كما تعتمد الفيزياء على الرياضة بنفس الطريقة لتوضيح تصوراتها الاساسية . الا ان هذا التشبيه عليه ان يراعى ان الفنومولوجيا تقع من الناحية الفلسفية في مكانة اعلى من الرياضيات لأن التصورات الرياضية نفسها تحتاج الى توضيح فنومولوجى . وتقع الفنومولوجيا في مرتبة اعلى ايضا من المنطق : فمن طريق استكشاف الابنية الاساسية الخاصة بالتفكير والمعرفة يمكن للأفكار المنطقية الوصول الى الوضوح والتحديد المعرفى . اى ان الفنومولوجيا تساعد على توضيح أسس المعرفة ذاتها (٦٣) .

ويمكن تلخيص موقف هوسرل كالاتى : اننا نعبر عن المعرفة بواسطة الأحكام ، ويتم التثبت من الأحكام عن طريق الخبرة البديهية ويوجد نوعين متميزين من هذه الخبرة : الخبرة البديهية المشار اليها باسم الادراك الحسى sense perception ثم الخبرة البديهية التى يطلق عليها هوسرل اسم حدس خاص بالماهية او حدس ايديتيكي essential or iedetic وهى تهدف الى عيان الماهية. التى نغطيها منذها الى الأنماط والابنية والعلاقات الخاصة بالمعنى . ان وجود اختلاف اساسى بين هذين النوعين من الخبرة البديهية اى بين النظرة الحسية والنظرة الماهوية هو فى حد ذاته واقعة فنومولوجية . ويريد هوسرل من وراء ذلك ان يبين ان هذا مرتبط بتحليل الخبرات ذاتها ، لان الخبرات نفسها يمكن ان تخضع للحدس الايديتيكي واننا لنمستطيع

(63) Husserl Logical Investigations in Pivcevie op. cit.

P. VIII.

بالتفكير الفنونولوجى أن نتجرد من كل الاعتبارات الوجودية المرتبطة بالخبرات مثل الأحداث التجريبية ثم نركز فقط على البناء الأيديتيكى . ويعطينا هذا - فى حالة الخبرات المعرفية ، وهى التى يهتم بها هوسرل بشكل خاص - امكانية التوصل الى استبصارات معرفية هامة كما يسمح لنا بتوضيح الافتراضات الأساسية لكل دعاوى المعرفة (٦٤) .

ان بيت القصيد فى الفنونولوجيا اذن ليس هو هذا المنهج الذى اراد هوسرل ان يضعه للوصول الى الماهيات ، بل هو نظرية « التحقق » التى اراد هوسرل من وراءها توفير البيانات اللازمة ، والبداهات المطلوبة لتحقيق الحدث ذهنى . فليست البداهة « ضمانا » يكفل الحقيقة ، بل هى مجرد علامة او قرينة على الحقيقة ، علامة او قرينة تقبل التعديل والتصحيح والنقد والتكملة المستمرة . ولما كان جوهر عملية التفكير - فى نظر هوسرل - انما هو القصد أو التصويب : بمعنى أن الفكر يتجه دائما نحو موضوع عال على الفعل الذى يكونه ، فان نظرية البداهة عند هوسرل تتخذ طابعا جديدا يتلائم مع هذه النظرة القصدية الى الوعى أو الشعور . وهنا يقرر ان عملية « التصويب » او « القصد » تحتل اشكالا عدة وتتخذ انماطا مختلفة ، تقابلها اشكال عدة وانماط مختلفة من « البداهات » او « البيانات » (٦٥) .

وقد ادخل هوسرل فى فلسفته تصورات او مفاهيم جديدة مثل « وعى او شعور متعال » ، « ذاتية متعالية » ، « ذات متعالية » . ان كراهية هوسرل للنسبية فى أى شكل من اشكالها ، ورغبته فى استبعاد أى اقتراح لعلم نفس متطرف من نظريته عن الأفعال القصدية ، واهتمامه المركز بالشروط القبلية لامكانية التوصل الى معرفة موضوعية ، كل هذا أدى به

(64) Ibid. p. IX.

(٦٥) د . زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

على فضيل وجهة نظر متعالية ومن هنا اتجه الى منهج خاص يسمح له
بتطوير الفنونولوجيا « كعلم متعال » .

ونظر هوسرل الى الوعى باعتباره دائما وعيا بشئ ما ، لذا وجد
جانبان متكاملان للوعى :

الاول : هو عبارة عن العملية التى اعى بها ذاتى (الكوجيتو) ،
وهى تأخذ اشكالا مختلفة (التذكر ، الادراك الحسى ، التقسيم) .

والثانى : هو موضوع الوعى *cogitatum* . ويقوم العالم
الفنومولوجى بدراسة الوعى بواسطة منهج خاص هو منهج « الرد
الفنومولوجى *phenomenological reduction* » ، ويحاول هذا المنهج
كشف عالم الوجود (الوعى « الخالص ») الذى يظل غير متأثر بالافكار
التي نحملها فى مواقفنا الطبيعية : ويعتبر النظر الى الوعى باعتباره
منطقة « فريدة » من الوجود احد المبادئ الاولى للفنونولوجيا . ويمكن
كشف هذه المنطقة بواسطة المنهج الفنومولوجى مع الاحتفاظ بها سليمة
لا تتشوه او تتغير من جراء هذا المنهج . وهكذا يظل الوعى منبع أو اصل
الكائن كله ، ولا يمكن التوصل الى خصائصه الرئيسية الا عن طريق تحليلات
وقائعية أو طبيعية أو نفسية أو اجتماعية . وهكذا تبدو الاسس الاصلية
للوعى الخالص مفتوحة امام الوصف القصدى والحدسى للمنهج
الفنومولوجى وحده (٦٦) .

وهكذا نرى ان منهج الرد لا يمت بصلة الى المعنى الذى رايناه لدى

(66) M. Phillipson , *Phenomenological philosophy and sociology in P. Felmer, M. Phillipson, D. Silverman, D. Walsh. New Directions in Sociological Theory . London : Collier, Macmillan Press 1973, pp. 119 - 163 , p. 123.*

الاتجاهات الوضعية باعتباره احتزال شيء أو تفسيره بالرجوع الى شيء آخر . ان الرد فى الفنونولوجيا هو الرجوع الى الأصل أى الى الأشياء الاولى التى اصبحت غامضة أو اختفت أو حجبت بواسطة أشياء أخرى .

ولا شك ننا نرى عبارات مختلفة للتعبير عن نفس المنهج ، فاحيانا يقال الرد واحيانا يقال الابوخية époque وقد يقال وضع العالم خارج اللعبة أو تعليق الحكم ، أو وضع العالم بين قوسين . . . الخ . وفى الواقع ان هذا المنهج يقوم على تمييز هوسرل بين الموقف الطبيعى الذى يوضح كل من نظرة العلوم الطبيعية والثقافية الساذجة ونظرة الحس الشائع للحياة اليومية وبين موقف الشك الراديكالى المؤدى الى ايقاف الاعتقاد فى العالم وذلك بواسطة عملية الرد الفنونولوجى . فاذا ما قمنا باستبعاد احكام موقفى الطبيعى المفروغ منه فانى اجد نفسى فى مواجهة الموضوعات القصدية الخاصة بوعى الخالص وحدها . ان ما يتبقى اذن هو كل ما هو « حقيقى » و « موضوعى » ومتضمنا لمعلوماتى عن الخبرة الحدية ، وهو ما تحاول الفنونولوجيا الوصول اليه ووصفه .

لقد دعى هوسرل الى دراسة وقائع الفكر والمعرفة دراسة وصفية محضة ، دون المخاطرة بوضع أى فرض ميتافيزيقى كائنا ما كان ، على طريقة كل من المثاليين والواقعيين . ولئن كان هوسرل قد نادى بالعودة الى الأشياء نفسها ، الا ان هذه الدعوة لم تكن فى صميمها سوى مجرد رفض لشتى الانظار الميتافيزيقية ، من اجل رؤية ما تنطوى عليه « معطيات » الشعور نفسها على نحو ما نعيشها فى صميم خبرتنا ، دون التقييد بأى رأى سابق ، أو دون الاخذ بأى تفسير مسبق . ان « فلسفة الظواهر » تابتى منذ البداية الانتقال الى « التفسير » لأن تفسير اللون الأحمر الذى يضيء لى الآن مكتبى انما يعنى الانتقال الى « شيء آخر » غير هذا اللون العينى الذى افكر فيه ، من اجل الانتباه الى ظاهرة أخرى كالشدة أو الذبذبة الضوئية أو ما الى ذلك . وعلى حين ان عالم الطبيعية يترك الشيء نفسه لى يفهمه بظاهرة أخرى أو علاقة أخرى ، نجد ان فيلسوف الظواهر

يريد ان يبقى وجهها لوجه بازاء هذا الشيء لى يقتصر على وصفه واكتشاف واجتلاء حقيقته (٦٧) .

والحق ان هوسرل قد أظهرنا على ان الانسان ليس منطقة من مناطق الطبيعية ، تربطها بالعالم الخارجى بعض العلاقات السببية ، وانما هو وعى اصيل هيهات لنا ان نجعل منه مجرد موضوع يقبل التفسير . ومعنى هذا ان كل حالة من حالات النفس ، سواء اكانت رغبة ، ام انفعالا ، ام صورة ذهنية ، لا يمكن ان تعد مجرد حلقة فى سلسلة طبيعية من العلل والمعلولات ، بل لا بد من العمل على « فهم » العلاقة الارجابية التى تربطنى بكل حدث من أحداث حياتى النفسية ، حتى اتحقق من اننى فاعل مسئول ، واننى الأصل فى شتى مظاهر سلوكى (٦٨) .

ولا تخرج الفنونولوجيا بهذا المعنى عن كثير من الدعوات المعاصرة المشابهة التى تحاول البحث عن بعد انسانى خاص بعلوم الانسان ، لا يتمثل فى التجارب الحسية كما كان عند التجريبيين ابتداء من يكون حتى الوضعية بكل صورها . ان الفنونولوجيا دعوة للحياة التى لا يمكن وضعها فى نطاق العقل او فى نطاق المادة (٦٩) .

لقد عملت ازمة العلوم الانسانية على ظهور نزعة لا عقلية متطرفة ، حتى اصبح الكثيرون يعدون « النزعة العقلية » نفسها مجرد ناتج تاريخى عرضى لبعض الظروف الخارجية . ولهذا فقد وجدهوسرل نفسه مضطرا الى اشارة مشكلة اساس العلم بصفة عامة ، واساس العلوم الانسانية بصفة خاصة . وقد كان الحافز له على اشارة هذه المشكلة هو اهتمامه بالبالسغ

(٦٧) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٣٦٤ .

(٦٨) المرجع السابق ، ص ٣٦٩ .

(٦٩) د . حسن حنفى : الظاهريات وازمة العلوم الاوروبية ، الفكر

المعاصر ، ع ٩ يناير ١٩٧٠ ، ص ٣٨ - ٥٠ ، ص .

بنتيبيت دعائم الفلسفة ، وحرصه الشديد على اعادة بناء « اليقين » (٧٠) .

ولا شك ان هوسرل قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، الا انه حاول دائما ان يبتعد عن المبالغة فى تقدير علم معين او منهج معين . ولم ينظر هوسرل الى العلم الطبيعى كنموذج للمعرفة او كمثل أعلى يجب على العلوم الاخرى ان تحتذيه او كطريق وحيد لكشف الحقيقة ، وبذا تميز بوضوح عن الاتجاه الوضعى الذى سبق ان رأينا كيف انه اشتق تصوره للمعرفة من العلم التجريبي نافيا إمكانية أى طريق آخر .

لقد رأى هوسرل ان العلم الحديث لا يستطيع بعد ان فصل نفسه عن الفلسفة اى يقدم اجوبة على بعض الاسئلة الاولى التى يضعها الانسان فى كل زمان . لقد قامت النزعة التجريبية فى الفلسفة الحديثة ابتداء من لوك وهيوم على الاكتفاء الساذج بالعلم كنتيجة طبيعية للفصل بين العلم والفلسفة مما ادى بالعلم الى العجز عن فحص افتراضاته الخاصة . اذا رأى هوسرل ان هذا الاتجاه التجريبي لم يكن جادا فى توضيح اسس العلم ولن يستطيع حل « ازمة » العلم الحديث . كل ذلك بسبب انفصاله عن الموضوعات الأساسية للحياة التى تملك معنى خاصا بها (٧١) .

ان نظرة هوسرل الى العلم الطبيعى قائمة على كون الذات ^{to the subject} والموضوع غير منفصلين . فالذات لا تمثل شيئا بدون العالم ، فهى دائما « ممثلة » بهذا العالم بسبب قصدية الوعى او الشعور . والموضوع يحتاج الى التثبت داخل الوعى الذاتى . ولما كانت العمليات العلمية بالمفهوم الفنونولوجى هى افعالا للوعى ؛ معقدة فى

(٧٠) د. زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٣٦٧ .

(71) T. Luckman. Philosophy, Science and everyday Life.

in M. Natanson . Phenomenology and the Social Sciences Op. Cit.
pp. 143 - 185, p. 144.

بنائها ومتميزة وقصدية ، فان واقعية العلوم تقوم على تلك الأفعال المحددة التي يقوم بها الأفراد بطريقة تجعلها معطاه على أساس أنها أفعال عادية للوعي (٧٢) .

ان الظاهرات لم تجعلنا فى الواقع نفقد العالم بوصفه موضوعا ظاهريا فى « التعليق » الكلى من حيث وجود أو عدم وجود العالم .
اننا نحتفظ به بوصفه الموضوع المفكر فيه . . . ان الوعي أو الشعور بهذا الكون هو دائما حاضر فى وحدة الوعي أو الشعور الذى يمكن أن يصير هو ذاتا وعيا أو شعورا ادراكيا ، بل هو يصبح بالفعل فى صورته اللانهائية فى المكان والزمان (٧٣) .

ولا يعتبر عالم العلم عالما ثانيا يجاور عالم الواقع اليومى أو يتعال عليه ، بل هو هذا العالم نفسه : يعاش ويختبر من جهة ، ويدرس بطريقة موضوعية من جهة أخرى . وقد أدى هذا التفكير بهوسرل الى موضوع اساسى طرحه فى سؤال هام : كيف يمكننا ان نفهم الموضوعية فى العالم بواسطة العلم ، وكيف يمكن ان نفهم العلم بشكل عام باعتباره انجازا للفاعل نفسه actor ؟

واذا كان مبدأ الذاتية فى فنومولوجيا هوسرل هو الذى أبى التفرقة بين ذات وموضوع ، فهو أيضا الذى أدى الى موضوع الرد الفنومولوجى .
وقد قامت هذه العملية عند هوسرل على القول بالتوقف عن الحكم تجاه

(72) E. Ströker « Edmund Husserl's Phenomenology as Foundation of Natural Science in The Latter Husserl and the Idea of Phenomenology. Papers and Debates of the International Phenomenological Conference : Univ. of Waterloo Canada. Ap. 9 - 14 , 1986.

(٧٣) هوسرل : التاملات الديكارتية ، ص ١٤٥ .

كل من الأفعال المرتبطة بالوجودات ، وكافة اشكال الوجود التى تتخذها الموضوعات القصدية ، وتلك التى تصاحب كل افعال المرتبطة بتفكيرنا اليومى كما فى تفكيرنا العلمى . ان هذه العملية لا تقوم على سلب العالم من كافة اشكال الوجود ، وانما تهدف الى التفكير فى الأحكام والمعتقدات مستخدمة منهج التحليل القصدى الذى يتيح التعمق فى الوقائع . ويؤدى هذا الى التوصل للأبنية الحقيقية للوعى . وينتهى هوسرل الى القول بان كافة العمليات والاشياء الموضوعية تجد أساسها فى مبدأ الذاتية (٧٤) .

وما دام العلم الطبيعى يسعى الى معرفة لها طبيعة خارجية فقد اثار هوسرل سؤالين هما : كيف يمكن للطبيعة وهى شئ خارجى أن تكون معطيا للوعى ؟ وبأى طريقة من طرق التفكير يمكن للموضوعية العلمية ان تتكشف ؟ (٧٥) وقد توصل هوسرل الى القول بان الطبيعة لا تعنى شيئا الا اذا ارتبطت بعنى انساني ، ويشكل جسدى لهذا الوجود الانسانى . ويوحى هذا التفكير بأن فلسفة هوسرل تنظر الى الكائن الحى باعتباره ليس فقط أصل الطبيعة وانما هو ايضا أصل العلم الطبيعى . ان الانسان اذن هو أساس العلم ، ويرجع هذا الى مجرد وجوده كائن من مما يجعل الطبيعة موضوعا علميا له . اما عن السؤال الثانى وهو بحث كيفية قيام العلم الطبيعى فى شكله الموضوعى ، فينتهى فيه هوسرل الى القول بان الموضوعية بمعناها الخاص تعنى كيفية معينة من القضايا والتقريرات الخاصة بموضوعات محددة وتلقى تأييدا من الجميع ، اى ان الموضوعية لا يمكن التوصل اليها الا بتعدد الذوات . معنى ذلك ان الموضوعية تشير بالاضافة الى الذاتية subjectivity الى التواصل او العلاقة بين الذوات intersubjectivity .

(74) Stroker. op. cit. p. 252 .

(75) Ibid. p. 253.

وهكذا يصل هوسرل الى اساس العلم وهو الذاتية . لقد حاول هوسرل اثبات ان العلم لا يتكون فقط بواسطة افراد عن طريق بعض الانجازات الخاصة بالوعى ولكن اكثر من ذلك حاول ان يبين ان هذه الانجازات تجد اسمها فى الوجود الجسدى للفرد ذاته (٧٦) . ويقول هوسرل فى هذا الصدد : « ان العلم الانسانى هو علم الذاتية الانسانية فى علاقتها الواعية بالعالم كما يبدو لها وكما يؤثر فيها عن طريق العقل والعاطفة ، وهو ايضا علم العالم باعتباره محيطا بالافراد اى العالم كما يبدو لهم بما يملكه من صدق (٧٧) .

لقد عبر هوسرل فى كتابه « أزمة العلوم الاوروبية » عن الموضع الخطير الذى نجم عن فقدان الصلة بين العلم وكل من اهتمامات الانسان العميقة وقيمة وتطلعاته فى الحياة ، وذلك على الرغم من تقدم العلم او بسبب هذا التقدم . وليست الطبيعة ك مجال للبحث العلمى واقعا بمقدور الانسان ان يفهمه باعتباره مجالا للحياة الفعلية . ففى الواقع ان تقدم العلم صاحبة ابتعاد الانسان عن الواقع المتكشف علميا . لقد حاول هوسرل فى هذا الكتاب ان يحلل هذا الوضع ابتداء من ديكارت وجاليليو ، ويطالب هوسرل لحل لهذه الازمة ان تقوم الفلسفة بدور فعال عن طريق المحافظة على المعلومات وتجديدها فى الوعى ، والبحث عن مصدر العلم واسمه الوقائعية والتاريخية . وهكذا نشأت الفنونولوجيا المتعالية من اجل انقاذ العلم الاوروبى المهدهد . والمنهج المطلوب هو المنهج المتعال وذلك من اجل بيان الشروط الذاتية للمعرفة العلمية وبالتالي الموضوعية التى تكونت معها . ان هوسرل ينظر الى العلم هنا ليس كمجرد بناء نظرى ولكن باعتباره اعلى شكل من اشكال النشاط الانسانى Praxis ، الذى وصل

(76) Ibid. p. 255 .

(77) E. Husserl. The Crisis of European Sciences and Transcendental Phenomenology . Trans. by D. Carr. Evanston : Northwestern Univ. Press. 1970, p. 318.

الى المرحلة الحالية بعد أن تطور تاريخيا ومعنى ذلك أن الموضوع المتعال يتضمن التاريخ لأنه يتضمن أشكال الذاتية التي يعيشها الانسان فى حياته الفعلية . أن مطالبة هوسرل بأساس فلسفى للعلم رجع الى رغبته فى معرفة كيف ينتمى العلم الى عالم الحياة : life - world وكيف يجد فيه اساسه من الناحية التاريخية ، وأخيرا لمعرفة أين يقف العلم اليوم (٧٨) .

أن القضية العامة للموقف الطبيعى فى نظر هوسرل تشير الى أن العالم الطبيعى كله موجود « هنا ، من أجلنا » وفى متناول أيدينا ، وسوف يظل دائما هنا ، هذا العالم الطبيعى هو « عالم الواقعة » fact world الذى نظل مستمرين فى الوعى به (٧٩) . أن الموقف الطبيعى بالنسبة لهوسرل ليس الا الموقف الساذج للذات ، ويتميز بالتفكير العملى للحياة اليومية حيث توجد العوالم الاجتماعية والطبيعية وحيث تؤخذ هذه العوالم كشيء مسلم به أن توضيح هوسرل للموقف الطبيعى ووصفه له هى أولى خطوات الوصول الى دراسات عن العالم المتعال للوعى الخاص ، وهكذا مهد هوسرل الطريق لالتقاء الفنونولوجيا بالعلوم الانسانية .

واهتم هوسرل بعلم النفس وموقعه من العلوم الانسانية متتبعا فى ذلك خطى استاذة « برنتانو » . وقد لقى علم النفس فى هذا العصر - أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين - اهتماما خاصا ، واعتبر علما أساسيا لكل علوم الانسان . وقد نتج عن هذا الاهتمام فى هذه الحقبة الزمنية شكلين من أشكال البحث والمنهج : الأول طبيعى علمى : والثانى انمائى ، مما أدى الى ثنائية داخل هذا العلم . وإننا لنجد فى كتاب هوسرل « افكار » أقرارا بوجود الاتجاهين ، وقد طور هوسرل تصوره

(78) Ströker . op. cit. p. 256.

(79) E. Husserl. Ideas. London : Allen & Unwin 1967 p. 110

Quoted in Phillipson op. cit. p. 127.

فى كتاب « الازمة » . وقد اعترف هوسرل بالاتجاهين من حيث المبدأ ،
ورأى امكانية تعريف الروح the spirit باعتبارها معتمدة على الطبيعة ،
وذلك حتى يمكن ان تصبح هى نفسها طبيعية . الا ان ذلك يحدث فى
حدود معينة اذا تجاوزناها افتقدنا كل ما يضىء معنى على الطبيعة .
ان الطبيعة هى مجال النسبى ، ويتعلق النسبى فى النهاية بمطلق واحد
بؤيدها هو الروح The spirit .

ويربط هوسرل بين الفنونولوجيا وبين اساس الدراسات الانسانية
وذلك داخل علم عام للعقل . فقد ابد هوسرل منهج العلوم الانسانية
باعتبارها تعتمد على حدس واقعى للعالم كما يبدو لنا بشكل مباشر ، اى
عالم الحياة الذى نعيش فيه كبشر . وبالتالي فان هذا العالم هو اساس
الدراسات الانسانية . ويرجع هذا الاتجاه الى ان الفنونولوجيا نفسها
قد تبنت وصف عالم الحياة كاساس للوصول الى الدقة والموضوعية والقدرة
على الفهم والتفسير (٧٠) .

وتعتبر كتابات هوسرل فى هذا الموضوع كرد فعل للنزعة النفسية
المتطرفة psychologism ويمكن النظر اليها كمحاولات لتقديم اساس
فلسفى سليم لكل من علم النفس وعلوم الانسان والعلوم الطبيعية . فعلوم
الانسان التى تفسر خبرات الانسان كما تحدد لها الاسباب الخارجية او
الداخلية - وسواء كانت نفسية متطرفة ، او اجتماعية متطرفة sociologism
او تاريخية متطرفة historicism - تتعرض لفشل . لقد رأى هوسرل
ان علم النفس الطبيعى الذى يضع نفسه على غرار العلوم الطبيعية ، كما
يفعل علم الاجتماع ، يفشل فى معرفة حدوده ، وذلك لان « معنى »
الظواهر التى يدرسها يفلت منه . لقد رأى هوسرل ان التصورات والمناهج

(80) K. Kuypers. The Sciences of Man and the Theory of
Huserl's two Attitudes in The Latter Husserl op. Cit. pp. 186 -
195 , p . 197 .

غير الواضحة والمشوشة لعلم النفس تقوم بفرض مضمون وشكل معين على الخبرة ، ويرجع هذا الى قيامه باستبعاد المعطيات الظاهرية (phenomenal) للخبرة . ان المنهج الصحيح فى نظر هوسرل هو الذى يتبع طبيعة الأشياء التى تدرس وليس توقعاتنا او تصوراتنا المسبقة (٨١) .

نجد اذن ان هوسرل بدأ متأثرا ببرنتانو وانتهى كناقذ لاتجاهه النفسى المتطرف ، ذلك ان اهتمامه المستمر بالمنطق ومشكلة المعنى ادى الى الاقتناع بانه لا يمكن تفسير العنصر الموضوعى فى المعرفة ابتداء من مقدمات نفسية . ولا يمكن ادراك الذاتية عن طريق نزعة نفسية متطرفة لاننا لا بد ان نضع فى الاعتبار الجانب الذاتى للمعرفة كما اننا نحتاج الى تصور معين للذاتية . لقد انحصر اهتمام هوسرل فى معرفة الطريقة التى تساهم بها القصدية للتوصل الى تفسير الشروط العقلية للحقيقة الموضوعية .

كما ان علم النفس عند برنتانو يهتم بدراسة الموضوعات الفردية من حيث هى فردية . اما ظاهريات هوسرل فهى تعنى بدراسة الموضوعات من حيث هى جزئية وكلية ، أى من حيث هى ظاهرة وماهية . ان الرد الماهوى او رد الأشياء الى ماهياتها هو أهم ما يميز الظاهريات الجديدة عند هوسرل عن علم النفس عند برنتانو (٨٢) .

وينطبق النقد الموجه الى علم النفس على الاتجاه السوسولوجى وذلك سواء بالنسبة للتصورات التى تقف خلف النظرية او بالنسبة للمناهج التى تتخذ من العلوم الطبيعية مثلا لها . لقد اُغفل الاتجاه السوسولوجى بدوره معنى ظواهر الوعى واستخدم مناهج لا تصلح لها .

(81) E. Husserl Phenomenology and the Crisis of Philosophy. New York Harper Torch Books 1965 p. 102 Quoted in Phillipson op . cit. p. 121 .

(٨٢) هوسرل : التاملات الديكارتية ، مقدمة المترجمة ، ص ٢٢ .

ان النقد الهوسرلى للعلوم الانسانية يقوم على الحاجة الى اعادة تعريف لكل من موضوعات الدراسة ، والمناهج ، والتفسيرات الاجتماعية وذلك فى ضوء منهج فنومنولوجى يقوم على الرجوع الى الأشياء الخاصة بالوعى ذاته (٨٣) .

ان حديث هوسرل عن الدراسات الانسانية ودفاعه عنها يؤدى الى جعلها ذات أولوية على العلوم الطبيعية ، ما دام فى استطاعتها التوصل الى عمق فلسفى لا تقدر عليه العلوم الطبيعية . ان العلوم الاجتماعية هى علوم الذاتية وهى علامة الصدق فى نظر هوسرل . ان الدراسات الانسانية فى شكلها الاصيل هى الحقيقية ولا بد ان تحتفظ بالشكل الحدسى فى تطورها التالى . ان العلوم الطبيعية ليست الا مشروعاً جماعياً يساهم فيه العلماء ويمكن من خلال سير هذه العلوم نحو الدقة والموضوعية تفسيرها وفهمها بواسطة الاتجاه التاريخى وحده (٨٤) .

لقد اعترف هوسرل بوجود علم موضوعى للدراسات الانسانية فى مواجهة الدراسات التاريخية كما انه اقر بوجود علم فنومنولوجى قبلى للوجود . ويقوم العلم الموضوعى فى نظره على امكانية بناء عالم الخبرة الوقائعى وذلك بطريقة رياضية . نجدُ أذن ان هوسرل على الرغم من اعترافه بالميكوفيزيقا وبشكل موضوعى بالدراسات الانسانية ، نجده يعمل حدسياً بواسطة مناهج فيزيائية ورياضية . الا ان اساسه الاول والرئيسى لكافة الدراسات الانسانية هو الذاتية (٨٥) .

ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن هوسرل الا ان نؤكد ان قوله بالوعى ، والماهية والمعنى والقصدية والحدس والذاتية ، لا يعنى مطلقاً رده الى

(83) Phillipson op. cit. p. 122.

(84) Kuypers op. cit. p. 192.

(85) Ibid. p. 193 .

اتجاه مثالى وانما هو رجوع الى اصول الاشياء وطلبائعها الاصلية بهدف الكشف عنها . وقيام منهج الدراسة الايديكى على الوصف المجرد للوعى ليس الا محاولة لتفسير معنى عالم الحياة . ومن هنا كان اهتمام هوسرل اساسا بالعلوم الانسانية لانها مجال النشاط الانسانى ذو المعنى ، الذى هو فى وقت واحد هدفا للدراسة ووسيلة او عملية تتحقق بواسطتها الدراسة .

لقد ارادت الفنونولوجيا للفلسفة أن تصبح علما دقيقا فتقوم بدراسة الظواهر ، بهذا المعنى الخاص « للظاهرة » الذى اضافها عليها هوسرل والمتمثل فى محاولة الوصول الى عالم الماهيات من خلال ما هو ميعطى او ما هو متبدى فى الوعى . لقد رفض هوسرل النزعات الاسمية التجريبية التى تفسر الاشياء فى ضوء علل واسباب اى بالرد او الرجوع الى اشياء اخرى غريبة عنها ، ومن هنا وقوعها فى النسبية . بينما حاول هو التركيز على المضمون القصدى للخبرات المنطقية مستخدما المعنى الخاص للرد الذى يقوم على تنقية ظواهر الوعى من كافة الشوائب الغريبة عنها توصلا الى الاشياء الاصلية .



رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظريته الى التفسير :

كان شغل شوتز (١٨٩٩ - ١٩٥٩) الشاغل هو اقامة علم اجتماع على اساس اعتبارات فنونولوجية مع تقديم اسم فلسفية متينة لمنهج العلوم الانسانية . وقد تأثر شوتز فى سعيه لتحقيق هدفه بكل من دلتاى فى رفضه للتفسيرات السببية المستخدمة فى العلوم الفيزيائية كنموذج لاكتساب معرفة بالعالم الانسانى القائم على التوصل بين الذوات ، كما تأثر بتحليلات ريكرت عن الفارق المنهجى بين كل من العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية . كما تأثر شوتز بالاتماط المثالية التى قدمها فيير

ويعلم الاجتماع الفبيرى . أما بالنسبة لأعماله الفلسفية فقد استقى تصورات من هنرى برجسون ومن هوسرل خاصة فى قيامه بتطبيق فنومولوجيا هوسرل على مشاكل الواقع الاجتماعى .

واكد شوتز على ان الحل الملائم للمشاكل المنهجية الاساسية فى علوم الانسانية يكمن فقط فى الوصف الدقيق للجانب الانسانى لموضوعات تلك العلوم . وقد راى ان هذا موجود فى الفنومولوجيا التى قدمها هوسرل ، ويتبقى على شوتز تطبيق المنهج الفنومولوجى على العالم الاجتماعى الذى هو نتاج كل من الفعل الرمضى الانسانى والعمل المادى . وتعتبر محاولة شوتز لتوضيح العلاقة بين مناهج ونظريات العلم الاجتماعى والاسس التجريبية اى عالم الحياة اليومية ، تعتبر مساهمة فى تطبيق افكار هوسرل على العلوم الاجتماعية (٨٦) .

ان مهمة الفيلسوف الفنومولوجى المهتم بالواقع الاجتماعى تتمثل فى رأى شوتز - فى القيام بكشف ووصف وتحليل الخصائص الاساسية للعالم الدنيوى Mundane world ، ومن هذا المنطلق اخذت كل كتابات شوتز ابتداء من مؤلفه « فنومولوجيا العالم الاجتماعى » عام ١٩٣٢ حتى مجموعة مقالاته التى نشرت بعد وفاته ، اخذت كنقطة انطلاق وكموضوع يحتاج الى دراسة مفصلة ، واقع العالم اليومى .

وقد اكد شوتز منذ البداية على ان الهدف التاويلى لعلم الاجتماع هو فهم المعنى الذى يضيفه الفاعل على فعله ، اى المعنى الذى يملكه بصدده ولا يعنى هذا مجرد فهم للمعانى الموضوعية للفعل الاجتماعى . وقد قامت الفنومولوجيا لديه على عالم العمل فى الحياة اليومية ، وعالم

(86) A. Schutz and T. Luckmann. The Structures of the Life - World. Trans. by R. M. Zaner and H. T. Engelhardt London : Heineman 1974 , preface p. XIII.

الحس الشائع الذى كان يسميه هوسرل Lebenswelt
اى عالم الموقف الطبيعى . وقد رأى شوتز ان الفعل action
وليس الادراك الحسى Perception هو نقطة بداية ملائمة للعلوم
الاجتماعية (٨٧) .

ولم يمنع تأثر شوتز بفنومنولوجيا هوسرل وبنظرية الفعل الانسانى
عند فيبر انطلاقة فى استقلال عنهم ، فكانت مجموعة مقالاته وعددها
٣٠ مقالا التى جمعت وترجمت فى مؤلف من ثلاثة اجزاء نشر بعد وفاته
تحت عنوان « مجموعة مقالات » Collected Papers . الجزء الاول
نشر عام ١٩٦٢ وعنوانه « مشكلة الواقع الاجتماعى » The Problem
of Social Reality ، والثانى نشر عام ١٩٦٤ ، وعنوانه « دراسات فى
النظرية الاجتماعية » Studies in social Theory . والثالث نشر عام
١٩٦٦ وعنوانه « دراسات فى الفلسفة الفنومنولوجية »
Studies in Phenomenological Philosophy .

وقد توقفت فى هذه المقالات موضوعات واسعة ومتعددة تنتقل
من دراسة التواصل ، والعلاقات والرموز ، واللفظ ، والتنميط والمعرفة ،
والواقعيات المتعددة ، والفعل الاجتماعى ، الى دراسة منهج العلوم
الاجتماعية . ثم الى دراسة المناقشات النقدية لكل من وليم جيمس وماكس
شيرل وجون بول سارتر وبالطبع هوسرل (٨٨) .

لقد اكد شوتز على منهج الفهم الذاتى واعتبره اداة فنية للتعامل
مع الشؤون الانسانية ، فهو ليس مجرد طريقة يستخدمها العالم الاجتماعى
ولكنه الشكل التجريبي الذه يستطيع من خلاله معرفة العالم الاجتماعى

(87) W. Kelly and A. Tallon. Reading in Philosophy of Man.
New York McGraw - Hill Book Co. 1972, p. 198.

(88) Schutz op. cit. p. XIII.

الثقافى . ذلك ان الفهم مسألة خاصة بالملاحظ ولا يمكن التحكم فيها عن طريق خبرات الملاحظين الآخرين .

ويؤيد شوتز كون منهج الفهم « ذاتى » ، واذا كان المدافعون عن هذا المنهج أو الناقدون له قد ابرزوا هذه الخاصة – الذاتية – فلا شك ان لديهم اسباب معقولة لهذا . الناقدون يقولون انه « ذاتى » لانهم يرون ان فهم دوافع افعال الآخرين تعتمد على الحدس وهو موضوع خاص غير قابل للتحكم أو الاختبار . لما المؤيدون من العلماء الاجتماعيين من امثال فيبر فانهم يصفون الفهم « بذاتى » لانهم يرون ان هدفه هو معرفة ما يقصده الفاعل بفعله فى مقابل المعنى الذى يثيره الفعل لدى شخص آخر ، قد يشترك مع الفاعل فى فعله أو حتى لدى ملاحظ محايد . ان الخلاف يرجع فى نظر شوتز الى الفشل فى التمييز بين الفهم باعتباره شكلا تجريبيا للمعرفة العامة للمشئون الانسانية أو موضوعا ابستمولوجيا أو طريقة معينة للعلوم الاجتماعية (٨٩) .

لقد رأى شوتز ان على السلوكية كنظام موضوعى فى العلوم الاجتماعية ان تفسر بطريقة علمية صحيحة ما يحدث بالفعل فى العالم الاجتماعى لحياتنا اليومية ، الا انها تقع فى خطأ احلال عالم خيالى محل الحقيقية الاجتماعية ، وذلك عن طريق تطبيقها لمبادئ منهجية معينة على العلوم الاجتماعية وهى مبادئ تأكدت فعاليتها فى مجالات اخرى ، الا انها تفشل فى مجال التواصل أو العلاقة بين الذات intersubjectivity (٩٠) . ومن

(89) A. Schutz Concept and Theory Fomration in the Social Sciences in M. Natanson . The Philosophy of Social Sciences op. cit. p. 240.

(90) A. Schutz . The Social World and the Theory of Social Action in Braybrook (ed.). Philosophical Problems in the Social Sciences op. Cit . pp. 53 - 67 . p . 55 .

الضرورى لكى نتوصل الى نظرية للفعل ان نحتفظ بوجهة النظر الذاتية،
التي تفقد النظرية بدونها اهم اسمها ، وبالذات الاهتمام بالعالم الاجتماعى
للحياة اليومية . ان الاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية هو وحدة الضمان
الموحد والكافى للتأكد بان العالم الخيالى غير الموجود الذى يبينه
الملاحظ العلمى لن يأخذ مكان العالم الاجتماعى الواقعى (٩١) .

وقد رأى شوتز ان البناءات العلمية لابد وان تتضمن اشارة الى
المعنى الذاتى الموجود لدى الفاعل تجاه الفعل ، وهذا ما فهمه فيبر
بمصادرته الشهيرة عن التأويل الذاتى والتي روعيت فى تكوين كافة
النظريات فى العلوم الاجتماعية ، ويجب ان نفهم « مصادرة التأويل
الذاتى » بمعنى ان كل التفسيرات العلمية للعالم الاجتماعى تستطيع ان
تشير ، من اجل اهداف معينة ، الى المعنى الذاتى للأفعال البشر التى
تصدر أساساً عنهم ، بل انه يجب على هذه التفسيرات ان تشير الى هذا
المعنى (٩٢) .

ويقول شوتز بشأن الانماط المثالية : « ان عالم الاجتماع يلاحظ
بعض الأحداث فى العالم الاجتماعى باعتبارها نتيجة للنشاط الانسانى ،
ويبدأ من هنا فى تأسيس نمط لهذه الأحداث . ثم يقوم بالتنسيق بين
هذه الأفعال النمطية - وهى نمطية لأن الدوافع التى يفترضها الباحث
لا تتغير فى ذهن الفاعل المتخيل - أى انه يقوم ببناء نمط مثالى شخصى .
ويقوم العالم الاجتماعى بعد ذلك بوضع هذه الانماط المثالية فى نسق ،
ويحوى هذا النسق كافة عناصر الموقف الموجودة فى العالم الاجتماعى
والمتصلة بأداء الفعل النمطى موضوع البحث ، ثم يضى فى اضافة انماط

(91) Ibid p. 58.

(92) Schutz. Concept and Theory Formation p. 245.

مثالية شخصية أخرى تمتلك دوافع قابلة أن تثير استجابات نمطية تجاه
الفعل الخاص بالنمط المثالي الأول» (٩٣) .

لقد اعتبر شوتز الفعل ظاهرة غير معزولة ، له «أفاقه» الفنونولوجية
التي تربطه بالواقع الاجتماعي ، وله « دوافعه » ، وتملك الأفعال النمطية
typical acts نوعين من الدوافع : دوافع « الغاية in order to
ودوافع «تسبب» because . وتفسر الأولى في ضوء أهداف
وغايات الفاعل ، وتفسر الثانية في ضوء خلفية الفاعل وميوله . الأولى
هي الوضع المستقبلي الذي يتحقق بواسطة الفعل المبسط projected
بينما يتحدد المشروع نفسه project بواسطة الدافع السببي الذي
يعتمد بدوره على الفعل الماضي . وتفهم أفعال الآخرين بالكامل إذا أمكن
معرفة دوافعها النمطية بما تتضمنه من إشارة إلى المواقف والأهداف
والمعان النمطية (٩٤) . ومعنى ذلك أن الموضوعات الاجتماعية لا نفهم
إلا إذا كانت قابلة إلى الاحالة إلى أنشطة إنسانية ، والأنشطة الانسانية
لا تفهم إلا بواسطة إظهار كل من دوافعها السببية ودوافعها الغائية .
والحقيقة التي تكمن وراء هذه الواقعة هي إلى أعيش في العالم الاجتماعي ،
وإستطيع فهم أفعال الآخرين في حالة واحدة فقط : أنى أتخيل أنى أفعال
أفعال شبيهة إذا كنت في نفس الموقف ومدفوعا بنفس الدوافع السببية
أو موجها بنفس الدوافع الغائية (٩٥) . أن عدم التوازن الزمني بين نوعي
الدوافع يوحى بمشكلة واسعة بخصوص تصور الذات ego . أن شوتز

(93) A Schutz . Collected Papers . Vol. 2 pp. 17 - 18 Quoted
in M. Natanson « Schutz , Alfred » in The International Encycl-
opedia of the Social Sciences ed. by D .L. Sills op. cit. Vol. 14 pp.
72 - 74 , p. 73 .

(94) Natanson « Schutz , Alfred » in International Encycl-
opedia of the Social Sciences op. cit. p. 73.

(95) Schutz . Concept and Theory Formation. op. cit. p.62.

يرى ان الذات غير قادرة على الالهراك المباشر ، وانما يمكنها فقط ان تدرك نفسها باعتبارها موضوعا لفعل منعكس reflexive action (٩٦) .

ويعتبر اهتمام شوتز بموضوع الفعل وتركيزه على الفعل والفاعل مع محاولة اقامة انماط للعالم الحس المشترك ، يعتبر كل هذا من الانجازات الاساسية لشوتز . ذلك انه رأى هذا الموضوع نقطة بداية ملائمة للعلوم الاجتماعية .

وتهدف الفنونومولوجيا فى رأى شونز الى بحث الموقف الطبيعى ، ولذا يجب ان توجه الدراسات الاجتماعية الى هذا الهدف ، فلا بد ان تبدأ تلك العلوم التى تقوم بتأويل وتفسير الفعل والفكر الانسانى من وصف البنيات المؤسسة لما هو سابق على العلم ، اى الحقيقة التى تبدو واضحة بذاتها بالنسبة للبشر الموجودين فى الموقف الطبيعى . وليست هذه الحقيقة الا « عالم الحياة اليومية » ، فهى نطاق الواقع الذى يشارك فيه الانسان باستمرار بطرق تبدو نمطية ، ومن غير الممكن تغاديبها .

ويعتبر عالم الحياة اليومية مجالا واقعيا بالنسبة للانسان ويستطيع الانسان تغييره عن طريق جسمه الحى . وتقوم الحقائق الموضوعية والاحداث الموجودة من قبل والمتضمنة لافعال ونتائج افعال الآخرين ، تقوم بتحديد امكانات الانسان الحرة فى الفعل . انها تضعه امام عقبات يستطيع تخطيها واخرى لا يمكنه تخطيها ، وبالإضافة الى ذلك يستطيع الانسان ، فى هذا العالم وحده ، ان يكون مفهوما من جانب البشر الآخرين ، كما يستطيع من خلاله - عالم الحياة اليومية - ان يعمل معهم . أى انه من الممكن فى هذا العالم وحده اقامة عالم مشترك ، متواصل ومجيب عنه وحده الواقع الأساسى ذو السلطة العليا paramount

• بالنسبة للإنسان (٩٧) •

و يتميز عالم الحياة اليومية بأنه توازى على ، فهو ليس عالمى وحدى وانما هناك بشر آخرون اقبل وجودهم كشيء مفروغ منه ، وهم موجودون ليس فقط بصفتهم الجسمية وانما باعتبارهم يملكون وعيا يشبه وعى الخاص • ان البناء الاساسى فى واقع هذا العالم هو اذن كونه مشتركا لنا جميعا • وكما استطع من موقفى الطبيعى ان احصل على معرفة للخبرات المعاشة من جانب زملائى من البشر مثل دوافع افعالهم - وذلك بشكل تقريبي - كذلك افترض ان نفس الشيء يصدق على الآخرين تجاهى ، ومن هنا علينا التلميح ببعض الاشياء وهى :

- ١ - الوجود الجسمى للآخرين •
- ٢ - ان هذه الاجسام تملك وعيا مماثلا لوعى الخاص •
- ٣ - ان اشياء العالم الخارجى ، الموجودة فى محيطى ومحيط الآخرين هى نفسها بالنسبة للجميع وتملك نفس المعنى •
- ٤ - انى استطع ان اجعل نفسى مفهوما بالنسبة للآخرين •
- ٥ - انى استطع اقامة علاقات مع الآخرين والمشاركة فى افعالهم •
- ٦ - ان العالم المتدرج اجتماعيا وثقافيا هو معطى من قبل تاريخيا ، وذلك باعتباره اطار دلالة بالنسبة لى والآخرين وباعتباره ايضا « عالما طبيعيا » •
- ٧ - ويترتب على ما سبق ان الموقف الذى اجد نفسى فيه فى اى وقت يرجع الى حد ما الى كونى قد خلقته بنفسى (٩٨) •

(97) Schutz and Luckmann op. cit. p. 3.

(98) Ibid. pp. 4 - 5.

ان الواقع اليومي لعالم الحياة يتضمن ، بالإضافة الى « الطبيعية »
 التى اختبرها بنفسى ، العالم الاجتماعى وبالتالى الثقافى . اى أن عالم
 الحياة لا يتكون من الأشياء المادية وحدها او من الاحداث التى تبقى بها
 فى محيطى فحسب لأن هذه الأشياء كلها تكون عنصرا واحدا للعالم
 المحيط ، وانما المهم انه يتكون من طبقات للمعنى *meaning strata*
 تحيل كل من الأشياء الطبيعية الى موضوعات ثقافية ، والاجسام
 البشرية الى بشر زملاء لى ، وحركات الآخرين الى افعال وحركات
 وعلاقات . ان عالم الحياة ليس الا واقعا نستطيع تغييره بواسطة
 افعالنا كما يستطيع هذا العالم بدوره ان يغير من افعالنا . وننتهى الى
 القول بأن موقعنا الطبيعى فى الحياة اليومية يتحدد بواسطة دافع
 برجماتى (٩٩) .

ان تفسيرى للعالم وفهمى له يقوم فى اى وقت على كمية من الخبرة
 السابقة سواء كانت خبرة مباشرة او خبرات انتقلت الى من الآخرين
 خاصة الاهل او المدرسة . . الخ ، وتندمج هذه الخبرات المباشرة والمتصلة
 فى وحدة معينة تأخذ شكل مجموع معرفتى ، وتقوم هذه الوحدة بدور
 اطار دلالة بالنسبة للمرحلة التالية التى تقوم فيها بتفسير العالم (١٠٠) .

لقد رأينا كيف تضمن المشروع الفنونولوجى الهوسرلى التوقف عن
 الحكم او وضع الموقف الطبيعى بين قوسين . ذلك أن هوسرل اهتم بالذات
 « الخالصة » غير المنتمية الى مواقف معينة بينما ابدى شونز على العكس
 اهتماما بالعالم الطبيعى وأكد أهميته بالنسبة لعلم الاجتماع
 والفنونولوجيا . لقد رفض شونز مناقشة المشكلة على المستوى المثالى
 وفضل عليه المستوى الدنيوى *mundane* الخاص بالعالم التواصلى

(99) Ibid. pp. 5 - 6 .

(100) Ibid. p. 6.

للحياة اليومية ، لقد اعتبر شوتز الفنونولوجيا المتعالية غير صالحة
كأساس للحياة الثقافية للحياة اليومية .

لقد اعتبر شوتز معرفتي بالآخرين معرفة مباشرة تفوق معرفتي
بنفسي ، على الرغم من اننا تعودنا الاعتقاد بأن العكس هو الصحيح .
واستنادا الى واقع الاتصال بوجه شوتز الانتباه الى اننى عندما اكون
مستمعا للآخر فانى اكون مندمجا فى الوجود الحى *præsent* لفكر الآخر .
ولا يستطيع الآخر ان يرى حركات وجهه او يدرك فكره الذى عبر عنه ...
ولا يستطيع الآخر ان يرى حركات وجهه او يدرك فكره الذى عبر عنه ...
بينما استطيع انا فى اللحظة التى عبر فيها الآخر عن فكره ان اتوصل
الى معرفته بشكل مباشر وبطريقة مختلفة اكثر مما يعرف هو ذاته . كما
ان العكس ايضا صحيح . فاذا كنت انا المتحدث او الممثل فان الآخر يكون
المستمع او الجمهور او المراقب ، وفى لحظة الاداء يعرفنى هذا الآخر
بطريقة مختلفة وبشكل مباشر اكثر مما اعرف نفسي فى هذه اللحظة
بالذات . ان الانسان يعيش فى مجتمع ويستدعى هذا دائما الاداء والتعبير
والاتصال . لذا فانى اجد نفسي فى الحياة اليومية متصلا اتصالا مستمرا
وضروريا بالآخرين ، وفى حالة معرفة بالآخرين وهم بى (١٠١) .

وميز شوتز بين محاولات ثلاث :

الاولى: هى « العلوم الثقافية » مثل علم الاجتماع ، والانثروبولوجيا
وعلم الاقتصاد وعلم النفس .

الثانية : هى الفنونولوجيا التأسيسية الخاصة بالموقف الطبيعى .

الثالثة : هى الفنونولوجيا المتعالية .

(101) M. Roche . *Phenomenology , Language and the Social Sciences* London : Routledge and Kegan Paul 1973 pp. 23—33 .

لقد رأى أن هذه المحاولات تكمل بعضها البعض . وقد ركزت
دراسته هو على محاولة توجيه الفنونولوجيا نحو دراسة عالم الحياة
life - world والموقف الطبيعى natural attitude
فهو يرى أن الفنونولوجيا التأسيسية للعالم الطبيعى كفيلة باتاحة
اساس فلسفى واضح للعلوم الثقافية . ويجب أن نميز بين الفنونولوجيا
التي اعتبرها شوترز اداة منهجية توضح مناهج وتصورات وافتراضات
العلوم الثقافية وبين الفنونولوجيا الخالصة ، فعلى الرغم من اشتراكهما
فى بعض الأهداف والمناهج الا أن الاخيرة تركز على الوعى الخالص او
الذاتية المتعالية بينما تهتم الاولى باقامة الموقف الطبيعى وتأثيره على
البحث العلمى الاجتماعى (١٠٢) . ان الوصف الفنونولوجى لم يوحى
لشوترز بفنونولوجيا متعالية ، وانما اوحى اليه بعلم الاجتماع . ويأتى
العالم المعطى او الموقف الطبيعى كنتيجة للتفاعل بين البشر والمعيشة
المشتركة فى المجتمع ، وليس كنتيجة ذاتية مدركة بطريقة انائية وموجودة
خارج الثقافة والتاريخ .

واذا كان الجانب الفنونولوجى الوصفى والاجتماعى قد تغلب لدى
شوترز على الجانب الفنونولوجى المتعال فقد اعتبر البعض شوترز أكثر
ميلاً الى الاتجاه الوجودى فى الفنونولوجيا (١٠٣) .

وفرق شوترز بين مجموعتى العلوم الاجتماعية والطبيعية من حيث
المنهج فأننا لا نستطيع ان نتعامل مع ظواهر العالم الاجتماعى كما
نتعامل مع ظواهر العالم الطبيعى . فنحن فى العالم الطبيعى نقوم بجمع
الوقائع والاطرادات التى لا يمكننا فهمها ، وكل ما يمكن ان نفعله هو
الاشارة الى بعض الافتراضات الاساسية عن العالم اننا مثلاً لا نفهم لماذا

(102) Phillipson op. cit. p. 133 .

(103) Roche. op. cit. p. 33 .

يرتفع الزئبق فى ميزان الحرارة اذا ارسلت الشمس اشعتها عليه . وكل ما نستطيعه هو تفسير هذه الظاهرة باعتبارها متفقة مع القوانين التى استنبطناها من افتراضات أساسية عن العالم الطبيعى . بينما نحن نريد فى العالم الاجتماعى ان نفهم الظواهر الاجتماعية ، ولا نستطيع ان نفهمها وهى بعيدة عن مكانها فى نسق الدوافع والوسائل والأهداف والخطط الانسانية ، باختصار بعيدة عن نسق مقولات الفعل الانسانى (١٠٤) .

وقد رفض شوتز مبدأ الوحدة المنهجية بين العلوم . حقيقة أنه رأى خطأ اعتبار الاختلافات الأساسية بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية راجعة الى وجود منطق مختلف لكل فرع من فروع المعرفة . الا أن هذا لا يعنى أن على العلوم الاجتماعية أن تترك الأساليب الخاصة بها والتى تستخدمها للتعرف على الواقعة الاجتماعية من أجل وحدة مثالية بين المناهج ، خاصة وأن هذه الوحدة تقوم على افتراض غير مؤكد مؤداه أن الطرق التى يستخدمها العلماء الطبيعيون وخاصة الفيزيائيون هى وحدها الطرق العلمية . ان وحدة العلم ليس إلا حالة خاصة فى موضع أكثر شمولاً لم يتصدى أى من العلماء المؤيدين للإجابة عليه ، وهو كيف تكون المعرفة العلمية ممكنة ؟ وما هى افتراضاتها المنطقية ؟ ان شوتز يسرى ان الفلسفة الفنونولوجية مهدت الطريق لمثل هذا البحث ، وقد تشير نتائجها الى أن الأساليب المنهجية التى طورتها العلوم الاجتماعية من أجل ادراك الواقع الاجتماعى أكثر ملائمة من تلك الأساليب الموجودة فى

(104) A . Schutz « The problem of Rationality in the Social World » in Collected papers Vol. 4 Martinus Nijhoff. The Hague 1964 p. 65. Quoted in R. M. Zaner. Solitude and Sociality : The Critical Foundations of the Social Sciences in Psathas. op . cit. pp. 25 - 43 , p. 41 .

العلوم الطبيعية فى التوصل الى اكتشاف المبادئ العامة التى تحكم
كل المعرفة البشرية (١٠٥)



خامسا : نظرة نقدية الى الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم :

تعرضنا فيما سبق لشخصيا متاربع راينا من وجهة نظرنا أنهما
تمثل أقطابا بارزة فى تطور الفكر الفنونولوجى . حقيقة أن دلتاى وغير
لم ينطويا تحت لواء هذه المدرسة ، الا أننا قد بينا منذ البداية أنه لا توجد
مدرسة فلسفية موحدة ينطوى تحتها كل الفنونولوجيون وذلك بسبب
التفرد الذى اتسمت به افكارهم . كما أن موقف كل من دلتاى وغير من
العلوم الاجتماعية ومن الاتجاه الطبيعى وقولهما بالفهم الذاتى واهتملهما
بالفرد ، كل هذا جعلهم علماء وفلاسفة علم بارزين وممهدين بشكل
مباشر للاتجاه الفنونولوجى .

لقد اهتم المفكرون الأربعة بالمجال الانسانى وبالذات بالفرد وبأفعاله ،
وبالعنى الذى يضيفه على أفعاله . لقد كان موضوع بحثهم هو الفاعل
ومن هنا اتجاههم الى تأويل وفهم دوافع وغايات الأفراد دون اغفال
للعلاقات التى تنشأ بينهم .

ويقتررب هذا الموقف الى حد كبير من موقف الفردية المنهجية
methodological individualism الذى ينسب اليه علماء يارزون من أمثال
F. H. Hayek , F. Watkins G. C. Homans وغيرهم
وفى رأى هؤلاء المفكرين أن العالم مكون من افراد يتحركون فى ضوء
ميولهم وفهمهم للموقف . وكل موقف اجتماعى معقد وكل نظام وكل

(105) A. Schutz. Concept and Theory Formation in the
Social Sciences op. cit. p . 249 .

حدث ليس الا نتيجة لشكل أو وضع محدد للأفراد واستعداداتهم ومواقفهم ومعتقداتهم. وإمكانياتهم المادية وبيئاتهم (١٠٦) .

ويرى هايك أننا نبدأ من أفكار وأهداف الأفراد ، أى أن الأفراد الذين يكونون المجتمع يتصرفون حسب تصنيفهم للأشياء والأحداث فى نسق من الصفات والتصورات ذات بناء مشترك ، ويستطيعون التعرف عليه بمجرد كونهم بشرا . وتفهم العلاقات بين الأفراد كما تفهم الأنظمة الاجتماعية فى ضوء أفعال البشر أزاءها . ويتكون المجتمع كما نعرفه من تصورات وأفكار البشر ومن ظواهر اجتماعية . وفى استطاعتنا أن نعرف المجتمع ويكون له معنى لدينا إذا كان يملك تأثيرا على عقولنا كبشر (١٠٧) .

وتتميز العلوم الاجتماعية بصعوبة خاصة راجعة الى ضرورة التمييز بين ثلاثة أشياء : آراء الأفراد الذين يكونون موضوع دراستنا ، وآرائنا عنهم ، وأفكار جديدة تتكون لدى موضوعات الدراسة من البشر كنتيجة لأفعالهم أو لتأثرهم بأفكار أخرى . ومن أجل هذا كانت أهمية التمييز بين تفسير مبدأ تقوم عليه ظاهرة ما ، وتفسير يتيح لنا التنبؤ بنتيجة محددة (١٠٨) .

ويرى واتكنز أن العمليات والأحداث الاجتماعية تحتاج أن تفسر عن طريق استنباطها من :

(أ) مبادئ تحكم سلوك الأفراد المساهمين فى الأحداث .

(ب) وصف مواقف هؤلاء الأفراد .

(106) Homans. The Nature of Social Science op. cit. p. 61

(107) F. H. Hayck. From Scientism to the study of Society
J. O'Neil (ed.) Modes of Individualism and Collectivism London
Heinemann 1973. pp. 27 - 68 p. 35.

(108) Ibid. p. 43.

وينادى واتكنز بالتفسير الفردى على أساس أن الموضوعات الاجتماعية تتكون من اتجاهات الأفراد . وبينما الأشياء المادية لها وجود غير مدرك فإن الأشياء الاجتماعية مثل القوانين والأسعار . . . تقوم على أساس الاتجاهات الفردية (١٠٩) لذا يجب تفسير أطرافات الحياة الاجتماعية حسب الفردية المنهجية أى فى ضوء الأفراد ومواقفهم . وما دامت العملية التى تفسر تتكرر وقابلة للحدوث عددا من المرات وفى أماكن متنوعة من العالم ، فإن الافتراضات العامة عن الميول الانسانية ممكن أن تستخدم فى التفسير (١١٠) .

وقد ساهم فلاسفة الوجودية من أمثال جون بول سارتر وموريس ميرلوبونتي فى الفنونولوجيا ، عن طريق تقديم تصورات مختلفة للشرط الوجودى للإنسان ، وذلك كرد فعل على تأكيد هوسرل على الماهية . وقد أصبح للوعى شكل عضوى ، وموقف اجتماعى مرتبط بكياليات أخرى ، أى أصبح به وجود مشخص وليس ماهية غير شخصية كما كان هوسرل يرى .

لقد اهتم كل من سارتر وميرلوبونتي بالتوصل الى طرق يستطيع الوعى الانسانى عن طريقها كشف واختبار كافة الحواجز ، ليس فقط عن طريق التفكير وإنما بواسطة الفعل ، وهذا هو موضوع الحرية السذى تميزت به الكتابات الوجودية . وبينما ركز هوسرل على المستوى المتعال ، فقد ركز سارتر على المستوى الوجودى . وبينما كان حديث هوسرل عن « الذات المتعالية » غير ذى تأثير على الكيان الوجودى للإنسان

(109) F. Watkins. *Ideal Types and Historical explanations* in (ed.) *Reading of Philosophy of Science* op. cit. p. 729.

(110) F. Watkins. *Historical Explanation in the Social Sciences* in O'Neil (ed.) op. cit. pp. 166 - 178, p. 176.

أو « الذات » أو « الانا » فان حديث سارتر واعماله كان لها تأثيرها الواضح على الانسان الوجودى . وفى الواقع ان الفنونولوجيين التاليين على هوسرل مثل سارتر لم يتخلوا مطلقا عن تقديم تقارير خاصة بالماهية الا انهم على خلاف هوسرل لم يعتبروها هدفا للفلسفة وانما يتحقق هدف الفلسفة عن طريق منهج انعكاس محدد *Specific reflective technique* وقد استقوا تقاريراتهم مباشرة من الأوصاف الخاصة بخبراتهم الشخصية المستمرة وغير المنعكسة *non - reflective* وطبقوها ووضعوا لها امثلة فى شكل اوصاف أخرى لخبرة الحياة الواقعية المدركة (١١١) .

ويحدد ميرلوبونتي هدف الفنونولوجيا كما يلى : انه موضوع يقوم على الوصف وليس التفسير أو التحليل . ان توجيه هوسرل الأول للفنونولوجيا كان فى اتجاه « علم نفسى وصفى » وهو ما يمثل استبعاد للعلم . فاننا ليست نتيجة التقاء عناصر سببية متنوعة تحدد كيانى الجسمى أو النفسى . وانا لا استطيع ان ادرك نفسى باعتبارى جزءا من العالم او كمجرد موضوع للدراسة البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية ، أى انى لا استطيع ان أحبس نفسى داخل عالم العلم . ان كل معرفة لى عن العالم ، حتى المعرفة العلمية ، استقيتها من وجهة نظرى الخاصة او من خبرة محدودة عن العالم ، تصبح بجانبها رموز العلم بدون معنى . ان كل عالم العلم مبنى على العالم كما اختبره مباشرة ، فاذا أردنا اخضاع العلم نفسه الى استقصاء دقيق والتوصل الى تقدير واضح لمعناه وماده ، فلا بد ان نبدا من ايقاظ الخبرة الاساسية للعالم ويعتبر العلم كتعبير من الدرجة الثانية لها (١١٢) .

(111) Roche op. cit. p. 19 - 20.

(112) Merleau - Ponty. What is Phenomenology in J. Kockelmans (ed.) Phenomenology. New York : Anchor 1967 p. 356 Quoted in Phillipson Op. cit. p. 123.

وبينما كان اهتمام سارتر بطبيعة الفنونولوجيا يرتبط باستخدامها فى فلسفته عن الوجود ، فان ميرلوبونتي اهتم بطبيعة الفنونولوجيا فى حد ذاتها . لقد رأى ان مهمته الأساسية فى الفلسفة هى اعادة بناء الطابع التطورى وليس الثورى . وبالتالي فان الانتقال من العالم الى الماهيات كما ترى طريقة التوقف عن الحكم ، يحتاج الى ان ينسجم مع وصف الوعى فى هذا العالم كما تطالب الوجودية . وقد حاول ميرلو بونتي ان يبين امكانية هذا الانسجام بالطريقة الآتية :

أولا : اعتبر ان طريقة التوقف عن الحكم تستدعى الابتعاد فقط عن تصور العالم بطريقة العلم الطبيعى ولا تستدعى الابتعاد عن المعرفة « المسابقة على العلم » التى نملكها عن العالم كما هو معطى فى الإدراك الحسى .

ثانيا : اعتبر النظريات والاستنتاجات والانماط الخالية فى الدراسات النفسية والاجتماعية ، اعتبرها كلها ماهيات (١١٣) .

ان مشروع الفنونولوجيا اذن ليس الا وصفا للظواهر كما تبدو فى الوعى ويعنى ذلك ايجاد منهج يتيح التفكير فى الخارج الذى هو مبدا علوم الانسان ، وفى نفس الوقت التفكير فى الداخل الذى هو شرط الفلسفة ، وذلك بالاضافة الى الاهتمام بالتكرارات التى لا توجد بدونها مواقف ، وبالتثبت العقلى الذى لا توجد بدونه معرفة (١١٤) . لقد رفض ميرلوبونتي فصل الوقائع عن الماهيات ، ذلك ان الحقيقة الأولية لوجودنا فى العالم تكمن فى التوحيد بينهما ، واذا كنا نقوم بتمييز بين الواقعية والماهية فان هذا يحدث فقط داخل وحدة الكائن . ويستتبع ذلك عدم وجود أى تعارض بين دراسة الوقائع من جانب العلماء الاجتماعيين ،

(113) Roche op. cit. p. 25 - 28.

(114) Merleau Ponty op. cit. p. 51.

ودراسة الماهيات من جانب الفنونولوجيين لأن الاثنين يكملان بعضهما البعض وأكثر من ذلك لا ينفصلان .

وقد اتضحت كثير من آراء ميرلوبونتي في مؤلفه الرئيسي « فنونولوجيا الإدراك الحسى » حيث ظهر موقف الانسان من العالم ومن العلم ومن ذاته ومن الآخرين .

اما بالنسبة للوجود الانسانى ذاته فهو قائم على الصراع والتعارض والاختلاف ومن هنا يمكن القول بأن كل ما فينا عرضى وكل ما فينا ضرورى . ونحن لسنا « وعيا » فقط أو « موضوعا » فقط بل نحن وعى وموضوع معا . وكل ما فينا هو نفسى وجسمى معا . وقد نحاول ان نفسر التاريخ تفسيراً عقلياً أو تفسيراً اقتصادياً . لو تفسيراً جنسياً ، ولكن الحقيقة ان التاريخ يقبل كل هذه التفسيرات جميعاً ، ولهذا يقرر ميرلوبونتي ان « الوجود » بطبيعته مبهم ، مختلط ، وغير محدد . بيد أن من خصائص « الوجود » أيضاً أنه لا يكف عن التعالى على ذاته (١١٥) . اما اذا نظرنا الى مشكلة « وجود الآخرين » فاننا نجد ان الاتصال بين الذوات مكفول بحكم تلك العلاقة الاولى التى تربطنا بعالم مشترك « (١١٦) » .

ويعتبر الإدراك الحسى « فعلاً » ندرك بمقتضاه الموضوع ادراكاً مباشراً دون أدنى وساطة ، بل دون حاجة الى أدنى تفسير . وليس « الجسم » بمثابة نقاب يتوسط بيننا وبين العالم ، بل هو أدواتنا فى الامتزاج بالعالم والاتصاف بالأشياء . وهكذا نجد ثمة اتحاداً مباشراً بين الانسان - الذى هو بطبيعته مفتوح للأشياء - وبين العالم الذى ندركه عن طريق الجسم ادراكاً حقيقياً (١١٠) .

(١١٥) د . زكريا إبراهيم : دراسات فى الفلسفة المعاصرة ، ص

٥٤٩ .

(١١٦) المرجع السابق ، ص ٥٥٢ .

(١١٧) المرجع السابق ، ص ٥٥٠ .

وقد رفض ميرلوبونتي فكرة العلية أو السببية ، وأبى أن يفسر السلوك بمجموعة من البواعث . حقا إن الجسم قد يبدو مجبرا ، من حيث هو خاضع لعلية فيزيائية تتحكم فى ردود أفعاله ، ولكن سلوكنا لا يتوقف بشكل جوهري على طائفة محددة من القوانين العلية الصارمة (١١٨) .

لقد نجح ميرلوبونتي فى تخليص الوجودية من تلك التفرقة السارتريّة الحادة بين « الموجود فى ذاته » و « الموجود لذاته » . وليس من شك فى أن اهتمام ميرلوبونتي بالأدراك الحسى هو الذى جعله يستمكك بواقعة « الوجود فى العالم » ، وهو الذى حدا به الى اعتبار المعطيات المباشرة للأدراك الحسى واقعة حقيقية سابقة على كل تنظيم عقلى (أو تركيب ذهنى) (١١٩) .

وهكذا يتضح لنا أن الاتجاهات المعارضة للوضعية ، ابتداء من اتباع منهج الفهم الذاتى وانتهاء بالوجوديين ، رفضت الشكل الاستنباطى العلى أو السببى للتفسير ونادت بالفهم كطريقة مميزة لدراسة الانسان فى المجتمع . ولعل هذه المعارضة هى التى جعلت الفهم والتفسير ينفصلان استنادا الى الاصرار على ربط التفسير بالشكل المنطقى الذى يجمع بين الواقعة المفسرة والتقرير التفسيرى ، فهل بالفعل من الضرورى أن يكون التفسير بهذا الشكل حتى يستحق أن يسمى تفسيرا ؟

وفى الواقع أن تفسير الظواهر الاجتماعية ، أى وضعها فى سياق من الافتراضات المتكونة من قبل سواء ضمنا أو صراحة هى شئ مختلف عن فهم الأفعال الإنسانية . فالفهم يعنى تحديد المكانة الأساسية لتلك الأفعال فى سياق مكون من المعتقدات والقيم والدوافع وخطط البشر ثم

(١١٨) المرجع السابق ، ص ٥٥٥ .

(١١٩) المرجع السابق ، ص ٥٦٣ .

تقييم هذا المكانه (١٢٠) الا ان نفهم بهذا الشكل لا يعنى انه عملية مختلفة فى هدفها عن التفسير ، فاذا كان التفسير يرمى الى معرفة المعنى الكامن وراء الحد ثاقلا شك ان الفهم الذاتى يقدم المنهج الملائم .

اننا فى العلوم الاجتماعية نواجه عقبة تضع لنا مشاكل هى ان تفسير الانشطة البشرية او الذوات العارفة التى تقوم بالفعل فى السياق المعتاد للاحداث اليومية يتطلب وضع افتراضات حول معانى هذه الأنشطة التى لا يمكن بذاتها ان تفسر بالكامل .

وتبدو محاولة ايجاد تفسير كامل مستحيله الانجاز ذلك لان الافتراضات فى وجود المعانى التى تتكشف تحتاج ايضا ان تفسر . فتصبح الخطوة التالية هى ضرورة تفسير السياق الذى توصلنا اليه والذى يتضمن افتراضات جديدة ، او هكذا الى ما لا نهاية وهنا لا بد للباحث ان يعترف بحاجته الى امتلاك واستخدام الحس اليومى الشائع والفهم الذاتى الذى، تلكه يستخدمه البشر فى حياتهم اليومية ، ان مجرد التوصل الى هذه الواقعة هو وعى ذاتى . فيستطيع الملاحظ او الباحث عندئذ ان يستخدم الافتراضات التى يقوم عليها العلم متضمنة لبعض الافتراضات التى تكونت فى عالم الحياة اليومية (١٢١) .

ويؤكد « يولتون » ان تفسير الظواهر الاجتماعية يجب ان يقبوم على أساس الفهم الذاتى ، ويظهر الدور التفسيرى لهذا الفهم عند وضعه فى عبارات ثم فى سياق او نمق من التقارير ،، تبقى بعد ذلك مشكلة ما اذا كان نمق التقارير يحتاج أولا الى اختبار كى يصبح تفسيريا . الا ان يولتون يرى ان الاختبار وان كان حيويا بالنسبة للتفسير العلمى الا انه

(120) Zaner Solitude and Sociality op. cit. p. 41.

(121) Psathas (ed.) Phenomenological Sociology op. cit. intr p. 11 .

ليس محكا في مجال التفسير الاجتماعي ، ويكفى أن يكون الطابع العام لكل التفسيرات في العلوم الاجتماعية مؤكدا على الفهم والسياق (١٢٢) .

الا أن مشكلة التثبيت تظل بالنسبة للفهم محل تساؤل كثيرا من العلماء ، ويكتفى ناجل باعتبار الفهم طريقة مولده لفروض مقترحة لتفسير الافعال الاجتماعية ، ويستبعده كطريقة للتثبيت من التفسيرات المقترحة . ذلك أن هذا المنهج لا يقدم بذاته أى معيار للتأكد من صدق الحدوس والفروض الخاصة بالافعال الانسانية (١٢٣) .

ويرى « إيسل » أن منهج الفهم يقوم على تطبيق الخبرة الشخصية على السلوك الملاحظ ، أى أننا نستخدم المعرفة الموجودة لدينا من قبل . وهذا فى رايه لا يصلح كوسيلة للكشف ، وإنما على أكثر تقدير كوسيلة لتأكيد ما كنا نعرفه من قبل . ومن هذا المنطلق تتحدد القدرة على تعريف السلوك باختلاف كمية ونوع الخبرة الشخصية ، وقدرة المفسر على القيام بالاستبطان introspection بالإضافة الى قدرته على تعميم خبراته فإذا أمكن أحيانا ضمان موضوعية المعلومات فإنه يمكن على أساسها التوصل الى اثبات التفسير . الا أن ما يحدث فى أغلب الاحيان هو أن التفسيرات تظل بسبب عدم القدرة على الوصول الى الخبرات الانفعالية مجرد تعبير عن آراء . ومن هنا يستبعد الفهم كوسيلة للتحليل ، الا أنه لا يستبعد تماما لأنه يستطيع القيام بوظيفة ايجابية وهى المساعدة على إقامة القروض وذلك بدون المساهمة فى اختبارها (١٢٤) .

(122) J. W. Yolton *Explanation* op. cit. p. 203.

(123) E. Nagel. on the Method of Verstehen as the sole Method of Philosophy in Natanson (ed.) *philosophy of Social Sciences* op. cit. pp. 262 - 265, p. 263.

(124) T. Abel. The Operation called Verstehen. in H. Feigl and M. Brodbeck. (ed.) *Readings in the Philosophy of Science* op. cit. pp. 684 - 685 .

ان الموقف الطبيعى والوضعى لا يستبعد تماما منهج الفهم وانما هو يريد أن يحتويه ويوجهه بطريقة تتناسب مع مبادئ النزعة الطبيعية . فتؤكد « لافين » على أن الطبيعيين لا يتسارعون الى رفض العوامل غير التجريبية فى البحث لأن النزعة الطبيعية لا تدعى وجود منهج وحيد للبحث ، وانما تصر فقط على وجود محك واحد للتثبت مهما كانت الطريقة المتبعة . وبتبنى الطبيعيين لمنهج الفهم تسقط كثير من الدعاوى التى تقام ضدهم وهى :

١ - تغلب المبدأ المنهجى على الفلسفة الاستدلالية .

٢ - فشلهم فى تقديم منهج متميز عن منهج العلم .

٣ - اغفالهم للعوامل الخارجة عن المنهج العلمى التجريبي .

٤ - استبعادهم التام لمشكلة منهج العلم الاجتماعى

ويستطيع الفيلسوف الطبيعى عن طريق التحكم التجريبي فى منهج الفهم أن يمارس دوره الثقافى التقليدى - فيما تدعى لافين - وهو تأويل الخبرة بواسطة التحليل المنعكس للمنهج العلمى ونتائجه (١٢٥) :

لقد اعتمدت الفنونولوجيا فى كل خطوة على النظرة التحسسية وعلى تعميق الخبرة عن طريق إبراز الجوانب التى كثيرا ما كانت تهمل فى هذه الخبرة . ومن إيجابيات هذا الاتجاه هو الاصرار على النظر الى الوقائع والوفاء لها حتى قبيل التفكير فيها .

(125) Thelma Z. Lavine Note to Naturalists on the Human Spirit . in Natanson (ed.) Philosophy of the Social Sciences. op. cit. 225 - 261, p. 259.

وإذا أخذنا مثالا من الانثروبولوجيا فسوف نجد ان فهم مجتمع ما يقصد به الفهم العلمى او الوقائى . وبهذا المعنى يقوم فهم شخص ما او موضوع ما او مجتمع ما على التعرف على بعض الوقائع عن الشخص او النظرية او المجتمع . ففى حالة فهم الأشخاص فان تعبيرات مثل « ان جونز يفهم سميث » ترد غالبا الى تعبيرات مثل « ان جونز يعلم ان ص ١ ، و ص ٢ ٠٠٠ و ص ن تشير الى بعض الوقائع عن سميث » ، اما عن نوع هذه الوقائع فيفهم من السياق : فاحيانا تكون الوقائع خاصة بدوافع سميث او اهدافه او طباعه ، واحيانا اخرى تكون خاصة بخلفيته الاجتماعية او الثقافية وعلاقتها بسلوكه الحالى . ويصلح نفس التحليل فى حالة كون موضوع الفهم شيئا غير انسانى . ويقال نفس الشيء بخصوص فهم مجتمع ما و جماعة ما community فقولنا « اننا نفهم » يعنى امتلاك بعض المعرفة بالقضايا الخاصة به . ولا يغنى هذا انه توجد مجموعة واحدة من الوقائع التى اذا توصلنا اليها توصلنا الى فهم المجتمع بل ان فهم المجتمع فى الانثروبولوجيا يتعلق بكل من وجهة نظر الباحث الانثروبولوجى ، والنظرية المستخدمة فى البحث واخيرا بهدف البحث (١٢٦) .

وإذا كانت الفنونولوجيا قد درست الظواهر عن طريق الوسائل الحدسية والتحليلية والوصفية فان هذا لم يكن جديدا فى تاريخ الفكر ، وقد قامت به اتجاهات سابقة ، الا ان اهم ما يميزها فى هذا الصدد هو الطابع القصدى للدراسة والتحدى الواعى للمنهج الطبيعى ، باعتباره عاجزا عن التعامل مع العالم الاجتماعى المشترك . وقد ادى بها هذا الى القيام بعدة مواجهات : فبينما تهدف الفيزياء الى التفسير المسببى

(126) M. Martin . Understanding and participant Observation in Cultural and Social Anthropology . in Truzzi (ed.) op. 102 - 133, pp 105 - 106 .

يهدف علم الاجتماع الى فهم الغاية والمعنى ، وبينما نفسر الأحداث كيميا فى الفيزياء بمساعدة الصيغ الرياضية ، فان علم الاجتماع يحاول فهم التطورات التاريخية فى شكل له طابع كيفى مثلا فى شكل ميول او اهداف متصارعة او « طابع قومى » او « روح العصر » . ومن هنا اهتمامات الفيزياء بالتعميمات الاستنباطية واهتمام علم الاجتماع بالمشاركة الوجدانية المتصورة وبينما تصل الفيزياء الى اطرادات صادقة بشكل عام وتفسر الأحداث الخاصة باعتبارها شواهد لتلك الاطرادات ، يكتفى علم الاجتماع بالفهم الحدسى للأحداث الفريدة وبالدور الذى تلعبه فى مواقف معينة ، تحدث نتيجة صراع المصالح والميول والمصائر (١٢٧) .

وسواء نظرنا الى الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم كنزعات أصيلة وضرورية فى البحث الاجتماعى او على انها عوامل مساعدة للمنهج العلمى كما تدعى الاتجاهات الوضعية والطبيعية . فان بعض الأسئلة تبقى فى حاجة الى اجابات :

١ - هل يضع هدف التفسير فى العلوم الطبيعية الحدود للتفسير فى العلوم الاجتماعية ؟ ويترتب على هذا السؤال التالى : هل نحتاج الى منهج الفهم فى بنائنا للعلم ؟

٢ - هل قوانين العلوم الطبيعية مستحيلة فى المجال الاجتماعى ؟ واذا كانت ممكنة فالى أى مدى تكون التفسيرات محددة وناجحة فى شمولها للأغلب الأفعال الاجتماعية التى نريد فهمها ؟

٣ - الى أى مدى يقبل منهج الفهم التثبت العلمى ؟

٤ - والى أى مدى يساهم الفهم فى الكشف . والى أى مدى قد يضلنا الفهم من خلال توليده لأحداث فى ضوء فئات الحياة اليومية ،

(127) Popper. Poverty of Historicism op . cit. p. 20.

وذلك بدلا من استخدام المقاييس التحليلية المجردة (المتغيرات) والتي قد تثبت صلاحيتها فى التفسير .

٥ - ما مدى أهمية الفهم فى عملية التثبيت ذاتها : هل بوسعه ان يؤكد او يكمل او يعارض ما قد سبق التثبيت منه ؟

٦ - واخيرا فى أبى مستويات التحليل يوضع الفهم ؟ هل هو يعنى الاشارة الى الدوافع الفردية للقائمين بالأفعال الاجتماعية ام الى معانى ثقافية يشترك فيها الكثيرون وتقدم فى نفس الوقت سياقاً لدوافع القائمين بالفعل من الأفراد ؟ وهل يتجه اهتمامنا الى تطوير صورة ذات معنى للواقع الاجتماعى فى ذهن الباحث الاجتماعى ام الى اعادة بناء الاتساق المعرفية للفاعل ذاته ؟ واذا كان هدفنا هو الثانى الا يعنى هذا ان علم الاجتماع كله سيتحول الى علم نفس اجتماعى بالضرورة ؟ الا يعتبر هذا اتجاها الى الرد السيكلوجى او ما يسمى بالفردية المنهجية ؟ (١٢٨) . وهذا بالذات ما اتهم به هوسرل من جانب كارناب وغيره على اساس ان هوسرل لم يتعد نطاق علم النفس الفردى المتطرف psychologism ، وذلك على الرغم من رفض هوسرل المستمر لهذا العلم (١٢٩) .

الا ان هذه التساؤلات لم تمنع الفنونولوجيا من أن تصبح علامة مميزة فى تاريخ الفلسفة والعلم . ويكفى محاولتها ايجاد منهج خاص بالعلوم الاجتماعية واقامتها للتفسير على اسم من الفكر والواقع مختلفة عن الاسس المنطقية الموجودة فى مناهج العلوم الطبيعية .

* * *

(128) Truzzi (ed.) op. cit. intr. p. 4.

(129) Kypers op. cit. p. 187.

الفصل الخامس

« الاتجاه الوظيفي ، والاتجاه البنيوي »

تمهيد :

- أولا : الاتجاه الوظيفي ونظرته الى التفسير
- ثانيا : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفي
- ثالثا : الاتجاه البنيوي ونظرته الى التفسير
- رابعا : نظرة نقدية الى الاتجاه البنيوي

تمهيد :

اثرنا ضم كل من الاتجاه الوظيفي او الوظيفية Functionalism والاتجاه البنوي او البنوية Structuralism معا للحديث عنهما فى فصل واحد ، وذلك بسبب الصلات الكثيرة التى تربط بينهما :

اولا : يتميز الاتجاهان بأنهما معاصران ، ومستمران فى كثير من مجالات البحث الاجتماعية ، خاصة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

ثانيا : يتشابه الاتجاهان فى ارتباطهما بالحالة الراهنة لموضوع الدراسة وأهمالهما للعوامل الخارجية خاصة التاريخية . وعلى الرغم من أن الاتجاه الأول يركز على دور الوظيفة فى التفسير والثانى يؤكد على أهمية البنية إلا أن كلاهما يلتقى مع الآخر فى اغفال تأثير كل من الأسباب أو العلل وعامل التغير على الظاهرة موضع الدراسة .

ثالثا : ارتبط الاتجاه فى اتجاه ثالث يؤكد على أهمية كل من الوظيفة والبنية فى التفسير وهو الاتجاه الوظيفى - البنائى
Structuro-Functionalism

وإذا تتبعنا تاريخيا الأفكار الرئيسية لدى الاتجاه الوظيفى فإنها تقودنا الى الماضى البعيد وقد تصل بنا الى العصر اليونانى . اننا لنجد مثلا فكرة « المماثلة العضوية » عند افلاطون عندما قارن بين المجتمع وقوى النفس العاقلة والغضبية والشهوية ثم قابلها بطبقات الدولة الحاكمة والحارسة والعاملة . كما يعتبر أرسطو أحد كبار أصحاب الاتجاه البيولوجى الأوائل (١) .

(1) W. J. H. Spnott, *Sociology* . London 1949 p. 28 Quoted

in :

د . قبارى اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

ويرتبط الاتجاه الوظيفي في شكله الحديث بالتقدم الذي حدث في علم الاحياء او البيولوجيا في القرن التاسع عشر . فاذا كانت الميكانيكا الكلاسيكية مثلت الشكل الأمثل للعلم المكتمل فان البيولوجيا وبالذات النظرية التطورية مثلت الشكل الأمثل لدراسة المجتمع . وقد اتاحت افعال أوجست كونت ، على الرغم من كونها سابقة على دارون ، اساسا منطقيًا قويًا للتقارب بين البيولوجيا وعلم الاجتماع .

لقد رأى كونت أن العلم لو الفكر الوضعي يتطور منذ البداية في ضوء الأحداث البعيدة عن تدخل وتحكم الانسان أي الأحداث العامة في الطبيعة ، ثم تقترب تطورات المعرفة الانسانية شيئًا فشيئًا من الانسان نفسه من خلال الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا حتى تصبح ظروف الحياة الاجتماعية والانسانية مفتوحة لتقبل المنهج العلمي . ونعتبر « الاستاتيكا الاجتماعية » اقوى مؤثر على مفاهيم الوظيفية كما قدمها في البداية هربرت سبنسر ومن بعده دوركايم(٢) .

ولقد ظهرت فكرة النسق system اول ما ظهرت في معناها العلمي في كتابات مونتكيو وبخاصة في كتابه « روح القوانين » حيث أرمى في هذا الكتاب قواعد أو أسس « نظرية النسق الاجتماعي الكلي » بناء على ارتباط المجتمع ارتباطًا وظيفيًا(٣) .

ولقد ساهم هربرت سبنسر بتصورية وظيفية من نوع عضوى حين عقد المقارنات أو المماثلات بين المجتمع من ناحية والكائن العضوى

(2) A. Giddens, Functionalism : Apés la lutte. in Social Research. Vol, 43 No. 2 Summer 1976 pp. 325 - 366, p. 326.

(3) A. R. Radcliffe Brown. Sturcture and Function in Primitive Society. London. 1986. Quoted In .

organism من ناحية أخرى . حيث يشبه المجتمع فى تلك المماثلة البيولوجية بالكائن العضوى من حيث البناء والوظيفة . فالمجتمع ينمو ويتطور باطراد ، كما ينمو ويتطور الكائن الحى . ويشبه سبنسر تقسيم العمل فى المجتمع تماما كما تتوزع الوظائف العضوية كى تعمل فى البناء العضوى (٤) .

ويعتبر اميل دوركايم من لقوى المؤثرين على الاتجاه الوظيفى المعاصر . فقد أوضح بصورة لا تقبل الشك تميز الواقعة الاجتماعية واستقلالها عن كافة الظواهر الأخرى سواء البيولوجية أو الفسيولوجية ، وبذا تميز عن الاتجاهات العضوية والنزعات الحيوية السابقة . واهتم دوركايم بوظيفة الواقعة فى عملية التفسير ، ورأى ان هذه الوظيفة تتضح داخل المجتمع ، فى علاقة الواقعة بنظام اجتماعى اوسع . وقد تحدث دوركايم عن وظيفة الدين فى كتابه « الأشكال الأولية للحياة الدينية » (٥) ، وبين كيف ساعدت ديانة القبائل البدائية فى الحفاظ على وحدة القبيلة وتماسكها .

وقد ظهر التعبير « بنية » Structure الى جانب التعبير « وظيفة » Function ، واستخدم منذ القرن السادس عشر ليعنى التفاعلات بين مكونات الشيء . وقد استخدمت الدراسات التشريحية Anatomy هذا التعبير بتوسع كبير ، ثم انتقل منها الى العلوم الاجتماعية . وترجع فكرة دراسة البنية الاجتماعية كهدف للبحث الاجتماعى الى سبنسر (١٨٥٨) . ثم ظهرت هذه الصورة بعد ذلك لدى دوركايم : ان المجتمع هو مخلوق حى مكون من اجزاء ، وتتضح البنية الاجتماعية

(٤) د. قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

(٥) تحدثنا بالتفصيل عن موقف دوركايم فى الفصل الثالث

من الرسالة .

نتيجة التبادل فى المواقع والعلاقات بين الأجزاء المكونة . وتعتبر وظيفة
أى جزء الطريقة التى يعمل بها لى يحافظ على النسق كله (٦) .

أولاً : الاتجاه الوظيفى ونظرته الى التفسير :

أوضح ناجل وهو فيلسوف علم طبيعى ، ان هناك ستة معان للتعبير
وظيفة function :

أولاً : تستخدم الكلمة لتعنى علاقات اعتماد dependence
أو علاقات اعتماد متبادلة interdependence بين اثنين أو أكثر
من العوامل المتغيرة (المتغيرات) سواء كانت تلك العوامل قابلة للقياس
أم لا . ولا يميز هذا المعنى التحليل الوظيفى عن غيره من التحليلات
التي تستخدم فى مجالات أخرى كثيرة بهدف اكتشاف الاطرابات فى
موضوع الدراسة .

ثانياً : تستخدم كلمة « وظيفة » أحيانا لتعنى مجموعة من العمليات
فى كيان معين ، بدون إشارة الى التأثيرات المختلفة التى تنتجها تلك
العمليات سواء على هذا الكيان أو على أى كيان آخر .

ثالثاً : تستعمل الكلمة من جانب العلماء البيولوجيين لتعنى بعض
أنواع العمليات العضوية التى تحدث فى الأجسام الحية مثل التناسل
والامتصاص والتنفس . ويقوم الجسم بهذه العمليات ككل وليس كاجزاء ،
على الرغم من ان بعض هذه العمليات ترتبط بشكل واضح بعمل اجزاء
معينة من الجسم . وتخص هذه العمليات الكائنات الحية وحدها ،
وكثيراً ما يقال انها ضرورية لاستمرار حياة الكائن . وبالتالي فان الوظيفة

(6) E.R. Leach. Structure : The History of the Concept in
D. L. Sills (ed.) op. cit. vol. 14 pp. 482 - 488, p. 482.

الحَيَوِيَّة Vital function تؤخذ على أنها الصفات المحددة للأجسام الحية بحيث إذا نقصت هذه الصفات في أحد الأجسام فهو لا يعد كائنا حيا .

رابعا : كثيرا ما يرد التعبير « وظيفة » ليعنى استخدام مقبول لشيء ما أو فائدة هذا الشيء ، أو تأثير منتظر لفعل ما كما في التعبير « وظيفة البلطة هي قطع الخشب » . وقد أشار مالبينوفسكى الى هذا المعنى في قوله « ان الوظيفة تعنى دائما اشباع حاجة ما » (٧) . وعندما تستعمل كلمة وظيفة بهذا المعنى فإن التحليلات الوظيفية ترتبط بالأبحاث التى تتناول ظواهر خاصة بالكائنات الحية سواء كانت انسانية ام غير انسانية . ويتمثل التفسير الوظيفى عندئذ في ذكر الفائدة التى يملكها الشيء بالنسبة لمجموعة من الكائنات الحية ، أو ذكر النتائج المترتبة على امتلاك مثل هذه الفائدة . وتتكون التفسيرات فى هذا النوع من تقرير واحد فقط (احيانا يكون عاما ، و احيانا لا يكون كذلك) ، ويقوم هذا التقرير على تأكيد العلاقة الواقعية - بين موضوعات عدة ، الا أنه لا يربط بوضوح هذه الواقعة بأى واقعة اخرى تظهر سبب حدوث هذه العلاقة الواقعية .

خامسا : تستعمل كلمة « وظيفة » بمعنى قريب من السابق ، لتشير الى مجموعة نتائج شيء ما أو نشاط ما بازاء النمق ككل أو بازاء مجموعة متنوعة من الأشياء الأخرى يملكها النمق . فهكذا تستخدم الكلمة فى تقرير كالتالى « ان احد وظائف الكبد هي تخزين السكر فى الجسم ، وليست هذه الوظيفة هي وظيفته الوحيدة » .

سادسا : تستخدم كلمة « وظيفة » لتشير الى المساهمات التى يقوم

(7) B. Malinowski. A Scientific Theory of Culture p. 159.

Quoted in Nagel : Structure of Science p. 524.

بها شيء ما (أو يستطيع ان يقوم بها اذا توافرت ظروف ملائمة)
لكى يحافظ على خاصية معينة او شرط محدد فى نسق معطى يفترض
انتفاء هذا الشيء اليه (٨) .

لقد بدأت المدرسة الوظيفية بدراسة المعايير norms ، اى نظرة
الأفراد الى الطريقة التى ينبغى ان يسلوكوا على اساسها أو كيف كان
سلوكهم بالفعل فى مختلف الظروف . وقد اهتم الوظيفيون بصفة خاصة
بشبكة المعايير التى يطلق عليها اسم دور role ، ثم اهتموا بشبكة
الأدوار التى تسمى بالأنظمة institutions . ومن هنا جاء اهتمامهم
بالأنظمة . وقد اعتبروا الدور هو وحدة التحليل الاجتماعى وليس الفرد
الذى يقوم بالفعل . وقد اهتمت الوظيفية فى مرحلة تالية بالعلاقات
المتبادلة بين الأدوار والعلاقات المتبادلة بين الأنظمة ويعتبر هذا هو
الجانب البنىوى من علمهم . وقد قام بهذا العمل مجموعة من
الانثروبولوجيين الاجتماعيين مبينين كيف تتسق الأنظمة فى مجتمع بدائى
ثم انتقلوا لتشمل دراساتهم المجتمعات المتقدمة .

وقد انحصر اهتمام المدرسة الوظيفية فى النتائج اكثر من اهتمامها
بالأسباب خاصة نتائج النسق الاجتماعى باعتباره وحدة واحدة ،
وقد اعتبرت هذه النتائج وظائف الأنظمة . وقد اهتم الوظيفيون ببيان
الوظائف الخاصة بنسق ما ، الى جانب اهتمامهم باختلال تلك الوظائف
dysfunction . وذلك بدون طرح اسئلة عن سبب وجود النسق
منذ البداية (٩) .

(8) Nagel. Structure of Science pp.523 - 525 .

(9) G. C. Homans. Bringing men back in. In. A. Ryan
(Ed.) . The Philosophy of Social Explanation. London : Oxford
Univ . Press. 1973 pp. 50 - 64, pp. 50 - 51.

وقد رأى البعض ان التحليل الوظيفى فى العلوم الاجتماعية يحاول ان يتبنى نوعا من التفسير شائع فى البيولوجيا وخاصة فى الفسيولوجيا ويتمثل فى تحليل البناء والعمليات الخاصة بأجزاء مختلفة من الجسم ، بهدف عرض الطريقة التى تحافظ على بعض الأنشطة المميزة أو على خصائص الجسم (أو النسق) ، على الرغم من التغيرات التى تقع فى المحيط الخارجى والمحيط الداخلى (١١) . وقد رأى ناجل انه لا يوجد اختلاف بين التفسيرات الوظيفية والتفسيرات الغائية على أساس ان التفسيرات الوظيفية تقوم على عرض الجهود التى تبذلها بعض العناصر أو الأشياء للمحافظة على المجتمع . أى انها فى ذكرها للدور الذى يلعبه الفعل تهدف الى تحقيق غاية ما ، وهى هنا نموذج التفسيرات الغائية teleological فى علم الفسيولوجيا . وقد وجد ناجل ان التفسيرات الوظيفية تستخدم تعبيرات معينة مثل « بهدف فعل شيء ما » in order that أو « من أجل تحقيق شيء ما » for the sake of

كما تشير كثير من التفسيرات الوظيفية الى حالة أو حدث مستقبل ، يصبح فى ضوء وجود الشيء أو حدوث الفعل أمرا مفهوما أو مدركا (١٢) .

وبينما وجد ناجل بين التفسيرات الوظيفية والتفسيرات الغائية فقد فعل البعض عكس ذلك وميزوا بينهما . وقد عرف « جرونر » التفسير الغائى بأنه تفسير فى ضوء الأهداف والرغبات والدوافع والميول ... الخ ، وما دام البشر وحدهم يملكون أهدافا ورغبات ودوافع وميولا فإن التفسيرات الغائية توجد فقط فى مجال الأفعال الانسانية . أما التفسير الوظيفى فهو تفسير فى ضوء المساهمة التى يقوم بها شيء ما أو عملية معينة من أجل المحافظة المستقبلية على نسق محدد ، يعتبر هذا الشيء

(10) Nagel , Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences p. 191.

(11) Nagel. Sturucture of Science p. 24.

او تلك العملية جزءا منه . وترتبط كلمة « وظيفة » فى التفسير الوظيفى بمعنى واحد معين هو « الوظيفة داخل النسق » . اما عن نوع النسق فقد يكون ميكانيكيا او بيولوجيا او اجتماعيا او يتخذ اى شكل آخر ، وما يهمنا هو ان التفسيرات الغائية تخلو تماما من الاشارة الى النسق (١٣) .

ان التفسيرات الغائية تمتلك نفس بناء التفسيرات الوظيفية الا انها تختلف عنها فى الشكل ، ففي التفسير الغائى تنتقل من الهدف الى الفعل اى من السبب الى النتيجة ، وفى التفسير الوظيفى تنتقل من الوظيفة الى الموضوع الذى قام بتلك الوظيفة اى من النتيجة الى السبب (١٤) .

وقد حاول بعض العلماء رد التفسير الوظيفى الى التفسير السببى فبينوا كيف نستطيع ترجمة تقرير عن وظيفة نظام ما الى تقرير سببى عن اصل واستمرار هذا النظام . احدى هذه الطرق تتمثل فى وضع احد النزعات الأصلية والعامة فى المجتمعات كمصادرة ، فنقول ان اجزاء المجتمع تندمج وظيفيا داخل الكل . وتكون وظيفة النظام فى هذه الحالة هى سبب وجوده *raison d'être* ، وبالتالي سببه أو علته *Cause* . وتقوم الاسس المنطقية لهذه المصادرة على التكامل *complementarity* بين الأدوار والأنظمة : ان دور الزوجة يتضمن دور الزوج ، ويتضمن تخصص الشخص فى الوظائف التنفيذية القول بأنظمة منفصلة للتشريع والقضاء ، وهكذا . اما الاساس المنطقى الثانى للمصادرة فيقوم على الاعتقاد فى أن تكامل المجتمعات يبنى على اندماج

(13) R. Gruner . *Teleological and Functional Explanation*. in *Mind*. October 1966, pp. 516 - 528 . p. 517.

(14) *Ibid*. p. 528.

وتكامل الشخصية الانسانية : فما دام فرد بعينه يقوم بأدوار عدة فى مجموعة من الأنظمة وما دام الأفراد يطمحون الى التماسك ، فيترتب على ذلك القول بأن كل أنظمة المجتمع لا بد لها أن تصطبغ بنفس التفصيلات القيمية ، وينفس أنماط الاتجاهات ازاء الفعل ، وبنفس نماذج السلطة ، وبنفس النظرة الى العالم مع نفس الاحساس بالوقت ... الخ (١٥) .

تعتبر الوظيفة اذن منها لتفسير الأحداث والأنظمة الاجتماعية وذلك عن طريق ذكر الوظيفة التى تؤديها . ويعتبر تحديد الوظيفة تفسيراً للظاهرة لانه يوجد مجموعة من الافتراضات النظرية عن كيفية عمل المجتمع . وتركز الوظيفة على فهم المجتمع باعتباره مجموعة من الأنساق (١٦) المرتبطة بعلاقات وذلك دون الرجوع الى حالات او أوضاع سابقة . وكفى التفسير الرجوع الى الوقائع الملاحظة والمعروفة فلا يوجد ما يستدعى الذهاب الى ما وراء الوقائع الملاحظة او الاستعانة بالتاريخ : ان كل اجزاء المجتمع ممكنة التفسير عن طريق الإشارة الى علاقاتها بالاجزاء الأخرى . ونستطيع القول ان الوظيفة هى عبارة عن نظرية خاصة بالمجتمع لا تحتاج الى اى بحث للمجتمع ذاته من أجل أنتوصل الى فهمه ومن هنا عدم حاجتها الى استخدام الحدس او المخيلة وتكفى الملاحظة التجريبية .

(15) R. P. Dore. Function and Cause. in Ryan (ed.) The Philosophy of Social Explanation pp. 65 - 81, p. 68.

(١٦) يشير مفهوم النسق الى كل من الاعتماد المتبادل والمعقد بين الأجزاء والمكونات والعمليات التى تتضمن علاقات مطردة ، كما يشير الى نمط ثانى من الاعتماد المتبادل قائم بين الموضوع والبيئة المحيطة .
(انظر :

T. Parsons Social Systems in D. Sills (ed.) op. cit. pp. 458 - 472, p. 458.

ولا شك ان استعراضنا لعدد من الشخصيات البارزة فى هذا الاتجاه سوف تلقى ضوًا على تطوره •

ويعتبر مالىنوفسكى (١٨٧٣ - ١٩٢٠) B. Malinowski
اول من استخدم المفهوم « وظيفة » فى الانثروبولوجيا الاجتماعية
كتعبير عن منهج معين واتجاه فى البحث ، وذلك فى مقالة له تحت
عنوان : « انثروبولوجيا » نشرت فى الموسوعة البريطانية عام ١٩٣٦ .
وقد تلاه بعد ذلك علماء آخرون مثل روبرت مرتون ، وراد كليف
براون ، وغيرهم •

وقد رأى مالىنوفسكى - ويدعى ابو الوظيفة - ان التحليل الوظيفى
للثقافة يهدف الى تفسير الوقائع الانثروبولوجية فى كافة مستويات
تطورها عن طريق وظائفها • ويحدث ذلك عن طريق معرفة الدور الذى
تلعبه الوقائع داخل النسق الثقافى ، والطريقة التى ترتبط بها هذه
الوقائع ببعضها البعض داخل النسق ، واخيرا بواسطة الطريقة التى
يرتبط بها النسق ذاته بما يحيط به من اشكال مادية • معنى ذلك ان
النظرة الوظيفية الى المجتمع تؤكد على المبدأ الذى يقوم على القول
بان كل نمط من انماط الحضارة ، وكل تقليد ، وكل موضوع مادى ،
وكل فكرة او معتقد ، تقوم بدور حيوى وتؤدى مهمة محددة ، وتمثل
جزءا لا غنى عنه فى داخل الكل (١٧) •

وتتوافق الأنظمة الرئيسية فى المجتمع مع الحاجات البيولوجية
الأساسية للكائن البشرى الذى لا يمكن له ان يعيش بدونها • ومن هنا رأى
مالىنوفسكى انه يتعين على التفسير الوظيفى لواقعة اجتماعية معينة ان
يبين قيمة استمرار هذه الواقعة وذلك عن طريق عرض وظيفتها فى

(17) B. Malinowski « Anthropology . » Encyclopedia
Britannica. Suppl. Vol. I New York and London 1936 pp. 132 -33

الوفاء بشروط الحياة وبالتالي فى ارضاء الحاجات الأساسية للكائنات البشرية (١٨) .

وقد دخلت الوظيفية علم الاجتماع من خلال تدريس راد كليف براون (١٨٨١ - ١٩٥٥) A.R. Radcliffe - Brown ، ثم قويت بفضل تالكوت بارسونز T. Parsons وظهر مفهوم « البنية » بجانب مفهوم « الوظيفة » فى اعمال راد كليف براون وبارسونز وأصبح « الوظيفى - البنائى » او « الوظيفى البنئوى » هو الشائع .

وركز راد كليف براون اهتمامه على الحياة الاجتماعية ، فقد رأى ان الوظيفة الأولية لاي عنصر داخل البناء الاجتماعى تتمثل فى الحفاظ على التماسك الاجتماعى . وبالتالي فان تحليلاته حاولت ان تبين كيف ان كل نظام ساهم مع عناصره المكونة فى المحافظة على التماسك اى على استمرار المجتمع . وقد قامت تصورات راد كليف براون ازاء المجتمع والثقافة على ثلاثة أسس : الثبات Stability والتوازن equilibrium والتكامل او الدمج Integration .

ولم تخلو نظرية راد كليف براون من مقارنات للتحليل الوظيفى فى كل من العلم الاجتماعى والفسولوجيا . فاذا تناولنا أى جزء من عملية حياة كائن ما مثل التنفس او الهضم ... الخ ، فاننا نجد ان وظيفته تتمثل فى الدور الذى يلعبه ، والمساهمة التى يقوم بها ازاء حياة الكائن باعتباره كيانا قائما بذاته . ان كل خلية وكل عضو له نشاطه الخاص ، وهذا النشاط له وظيفة . ونلاحظ أن وظيفة أى عملية فسيولوجية هى عبارة عن توافق بينها وبين احتياجات الكائن (اى الشروط

(18) B. Malinowski « The Functional Theory » in « A Scientific Theory of Culture . Chapel Hill. N. C. 1944 pp. 147. - 76 Quoted in Naguel Structure of Science p. 521.

الضرورية لوجوده) . فإذا انتقلنا من الحياة العضوية الى الحياة الاجتماعية وقمنا بدراسة مجتمع معين مثل القبائل الافريقية او الاستراليه ، فسوف نلاحظ وجود بنية او بناء اجتماعى Social structure وترتبط الكائنات البشرية الفردية - وتمثل الوحدات الأساسية فى هذه القبائل - بواسطة مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية لتكون كلا موحدا . ولا تؤثر التغيرات التى تحدث فى الوحدات على استمرارية البنية الاجتماعية تماما مثل البناء العضوى . فقد يترك بعض الأفراد المجتمع عن طريق الموت او خلافه ، وقد يدخل آخرون . ان ما يحافظ على استمرارية البناء هو الحياة الاجتماعية نفسها The process of social life التى تتكون من أنشطة وتفاعلات الأفراد ، ومن الجماعات المنظمة . وتعرف الحياة الاجتماعية لجماعة ما على أساس انها وظيفة البنية الاجتماعية او البناء الاجتماعى . وتعتبر وظيفة اى نشاط متكرر - مثل عقوبة جريمة ما ، او حفلة ، او جنازة ، تعتبر الدور الذى يلعبه هذا النشاط فى الحياة الاجتماعية ككل وبالتالي المساهمة التى يقوم بها فى المحافظة على الاستمرارية فى البنية او البناء (١٩) .

ان مهمة العلم الاجتماعى فى رأى راد كليف براون تتمثل فى دراسة طبيعة الانساق الاجتماعية . فهو يهدف الى كشف القضايا العامة التى تسمح لنا بفهم وتاويل خصائص الانساق الاجتماعية (٢٠) . والمشكلة التى تواجهنا هى امكان التوصل الى علم طبيعى للمجتمعات الانسانية . معنى ذلك القيام بتطبيق نفس الطرق المنطقية التى تستخدم

(19) A. R. Radcliffe - Brown. Structure and Function in Primitive Society London 1952 pp. 179 - 80.

(20) A. R. Radcliffe - Brown . A Natural Science of Society. Illinois : The Free Press 1957, p. 153.

فى العلوم الفيزيائية والبيولوجية على ظواهر الحياة الاجتماعية الخاصة بالبشر ، على الأنظمة الخلقية والدينية والقانونية ، وعلى الأنظمة السياسية والاقتصادية ، وعلى الفنون والعلوم ، وعلى اللغة . وذلك بهدف التوصل الى صيغ دقيقة علميا من التعميمات المحتملة ذات المعنى . ان هذا العلم الذى يتصوره راد كليف براون لا يوجد حتى الآن الا انه ممكن ، ذلك انه لا يوجد الا علم واحد على الرغم من ان كل علم قد يستخدم طرق مستقلة مثل اللغة ، ولا بد لهذا العلم ان يكون متميزا عن علم النفس كتميز الفسيولوجيا عن الكيمياء . اما المنهج المقترح فهو المماثلة أو المقارنة المنظمة للمجتمعات ذات الأشكال المختلفة . ويتوقف تطور العلم ونموه على تحسين المنهج المقارن وجعله أكثر دقة باعتباره أداة تحليل . ويحتاج هذا الى عدة خطوات هي :

١ - التحسن المستمر فى مناهج ملاحظة ووصف المجتمعات .

٢ - الوصول الى تعريف دقيق للمفاهيم الأساسية التى نحتاجها من أجل وصف وتصنيف وتحليل الظواهر الاجتماعية .

٣ - تطور التصنيف المنظم لأنماط المجتمع (٢١)

وقد اهتم راد كليف براون مثل كل الوظيفيين بالنسق ، ورأى أن كل المشكلات العلمية هي مشكلات الأنساق التى تقوم بالوصف . وقد نادى بالأنساق الطبيعية فالعلاقات داخل نسق طبيعى هي علاقات اعتماد متبادل *interdependence* . (٢٢) ويتحدد النسق عن طريق تعريف وحداته وتعريف العلاقات بين الوحدات المكونة للنسق . اما وحدات النسق الاجتماعى فهي البشر باعتبارهم مجموعات من الأحداث السلوكية تربط بينهم علاقات اجتماعية (٢٣) .

(21) Ibid. p. 3.

(22) Ibid. p. 19.

(23) Ibid. p. 28.

وتتمثل مشكلة العلوم الاجتماعية فى تقسيم الأنساق الى انماط types ولن نستطيع التوصل الى اى تقرير عن المجتمعات الا اذا ضنفها معا الى عدد من المجموعات التحتية subclasses اى الى انماط . واذا كان النسق كما راينا هو مجموعة من العلاقات بين مجموعة من الكيانات القائمة بذاتها فان تلك العلاقات لا تظل ثابتة ، فهناك اتصال ديناميكى ، ولكن يظل النسق موجودا طوال فترة هذا الاتصال. الديناميكى للبناء الاجتماعى (٢٤) .

وقد حدد راد كليف براون كل مشاكل المجتمع فى مجموعات ثلاث هى :

١ - كيف تصنف المجتمعات ؟

٢ - كيف تستمر ؟

٣ - كيف تغير نمطها ؟

وتنحصر مهمة العلوم الاجتماعية فى تأكيد البقاء الابدئ للانساق الاجتماعية عن طريق محافظتها على شكل البنية الاجتماعية الخاصة بها .

وتشتمل البنية الاجتماعية على نوع من الوحدة او الكيان الوظيفى على اعتبار انه يتألف من اجزاء او انساق اجتماعية تتوافق فيما بينها بدرجة منتظمة ، ويكون لكل نسق فيها وظيفته فى هذا الكيان . ولا شك أن رادكليف براون قد تابع اتجاه دوركايم فى تفسير طبيعة الظاهرة الاجتماعية والثقافية فى حدود عدد من المفروض النظرية ، مثل فرض التماسك solidarity ، وفرض الدوام والاستمرار consistency وظهور بعض الملامح والسمات البنائية التى تتساند فيما بينها حينئذ تنكامل وتتوظف فى البناء الاجتماعى (٢٥) .

(24) Ibid. p. 80.

(٢٥). قبارى اسماعيل . مرجع سابق ص ٣٦٩ .

وقد ظهرت أراء مرتون (١٩١٠ -) R. M. Merton
فى مقاله « الوظائف الواضحة والوظائف المستترة » Manifest and
Latent Functions كالتالى :

١ - يحتاج المفهوم « وظيفة » الى تعريف محدد ، لذا يجب فصل
المفاهيم المرتبطة بالحالات الذاتية عن تلك التى ترتبط بنتائج الأفعال ،
ويقول مرتون « ان الوظيفة الاجتماعية تشير إلى نتائج موضوعية
خاضعة للملاحظة و لا تشير الى ميول ذاتية (أهداف ، دوافع أو
غايات) » (٢٦) .

٢ - ان كثيرا من الاهتمامات الوظيفية فى علم الأنثروبولوجيا
يحتاج الى مراجعة واستبعاد . فالقضية التى تقوم على ان المجتمع يملك
وحده وظيفة أو اتساق ضمنى ، تلك القضية التى يرى مرتون انها ترتبط
برادكليف براون لابد وأن تستبعد ، او على الاقل لا تؤخذ كمسلمة ،
لان درجة تماسك المجتمع تحتاج ان تعامل كمفغير تجريبى . وتحتاج
قضايا اخرى الى مراجعة بهذا الشكل .

٣ - لا بد من مراجعة الوظيفة فى ضوء المسادية الجدلية كما تتبدى
لدى ماركس وإنجلز . وتحتاج هذه المراجعة فى رأى مرتون الى :

(١) اعتبار الوظائف نتائج ملاحظة للممارسات المقننة التى تساعد على
تلائم نسق ما أو تعديله (٢٧) وتوضع الوظيفة هنا فى مقابل الاختلال

(26) R. M. Meton. « Manifest and Latent Functions » in
Demerath and Peterson (eds.) System, Change and Conflict .
New York : Free Press 1967 , p. 14 .

(27) Merton Ibid. p. 43.

تلائم النسق dysfunction الذى يشير الى ظواهر تتحرك ضد
الوظيفى adaptation او تعديله .

(ب) لا بد ان يتضمن التحليل الوظيفى تقييم مجموعة النتائج . فقد
تكون ممارسة اجتماعية معينة وظيفية فى بعض جوانبها او فى
مستويات معينة للنسق التى هى جزء منه وتكون مختلفة وظيفيا فى
جوانب او مستويات اخرى .

(ج) يتحتم فصل الوظائف الواضحة manifest
وهى تلك النتائج الموضوعية التى تساهم فى تلاؤم او تعديل النسق
المعترف به من جانب المشاركين فيه (٢٨) ، فصلها عن الوظائف المستترة
latent غير المرغوب فيها وغير المعترف بها .

٤ - يحتاج تحليل المتطلبات الوظيفية للنسق الى استكمال عن
طريق الاعتراف بوجود مدى معين للتغيير فى البدائل الوظيفية . وتتحدد
احتمالات التغيير فى أى حالة بواسطة قيود اجتماعية Social constraints
مشتقة من العلاقة المتبادلة بين عناصر البنية أو البناء الاجتماعى (٢٩) .

ويعبر تالكوت بارسونز (١٩٠٢ -) T. Parsons
عن نزعة بنائية - وظيفية فى محاولة صياغة نظرية عامة عن المجتمع ،
ويتضح ذلك فى كتابية « بنية الفعل الاجتماعى » Structure of Social
Action و « النسق الاجتماعى » Social System .
لقد اعتبر بارسونز النسق العام للفعل بمعنى السلوك الانسانى هو نقطة
الانطلاق . وينقسم هذا النسق الى أربعة انساق تحتية soussystemes
نسق بيولوجى ، ونسق نفسى ، ونسق اجتماعى (تفاعل بين القائمين

(28) Loc. Cit.

(29) Ibid. p. 44.

بالفعل) ، ونسق ثقافى (معايير ، قيم ، ايدىولوجيات) ويأتى الفعل الواقعى كنتيجة للقوى الصادرة عن الانساق التجتية ، ويقوم كل علم من علوم الانسان بدراسة قطاع واحد . ويوجد تسلسل لهذه الانسقة التجتية: ان اكثر الانساق ثراء بالمعلومات يوجد فى النسق الثقافى الذى يقع فى القمة ، مع النسق الاجتماعى . واكثر الانساق ثراء بالنشاط هو النسق البيولوجى الذى يوجد فى اسفل السلم ، مع النسق النفسى (٣٠) .

وقد وضع بارسونز مجموعة شروط بدونها لا يصبح الملوك أو الفعل اجتماعيا وهي :

اولا : ضرورة ان يتضمن الموقف الاجتماعى تواجد عدد من الاشخاص المشتركين فى انجازه والقيام به .

والشرط الثانى : ان الموقف قد يصبح اجتماعيا اذا ما توافرت ردود الافعال المباشرة لسلوك الفاعل الاجتماعى .

اما الشرط الثالث والاخير : فيتعلق بضرورة مشاركة الفاعل الاجتماعى مع الآخرين ، وفى ضوء انساق التوقعات المنتظرة استنادا الى سيادة نسق من الرموز والمعتقدات والقيم . وارتكنا الى هذا الفهم ، فان افعال الاشخاص المشتركين فى موقف اجتماعى محدد سوف تصبح متشابهة اذا ما تشابهت الظروف والاشخاص . وقد تتكرر ايضا نفس الافعال والاشخاص فى مختلف المواقف والظروف ، اذا ما تكررت وتمثلت نفس الاهداف والتوقعات (٣١) .

.....

(30) M. Grawitz . Méthodes des Sciences Sociales p. 441.

(31) P. Cohen. Modern Social Theory . London : Heinemann
1968, P. 9 : Quoted in

د . قبارى اسماعيل ، ص ٣٧١ .

ويستند البناء الاجتماعى او البنية الاجتماعية الى عناصر التفاعل التى تدور بين سائر الافراد والاشخاص ، فالبناء الاجتماعى هو مبعث التصورات والمعايير المنظمة للسلوك ، كما انه مصدر عملية التنظيم التى تحدد السلوك الاجتماعى طبقا لقوالب معينة يفرضها النسق الاجتماعى . والفارق بين « النسق » و « البناء » او « البنية » هو فارق فى الدرجة حيث ان السلوك داخل النسق الاجتماعى هو جزء لا يتجزأ من نطاق او مدار اوسع واشمل هو اطار او مدار البناء الاجتماعى . والسلوك البنائى عند بارسونز هو ذلك السلوك الذى يخضع لنزعة كلية وجمعية ، وفقا لانساق التفاعل وطبقا لقواعد التوقع والنتائج المنتظرة (٣٢) .

وقد ميز بارسونز بين عناصر اربعة مكونة للبناء وثابتة هى :
 الادوار (المتصلة بالنشطة الافراد فى المجتمع : عمدة ، قاض ، ...)
 والكليات او الجماعات (أسر ، احزاب سياسية) ، والمعايير ، والقيم ،
 وتشتق المعايير والقيم من النمق الثقافى والنسق الاجتماعى ،
 وتمتاز بالثراء فى المعلومات بينما تمتاز الادوار والكليات
 او الجماعات بالنشاط . وكما حدد بارسونز عناصر البنية
 فقد بين ان النسق الاجتماعى يتحرك فى مواجهة عوامل اللاتوازن التى
 تهدده . ويذكر اربعة وظائف تقف فى مواجهة المشاكل : وظيفة الثبات
 المعيارى *stabilité normative* وهى اقل الوظائف دينامية
 (ويقارنها بارسونز بمبدأ القصور الذاتى فى الميكانيكا) ووظيفة التكامل
 او الدمج *intégration* التى تنظم العلاقة بين عناصر النسق ،
 ووظيفة متابعة الهدف ، واخيرا وظيفة التلائم *adaptation*
 التى تنحصر فى مجموعة الوسائل التى يملكها النسق للوصول الى
 تحقيق اهدافه . وتتسلسل هذه الوظائف الاربعة فى تواز مع الابنية
 او البنيات ، فتتوافق الوظائفان الاولى والثانية مع القيم والمعايير وتتوافق

الثالثة والرابعة مع الكليات او الجاهات والادوار باعتبارها اكثر اتصلا
بالواقع (٣٣) .

ثانياً : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفي :

تعرضت الوظيفية لكثير من الانتقادات فليل مثلا ان هذا الاتجاه
قد وضع قيودا تعوق البحث وتتمثل في المآخذ التالية :

١ - تحيز ايدولوجي محافظ يهدف الى المحافظة على الوضع القائم .

٢ - نقص في الوضوح المنهجي بسبب الاهتمام بالبناءات
والتفسيرات الغائية للحياة الاجتماعية .

٣ - تقدير غير متناسب لدور الانساق المخلقة في الحياة الاجتماعية .

٤ - فشل نسبي في تناول مشكلة التغير الاجتماعي بنجاح (٣٤) .

اما بالنسبة لكون الوظيفة متميزة ايدولوجيا ففي الواقع ان نظرتها
الايدولوجية قد انعكست على موضوع ومنهج الدراسة الاجتماعية ، وذلك
بتطبيقها لوجهات نظر محافظة تهدف الى الحفاظ على الوضع القائم
من خلال ترابط العلاقات داخل النمق ، وعلى سلامة البناء الذي هو
كيان كلى قائم بذاته .

وقد ارتبط بهذه النظرية المحافظة ميل شديد من جانب الوظيفيين

(33) Grawitz p. 442 .

(34) Don Martindale , Limits of and Alternatives to
Functionalism in Sociology . in D. Martindale (ed.) Functionalism
in the Social Sciences. Philadelphia : The American Academy of
Political and Social Sciences 1965 pp. 144-162, p. 156.

لتقديم تفسيرات ستاتيكية او استقرارية للمجتمع ، تنكر الاعتراف بالقوى المتعارضة والمتصارعة فى بناء المجتمع وتحاول أن ترد كل شئ الى فكرة التوازن اما الصراع فهو حالة مرضية عارضة او على الاقل حالة غير مرهبة ، وان المجتمع لن يلبث أن يرد الى حالة التوازن الاجتماعى الاصيل (٣٥) . ويرجع ذلك الى كونها نظرية محافظة تعلى من قيم التساند والانسيجام والتناغم من أجل تحقيق التضامن والتماسك بين سائر الانساق والانظمة والعلاقة المائدة فى البناء الاجتماعى . الامر الذى اخفقت معه النظرية الوظيفية الى حد كبير فى تفسير ظواهر التغير والصراع والتفكك (٣٦) .

لقد تصدت الوظيفية منذ البداية للماركسية بصراعاتها: (- مفهوم صراع الطبقات) ، وجمعت خصائص العقلية الامريكية وهى : النظرية الدينامية (هناك وظيفة) ، والنزعة النفعية (هناك فائدة او منفعة) ، واخيرا التوازن والتغاؤل (اغفال الاختلاف فى الوظائف) .

لقد اكّد رادكليف براون التماسك الاجتماعى من أجل استمرار المجتمع ، وعلى هذا الاساس اقام تحليلاته الوظيفية . الا ان هذا الاتجاه اهتم تماما بتفسير التغير ، وكان لا بد له من البحث عن تحليل اعمق للعوامل المؤدية الى التغير ، فكل تغير لا يمكن اعتباره ناتجا عن تأثيرات خارجية ، ذلك ان اغلب البناءات الاجتماعية تملك بداخلها عناصر الاعتراض والصراع بدليل ان التكامل او الدمج الاجتماعى لم يكن بالكمال المفترض ، كما ان اغلب المجتمعات ليست فى نوازن تام

(٣٥) د . احمد ابو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ، عالم الفكر ، الكويت المجلد الثامن . العدد الاول (ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٧) ص ٢٣٣ - ص ٢٥٤ - ص ٢٤٦ .

(36) P. Cohen. Modern Social Theory . Quoted in

د . قبارى اناعيل ، ص ٣٧٨ .

والصراع يعتبر أحد المظاهر الأساسية في المجتمع . ويقول باستيد R. Bastide في هذا الصدد : « ان الوظيفة تفسر جيدا لماذا تستمر الأشياء ولكنها لا تفسر لماذا تتغير ؟ » (٣٧) .

ويرى آخرون ان الوظيفية لم تقدم نظرية او تفسيراً ، فهي عاجزة عن القيام بذلك بسبب اهتمامها ، منذ البداية ، بقضايا خاصة بشروط التوازن الاجتماعى وهى قضايا لا يمكن ان تشتق منها نتائج نهائية فى نسق استنباطى (٣٨) . ويؤكد ناجل على استحالة اعتبار الوظيفية «نظرية» عن الثقافة لأن النظرية تحتاج الى الاتفاق مع الادلة التجريبية المتوافرة ؛ وهناك ادلة على ان المجتمعات ليست انساقاً عضوية متماسكة كما تدعى المدرسة الوظيفية (٣٩) .

اما عن التفسيرات التى يقدمها الاتجاه الوظيفى بهدف عرض وظائف عناصر مختلفة فى النسق الاجتماعى سواء للحفاظ على النسق او تغييره فانها - التفسيرات - تفقد الى المحتوى الواقعى Substantive content اما عن الادعاءات التى يقدمها الوظيفيون (سواء على شكل بديهيات او فروض للبحث) بخصوص الطابع الدمجى Integral أى الوحدة الوظيفية للانساق الاجتماعية - تلك الانساق الناتجة عن قيام انجزاء النسق بالعمل معا مع قدر كاف من « التوافق والانساق الداخلى » - أو الوظيفة الحيوية أى الدور الاساسى الذى يلعبه كل عنصر فى المجتمع

(37) R. Bastide. Sociologie Interpretative et Typologie constructive in Gurvitch « Sociologie au XXe siècle » (97 bis B 1970) pp. 71- 95 Quoted in Grawitz p. 428.

(38) Homans. Bringing men back in op. cit. p. 64.

(39) Nagel. Problems of concept and Theory Formation p. 194 , and also Nagel ..Structure of Science p. 525 .

داخل الكل العامل ، هذه الادعاءات لا يمكن الحكم عليها بأنها سليمة أو مشكوك فيها أو على خطأ . إن غياب الوصف الدقيقة تساعد على التعرف على الحالات الموجودة في نسق اجتماعي معين ، يجعل تلك الادعاءات غير قابلة للتحكم التجريبي ، خاصة وانها متلائمة مع كل حالة في الواقع ، وكل نتيجة للبحوث التجريبية في المجتمعات الحالية (٤٠) .

لما النقد انطوى الحاسم للوظيفية فهو القائل بأن الاتجاه الوظيفي إنما يعبر عن نزعة غائية teleological تترجح نحو التفسير الغائي ، حين تفترض فروضا غير قابلة للاختبار untestable .
لأنها تتطلب مستويات من البحث العلمي قد لا تتوافر على الإطلاق في ميدان علم الاجتماع . ومن هنا تعتبر النزعة الوظيفية والاتجاهات البنائية محاولات غير علمية ويائسة لتحقيق فروض غير قابلة للتحقيق . ثم إن محاولة تطبيق المنهج الوظيفي إنما تمنع المقارنة وتعمق تطبيق المنهج المقارن حيث يتعذر عقد مقارنات بين سائر النظم والانساق ، لأنها لا تفسر إلا في ضوء البناءات الاجتماعية التي هي أجزاء منها (٤١) .

ويؤخذ على هذا الاتجاه أنه يغفل العلاقات الاجتماعية الواقعية أو يتغافل عنها ، فلا يهتم إلا بالعموميات أو المبادئ التي تحكم سير المجتمع والتي يمكن الوصول إليها عن طريق التجريد العقلي . وهذا معناه عدم الاهتمام بالواقع المتغير أو بعلاقات الأفراد بعضهم ببعض مما يعنى في آخر الأمر أن ما يصفه العلماء البنائيون ليس هو الواقع وإنما هو شيء متخيل ومتصور وليس له وجود خارج أذهانهم وإنما يقدمونه لقراءتهم هو مجتمع من صنعهم هم ولا علاقة له بالحقبة الواقعية (٤٢) .

(40) Nagel, Structure of Science p. 530 .

(٤١) د . قباري اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٧٤ .

(٤٢) د . أبو زيد : مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

وقد اغفل التفسير الوظيفى ، والبنائى - الوظيفى البحث عن السبب او العلة . فعلى الرغم من محاولات التوفيق بين الوظيفة والسبب الا ان فكرة الوظيفة تتيح مجرد تحليل بعض المواقف وتقديم ملاحظات وقد تعنى بالمحافظة على السبب الموجود من قبل والذى تشتق منه الوقائع الا انها لا تتجاوز ذلك المستوى الى الاسباب التى أدت الى وجود تلك الوقائع .

الا ان الانتقادات السابقة لم تمنع وجود مزايا هامة فى المدرسة الوظيفية تمثلت فى الآتى :

١ - انها ادخلت مفهوم النسق system وهو مفهوم اجتماعى فى وقت كانت فيه التحليلات الاجتماعية موجهة نحو تحليل السلوك الفردى .

٢ - انها استبعدت التفكير فى الدوافع الإنسانية وادخلت بطريقة موضوعية عوامل محددة للمحافظة على الانساق الاجتماعية .

٣ - انها ساهمت ، عن طريق تأكيدها على النسق العضوى ، فى الاقتراب من تحقيق فكرة رادكليف براون عن العلم الطبيعى للمجتمع .

٤ - انها بينت عدم جدوى الدراسات الخاصة باصل ومنشأ الانظمة origin والعمليات التى تتغير الانظمة بواسطتها .

٥ - انها ربطت كل الظواهر الاجتماعية الى نسق موحد للفكر .

ولا شك ان المزايا السابقة تعتبر خطوات هامة من اجل فهم المجتمع وتفسيره .

ثالثا : الاتجاه البنيوي ونظرته الى التفسير :

يقدم لنا عالم النفس المشهور « جان بياجيه » أحد التعريفات الهامة للبنية فيذكر أنها كتقدير أول تعتبر نسقا من التحولات transformations يحوى قوانين (فى مقابل خصائص النسق) . ويحافظ النسق على ذاته ويثريها عن طريق الدور الذى تقوم به التحولات ، وذلك دون أن نخرج هذه التحولات عن حدودها أو تمتدعى أية عناصر خارجية . وباختصار نستطيع القول أن البنية تصنف بثلاث خصائص هى : الكلية أو الجملة totalité والتحول transformation وال ضبط الذاتى auto - rég'age . (٤٣) .

والمقصود بالسمة الاولى ، وهى الكلية ، هو أن البنية لا تتألف عن عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن « الكل » ، بل هى تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق ، من حيث هو « نسق » . ولا ترتد قوانين تركيب هذا النسق الى « ارتباطات تراكمية » ، بل هى تضى على « الكل » من حيث هو كذلك خواص « المجموعة » باعتبارها متميزة عن خصائص « العناصر » . وليس المهم فى « البنية » هو العنصر أو الكل الذى يفرض نفسه على العناصر ، وإنما المهم هو « العلاقات » القائمة بين العناصر ، أى عمليات التأليف (أو التكوين) ، على اعتبار أن « الكل » ليس إلا الناتج المترتب على تلك « العلاقات » أو « التأليفات » ، مع ملاحظة أن قانون هذه العلاقات ليس إلا قانون النسق نفسه .

(43) J. Piaget. Etudes d'épistémologie génétique . P. V. F. P.

8 Quoted in Grawitz. P. 429.

انظر أيضا جان بياجيه : البنيوية ، ترجمة عارف منيمنة ويشير
أوبرى ، بيروت منشورات عويدات ، ١٩٧١ ، ص ٨ .

« وإما المقصود بالسمة الثانية ، ألا وهى التحولات ، فهو أن « المجاميع الكلية » تتطور على ديناميكية ذاتية ، تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنة التى تحدث داخل « النسق » ، خاضعة فى الوقت نفسه لقوانين « البنية » الداخلية ، دون توقف على أية عوامل خارجية .

وإما المقصود بالسمة الثالثة ، وهى التنظيم الذاتى ، فهو أن فى وسع « البنيات » تنظيم نفسها بنفسها ، مما يحفظ لها وحدتها ، ويكفل لها المحافظة على بقائها ، ويحقق لها ضريا من « الانفلاق الذاتى » .
 ومعنى هذا أن للبنيات قوانينها الخاصة التى لا تجعل منها مجرد « مجموعات ناتجة عن تراكبات عرضية ، أو ناجمة عن تلاقى بعض العوامل الخارجية المستقلة عنها » بل هى « انسقة » مترابطة تنظم ذاتها ، سائرة فى ذلك على نهج مرسوم وفقا لعمليات منتظمة ، خاضعة لقواعد معينة ، ألا وهى قوانين « الكل » الخاص بهذه البنية أو تلك .
 وعلى الرغم من أن كل « بنية » مغلقة على ذاتها ، إلا أن هذا « الانفلاق » لا يمنع البنية الواحدة من أن تندرج تحت بنية أخرى لوسع ، على صورة بنية سفلية (أو تحتية) sous - structure (٤٤) .

.. أن بنية أى جماعة اجتماعية تعتبر قوة موجهة مكوناتها عبارة عن متغيرات معينة يرى الباحث أنها صالحة لتفسير كيفية عمل الجماعة .
 ويؤكد مفهوم بنية الافتراض القائم على وجود نموذج ممكن التحقق منه . سوف يقوم الباحث بالكشف عنه . ويعنى هذا أن العلاقات المتبادلة بين المتغيرات ليست عشوائية ، ويمثل هذا افتراضا أساسيا يبطل بدونه عمل البحث العلمى . ومن هذا المنظور تكون النظرية الهيكلية غير متميزة

(٤٤) د . زكريا إبراهيم : مشكلة البنية أو أضواء على البنية ،

القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

عن سواها من النظريات ، وتصبح بالتالى كل التفسيرات الاجتماعية
تفسيرات بنيوية (٤٥) .

وقد قدم لوفيفر H. Lefebvre ثلاث تصورات رئيسية للمفهوم
بنية :

الاول : ان البنية هى بناء construction ، وهى تقع فى
مكانة اعلى من الظواهر ، ويستخلص منها نسقا من العلاقات المتسقة .
ان البنية تعنى اذن النموذج او الشكل الصورى representation formelle
لمجموعة من العلاقات وقد بنى هذا النموذج من اجل دراسة مجموعة
من الظواهر ، والمشكلة المحددة التى تخص هذه الظواهر .

التصور الثانى : ان البنية هى الماهية (او الجوهر) او الشيء
المفهوم intelligible . ويضم هذا التصور المشتق من النظرية
الجستالطية نظريات الشكل والوظيفة والبنية ، وتتساوى هذه المفاهيم
مع مفهوم الكلية .

ويقوم التصور الثالث : على اعتبار ان البنية متغير نسبى ، فهى
لا تقع فى مستوى الواقع او فى مستوى تجريد مبنى . انها متغير نسبى
اى توازن غير ثابت بين قوى متعارضة تؤثر عليها فى حركة مستمرة من
البناء واعادة البناء ، وذلك مع وجود قوى اخرى اعلى منها تتحكم
فيها (٤٦) .

(45) W. G. Runciman . What is Structuralism ? in A. Rayan
(ed.) The Philosophy of Social Explanation . pp. 189 - 202, p.
181 .

(46) H. Lefebvre . Critique de la vie quotidienne (7B329)
Quoted in Grawitz p. 435.

ويرى جورفيتش أن « كل بنية اجتماعية سواء كانت جزئية (بنية جماعة معينة) أو كلية (بنية مجتمع بأكمله) هي توازن غير محدد précaire : يحتاج باستمرار الى إعادة تكوين بواسطة جهد متجدد - بين مجموعة من الأنظمة داخل مظهر اجتماعي لها ظاهري اجتماعي شامل تمثل البنية قطاعا منه . ويتأيد هذا التوازن الموجود بين الانظمة المختلفة بنماذج وعلامات ورموز ودوار اجتماعية وقيم وأفكار ، باختصار يؤيده الانتاج الثقافي الملثم لهذه البنيات » (٤٧) .

ان ايسر تعريف للبنية هو ان يقال « انها نظام - او نسق - من العقولية » . فليست البنية هي صورة الشيء او هيكله او وحدته المادية او التعميم الكلي الذي يربط اجزائه فحسب ، وانما هي ايضا « القانون » الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته . وبعبارة اخرى يمكننا ان نقول ان البنويين حينما يبحثون عن بنية هذا الشيء او ذاك ، فانهم لا يتوقفون عند المعنى التجريبي الذي يضعه الواقع بين ايدينا - على نحو مباشر - ، وكان كل ما يهمهم هو الوصول الى ادراك العلاقات المادية الظاهرية التي تحقق الترابط بين « عناصر » المجموعة الواحدة ، بل أنهم يهدفون الى الكشف عن « النسق العقلي » الذي يزودنا بتفسير للعمليات الجارية في نطاق مجموعة بعينها (٤٨) .

وقد تحدث ليفي ستروس عن مفهوم البنية في أحد الفصول الهامة من كتابه « الانثروبولوجيا البنوية » *Anthropologie structurale* فقال في هذا الصدد : « اذا كان النشاط اللاشعوري او اللاواعي *Inconscient* للعقل يقوم على فرض الشكل على المضمون ، واذا كانت

(47) G. Gurvitch. *Le Concept de Structure Sociale*. Cahiers Internationaux de sociologie 1955; pp. 3 - 44 . p. 43 .

(٤٨) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٣٣ .

هذه الاشكال لا تتغير بالنسبة لكل العقول سواء القديمة او المحدثه ،
 البدائية او المتحضرة - تماما مثل دراسة الوظيفة الرمزية كما تتبدى
 بطريقة واضحة فى اللغة - فانه يكفى ان نصل الى البيئة اللاشعورية
 اللاواعية الواقعة خلف كل نظام وكل تقليد لكى نصل الى تفسير سليم
 للأنظمة والتقاليد او العادات الأخرى ، بشرط ان نمضى فى التحليل الى
 مدى بعيد « (٤٩) » .

وسوف نحاول فيما يلى ان نتبين الاتجاه البنوي ونظرته الى التفسير
 فى كل من اللغة والعلوم الاجتماعية .

لقد نشأت البنوية اللغوية عندما بين العالم اللغوى فرد بناندى سوسير
 (١٨٥٧ - ١٩١٣) ، باعتباره الأب المؤسس لهذا المنهج ، ان تاريخ
 الكلمة لا يفسر معناها وانما يتوقف معناها على « نسق » عام للغة ،
 ويرتبط هذا النسق بظروف عصره (اى يتزامن معه synchronise) (٥٠) .
 وقد اقام دى سوسير تفرقة اولية هامة بين « اللغة » و « الكلام »
 على اعتبار ان اللغة - فى ماهيتها - نظام اجتماعى مستقل عن الفرد ،
 فى حين ان الكلام هو منها بمثابة التحقيق العينى الفردى . ومعنى هذا
 ان اللغة تقنين اجتماعى ، او مجموعة من القواعد code فى حين ان
 الكلام فعل فردى (يقوم به شخص ما فى حديثه مع اشباهه) (٥١) .

وترجع أهمية اللغة الى انها تنتمى الى تلك المجموعة الكبرى من

(49) C. Lévi - Strauss. *Anthropologie Structurale* p. 28
 Quoted in S. Thion *structurologie* . Alethia : Le Structuralisme.
 No. 4 Mai 1966 pp. 219-227 , p. 220 .

(50) Grawitz op. cit. p. 433.

(٥١) د . زكريا ابراهيم : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

« الانظمة الرمزية » التى تتألف منها الثقافة (بالمعنى الواسع لهذه الكلمة) ، ومن بينها الفن ، والاساطير ، والكتابة ، وآداب المعاملات ، وغير ذلك من الطقوس أو المواقفات الاجتماعية . وليست السيميولوجيا sémiologie سوى ذلك العلم الذى يدرس حياة العلاقات فى كنف الحياة الاجتماعية . وقد امتد المبدأ الذى اقامه دى سوسير فى هذا المجال خارج نطاق الدراسات اللغوية ، فعرف طريقة الى باقى العلوم الانسانية واصبح كل علم من هذه العلوم على وعى بسيميولوجيته الخاصة . وبدلا من أن تذوب اللغة فى المجتمع فقد شرع المجتمع يتعرف على نفسه باعتباره لغة . وهكذا راح بعض محطلى المجتمع يتسائلون عن مدى امكانية تفسير « البنيات الاجتماعية » او - على مستوى آخر - تفسير الاساطير بوصفها مجموعة من « الدالات » les signifiants التى لا بد من البحث لها عن « مدلولات » signifiés (٥٢) .

ولمست فكرة النظام او النسق عند سوسير سوى مجرد تأكيد لضرورة احلال المنهج البنئوى محل المنهج التاريخى فى دراسة الظواهر اللغوية ، خصوصا وان الدراسات التاريخية المقارنة للغات لم تؤد بالفعل الى الكشف من طبيعة اللغة بوصفها « صورة » لا جوهر . وبهذا بهد دى سوسير السبيل لحلول « البنية » محل الذرية atomisme والكلية محل الفردية فى مضمار الدراسات اللغوية عموما (٥٣) .

وقد اقام دى سوسير تفرقة هامة بين « التزامن » او التوائت synchronie من جهة ، وبين التطور او التعاقب diachronie من جهة اخرى . وعلى حين ان وجهة النظر « التزامنية » تمثل محورا افقيا تقوم فيه العلاقات بين « الاشياء المتواجدة » (او المتوائتة) على

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

اساس ثابت ليس للزمان فيه اى مدخل ، نجد ان وجهة النظر التعاقبية تمثل محورا راسيا . تقوم فيه العلاقات بين الاشياء المتتابعة على اساس التغيير الزمنى او التاريخى . وقد رأى دى سوسير ان اللغة - فى حد ذاتها - هى مجرد نمق او نظام ، بل وما دامت تعمل ، او تؤدى وظيفتها باعتبارها « بنية » ذات طبيعة رمزية ، فلا بد من التسليم بانها لا تنطوى - فى ذاتها - على اى بعد تاريخى . لقد قام دى سوسير بمعارضة تلك النزعة التطورية التى سادت فى القرن التاسع عشر واملت على علماء اللسان اعتبار التاريخ بمثابة المنظور الاساسى للغة ، واصطناع التعاقب كمبدأ أولى للتفسير ، مع الحرص على تجزئة اللغة الى عناصر منعزلة من اجل البحث عن قوانين التطور الخاصة بكل منها على حدة (٥٤) .

وقد انطلق تشومسكى N. Chomsky (١٩٢٨ -) ' ، عالم اللغويات البنويى المعاصر من موقف نقدى لكل من النحو التقليدى واللغويات البنوية السابقة عليه . لقد اهتم تشومسكى بصفة خاصة بالتفسير ، ومن هذا المنطلق ابرز اوجه القصور فى موقف النحو التقليدى وفى علم اللغة وبنويى ذلك ان كلاهما اقتصر على المرحلة الوصفية دون ان يتجاوزها .

ويرى تشومسكى اننا نغفل ملاحظة واقعة هامة تتمثل فى فقداننا القدرة على رؤية أهمية التفسير عندما تكون الظواهر مألوفة وبديهية اكثر من اللازم . ويعطى فى هذا الصدد مثالا من علم النفس : ان احد مشاكل العلوم النفسية يكمن فى اللفة familiarity مع الظواهر التى تتناولها تلك العلوم ، والمطلوب هو محاولة فكرية لرؤية كيف ان هذه الظواهر تثير مشاكل خطيرة وتدعو الى نظريات تفسيرية . فالذى يحدث هو ان المرء يميل الى النظر الى الظواهر على انها شئ مفروغ منه

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

باعتباره ضرورة أو شيء طبيعي . وهناك بالإضافة الى ذلك تأثير قد يكون أخطر من السابق يتمثل في كوننا نألف الظواهر الى درجة كبيرة لدرجة اننا قد نغفل عن رؤيتها اساسا (٥٥) .

وتواجه دراسة اللغة نفس المشكلة ، فالآراء البنوية والسلوكية قائمة على الاعتقاد في عدم أهمية التفسيرات ، أى الاعتقاد في أن العقل يجب أن يكون أبسط في بناءه من أى عضو آخر ، وأن أبسط الافتراضات لا بد وأن تكون صالحة لتفسير أى ظاهرة من الممكن ملاحظتها . وبالتالي تبدو اللغة كأنها بنية سلوكية أو شبكة من الارتباطات المجمع ، وتبدو معرفة اللغة كمجرد معرفة بجواب السؤال « كيف ؟ » . ويعتقد تشومسكى أننا لى نحقق تقدما في دراسة اللغة ، وفى القدرات الانسانية المعرفية يتحتم علينا ، منذ البداية ، إقامة ما يسمى بالمسافة النفسية Psychicdistance . بيننا وبين الوقائع العقلية » ثم نمضى لاستكشاف احتمالات إقامة نظريات تفسيرية مهما اثار تلك النظريات من تعقيد أو تجريد . ولا بد لنا من نعترف بأن أكثر الظواهر اللغة فى حاجة الى تفسير . ويبدأ البحث عن النظرية التفسيرية ، بتحديد أنساق القواعد systems of rules ، وهى تلك الأنساق التى تتيح فهم وانتاج جمل جديدة فى وقت مناسب ، ثم المضى لكشف المبادئ التى تحكمها (٥٦) أى أن الذات المتكلمة تملك ضريا من « النحو التوليديى grammare génératrice يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة (٥٧) .

(55) N. Chomsky. Problems of Explanation in Linguistics. in R. Berger and F. Cloffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences pp. 425 - 451 , p. 425 ,

(56) Ibid. pp. 426 - 427 .

(٥٧) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

يتضح لنا ان تشومسكى يسعى الى اقتراح نظرية تفسيرية فى عالم اللغة ، وتقترح هذه النظرية تفسير الظاهرة التى تقوم على كون المنكلم للغة المذكورة يدرك التعبير او القول utterance ويؤوله ويستخدمه بطرق معينة وليس بطرق اخرى ومن الممكن ايضا التوصل الى نظريات تفسيرية اكثر عمقا عن طريق ما يسميه تشومسكى النحو العام او النحو الكلى العام Universal grammar .

ان دراسة النحو الكلى الشامل هو دراسة لطبيعة القدرات العقلية الانسانية . وتحاول الدراسة ان تكشف التنظيم الداخلى الذى يحدد ما يكون الخبرة اللغوية بالاضافة الى ما تثيره اللغة على اساس من الخبرة (٥٨) . معنى ذلك ان تشومسكى يهتم بتأصيل النحو فى «العق اعماق» «التربة» العقلية المشتركة للغة البشرية ، على اساس ان العقل عنده فطرى وان اللغة بنحوها المنطقى - متصلة فى الحياة الذهنية التى يوجهها العقل (٥٩) .

وهكذا - على حد تعبير تشومسكى نفسه - نجد ان عالم اللغويات متورط ، على مستويات عدة ، فى بناء النظريات التفسيرية ، ويوجد على كل مستوى تأويل نفى واضح لعمله النظرى والوصفى . فهو يحاول على مستوى النحو المعين او الخاص Particular grammar ان يضع خصائص معرفة اللغة ، اى ذلك النسق المعرفى الذى يتطور بطريقة غير مفركة من جانب المتحدث - المستمع العادى ، ويحاول عالم اللغة ، على مستوى النحو الكلى الشامل اقامة خصائص عامة بالذكاء الانسانى . وهكذا نجد ان اللغويات تمثل مجالا تحتيا Sub - field . لعلم النفس الذى يتعامل مع تلك الجوانب العقلية (٦٠) .

(58) Chomsky op. cit. p. 428.

(٥٩) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(60) Chomsky . op. cit. p. 428.

وينتهي تشومسكى الى النتيجة التى تؤكد على كوننا نستطيع ان نظور ، من جهة ، نسقا من المبادئ العامة للنحو الكلى الشامل ، ومن جهة اخرى ، انواعا من النحو الخاص . ويتكون النحو الخاص ويقوم بالتفسير فى انساق مع مبادئ النحو الشامل . ويؤدى تداخل المبادئ العامة مع المبادئ الخاصة الى نتائج تجريبية . وتقدم هذه المبادئ ، على مختلف مستويات العمق ، تفسيرات للوقائع المهمة بالقدرة اللغوية *linguistic competence* ، وتفسيرات للوقائع المرتبطة بمعرفة اللغة (ويملكها كل متحدث طبيعى) ، واخيرا تفسيرات لبعض الطرق التى تستخدم تلك المعرفة من خلاله سواء من جانب المتحدث او المستمع (٦١) .

ويتضح لنا ان نظرية تشومسكى فى « النحو التوليدى » قد ارادت استخلاص النحو من المنطق واستنباط اللغة من الحياة العقلية الاصلية . ومادامت البنيات السطحية فى اللغة مستمدة من بنيات عميقة فان من واجب عالم اللغة البحث عن تلك البنيات العميقة التى تمثل الشروط الضرورية لتعلم اللغة ، خصوصا وان المقدرة اللغوية نفسها فطرية تشهد بوجود كليات لغوية اولية لدى الانسان (٦٢) .

كما احدثت البنيوية تأثيرا ضخما فى مجال الفويات فانها قد اثرت ايضا على مفاهيم وتصورات العلوم الاجتماعية خاصة علم الاجتماع والانثروبولوجيا . لقد واجه الانثروبولوجيون ، ومن بينهم ليفى ستروس ، مجموعة من اسئلة تعبر عن المشاكل الاساسية فى هذا المجال ، وهى :

اولا : كيف يمكن للسلوك الاجتماعى الخاص باى جماعة بشرية ان يقوم بالوصف بدقة وذكاء وبطريقة ذات معنى ؟

(61) Ibid. p. 449.

• (٦٢) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

ثانيا : كيف يتسنى تفسير وقبول تلك الظواهر الاجتماعية ؟

ثالثا : وهو اكثر الاسئلة اهمية : كيف ترتبط المجموعات المختلفة من الظواهر الاجتماعية الموجودة داخل جماعة واحدة - بأساطيرها ، ونسق القرابة فيها ، وانهاط زواجها ... الخ - كيف ترتبط ببعضها البعض وكيف يرتبط كل واحد منها بالجماعة ككل ؟

رابعا : ما هى العلاقات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية ككل سواء كانت هذه الجماعات قبائل بدائية او دولاً قبطاعية او مجتمعات صناعية متقدمة ؟ وما الذى تملكه تلك الجماعات بحيث يكون أساسا للمقارنات ذات المعنى ؟

لقد تصدت العلوم الاجتماعية وبالأذات علم الاجتماع والانثروبولوجيا لهذه الاسئلة بغية الاهتداء الى اجوبة لها . وقد رأى البنيويون ان اتجاههم يمثل المنهج الملائم للتعامل مع هذه الاسئلة وتنظيم المادة الخام للوقائع الملاحظة من أجل الاجابة عليها (٦٣) .

ان البنيوية فى واقع الامر عبارة عن منهج يضم كل الظواهر الاجتماعية الانسانية مهما كان شكلها ، وبهذا تضم بالإضافة الى المواقف الاجتماعية الخالصة (الانثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وعلم السياسة ، وعلم الاقتصاد ، وعلم النفس) ، الانسانيات (الادب والتاريخ واللغويات) وكذلك الفنون الجميلة . وترجع امكانية هذا الى ان كل صور النشاط الاجتماعى ، سواء كانت الملابس التى ترتدى ، ام الكتب التى تكتب ، ام نساق القرابة والزواج التى تمارس فى اى مجتمع ، تكون ما يسمى باللغات بالمعنى الشكلى . وبالتالي يمكن رد اطراذات هذه الصور الى نفس مجموعة القواعد المجردة التى تحدد وتحكم ما يسمى فى العادة

(63) M. Lane (ed.) Introduction to Structuralism . New York :

Basic Books , Inc . Publishers 1970. Introduction p. 12.

باسم اللغة ، وفى محاولة التقليل من الخلط بين المصطلحات استخدم البنيويون كلمة رمز Code لتغطية كل الأنماط الخاصة بالاتصال والمستخدم اجتماعيا . وتلك تلك الرموز الاجتماعية ، مثل اللغات ، قواعد . فإذا أخذنا كمثال رمز القرابة kinship والزواج فأننا نرى ان كل أعضاء المجتمع المرتبطين بعلاقة قرابة مع الأعضاء الآخرين يكونون معجبا ، أى تجميع لكافة التعبيرات الممكنة . وهذا ما نراه بالفعل فى معالجة ليفى ستروس لهذا الموضوع فى كتابه « البنيات الأولية للقرابة » Les structures élémentaires de la parenté

ولم يكن ليفى ستروس (١٩٠٨ -) أول من تحدث عن البنيوية فقد سبقه فى ذلك علماء اللغة ، كما انه لم يكن الوحيد الذى تحدث عنها فى العلوم الاجتماعية فيوجد التوسير Althusser وليتش Leach وغيرهم ، الا ان أعماله أحدثت تأثيرا كبيرا فى الفكر المعاصر وفى العلوم الاجتماعية والانسانية بشكل خاص مما أعطى له مكانة خاصة ، متميزة .

لقد اهتم ليفى ستروس بالعلاقات بين الظواهر أكثر من اهتمامه بطبيعة الظواهر ذاتها ، كما اهتم بالانساق التى تدخل فيها هذه العلاقات . لقد رأى إمكانية علم عام للانساق على أسس بنيوية لا بد وأن تضمن عمليات اجتماعية واعية او شعورية ولا واعية او لا شعورية . وقد طور آراءه بالنسبة لتناول أهم مظاهر الثقافة مثل اللغة ، والقرابة ، والنظام الاجتماعى ، والسحر ، والدين ، والفن . وذلك بهدف التوصل الى استبصار داخل الثقافة والى وعى جديد للمجتمع .

وترجع أصالة ليفى ستروس الى تأكيدده على الشكل forme وعلى أولوية العلاقات على الكيانات ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يتميز ليفى ستروس ببحثه المستمر عن العلاقات بين الظواهر على مستوى مجرد للغاية . الا انه ، فى نفس الوقت ، لا يغفل الواقع

مما يجعله يبدأ تعميماته دائما من الملاحظات التجريبية ويرجع دائما إليها .

والحق أن ليفي ستروس لا يريد النظر إلى « الظواهر » على أنها موضوعات منعزلة ، لا بد من تفسير كل ظاهرة منها على حدة بالاستناد إلى تاريخها الجزئي الخاص ، بل هو يريد مقابلة (أو معارضة) تلك الظواهر بعضها البعض ، من أجل البحث عن أوجه التباين وأوجه التشابه (القائمة في الظواهر نفسها) ، وإقامة ضرب من الحوار بينها ، بحيث تتبلى من خلال هذه المحاورة أو المواجهة الرسالة الحقيقية المشتركة التي تحملها تلك الظواهر ، بوصفها « الدلالة » العلمية الكفيلة وجاهها بتفسير تلك الكثرة المعقدة من الظواهر . ومعنى هذا أن المهمة الأساسية التي تقع على عاتق الباحث في العلوم الإنسانية إنما هي التصدي لأكثر الظواهر البشرية تعقيدا ، وتعسفا واضطرابا (أو عدم اتساق) من أجل محاولة الكشف عن نظام يكمن فيما وراء تلك « الفوضى » ، وبالتالي من أجل الوصول إلى « البنية » التي تتحكم في صميم العلاقات الباطنية للأشياء . ولكن المهمة – في نظر ليفي ستروس – هو أننا لا ندرك البنية إدراكا تجريبيا على مستوى العلاقات الظاهرية السطحية ، المباشرة ، القائمة بين الأشياء ، بل نحن ننشئها إنشاء بفضل النماذج *modèles* التي نعد من طريقها إلى تبسيط الواقع ، وأحداث التغيرات التي تسمح لنا بإدراك البنية (٦٤) .

لقد اعتبر ليفي ستروس العلاقات الاجتماعية مادة خام تستخدم لبناء النماذج ، وهذه النماذج تعد ملنا البنية الاجتماعية . ومن هنا لا يمكن إطلاقا رد البنية الاجتماعية إلى مجموع العلاقات الاجتماعية الملاحظة في مجتمع معين . إن البنية الاجتماعية لا تدعى أنه تملك مجالا خاصا بها وإنما هي بالأحرى تقدم منها قابلا للتطبيق على مختلف

(٦٤) د . زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، ص ٣٦ .

المشاكل الاجتماعية وعلى مختلف التحليلات البنوية المستخدمة فى مختلف المجالات .

ينحصر موضوع البنية اذن فى معرفة النماذج التى تعتبر موضوع التحليلات البنوية ، ولا ينتهى هذا الموضوع - فى نظر ليفى ستروس - الى الانثولوجيا (٦٥) او الانثروبولوجيا وانما الى نظرية المعرفة او منهج العلم epistemologie ولا بد للنماذج لكى تكون جديرة ان يطلق عليها التعبير « بنية » ان تتصف بأربعة سمات :

اولا : لا بد ان تؤلف نسقا من العناصر بحيث يؤدى كل تغير فى احدها الى تغير فى العناصر الاخرى .

ثانيا : لا بد ان ينتمى النموذج الى مجموعة تحولات ، وينتمى كل تحول بدوره الى نموذج معين بحيث تكون مجموعة التحولات مجموعة من النماذج .

ثالثا : لا بد وأن يكون النموذج قادرا على التنبؤ بالتغيرات التى يمكن ان تحدث فيه فى حالة تغير أحد عناصره .

رابعا : لا بد ان يبنى النموذج بطريقة تجعل كل الوقائع قابلة للملاحظة (٦٦) .

وقد رأى ليفى ستروس ان النماذج إما ان تكون واعية اى شعورية او لا واعية اى غير شعورية ، وذلك حسب المستوى الذى تتعمل فيه :

(٦٥) وتسمى أحيانا « علم دراسة الشعوب » ، او « علم الاعراق البشرية » وتسمى انثروبولوجيا فى التراث الانجلو ساكسونى .
(66) Claude Lévi - Strauss . *Anthropologie Structurale* .

Paris Librairie plon, 1958. p. 308.

وتوحى البنية المخفية فى اللاشعور الى وجود نموذج يخفيها عن الوعى او الشعور الجمعى conscience collective وتعتبر النماذج الواعية او الشعورية - التى تسمى بالمعايير normes - اقل انواع النماذج بالنسبة للوظيفة التى تؤديها ، ذلك انها لا تقوم بتفسير الظواهر وانما تحافظ عليها فقط وتجعلها مستمرة ويواجه التحليل البنىوى هنا مشكلة هامة هى ان البنية الظاهرة واضحة ، بينما من الصعب الوصول الى البنية العميقة بسبب النماذج الواعية المشوهة التى تقف كعائق بين الملاحظ وموضوع ملاحظته (٦٧) .

وقد تكون تلك النماذج ميكانيكية او احصائية . الاولى : تشير الى نماذج تقع عناصرها على نفس مستوى الظواهر مثل قوانين الزواج فى مجتمع بدائى حيث العناصر المكونة هى عبارة عن البشر انفسهم الموجودين فى قبائل او طبقات . بينما النموذج الاحصائى هو النموذج الذى توجد فيه العناصر على مستوى مختلف ومستوى ظواهر مثل قوانين الزواج فى مجتمع متحضر وحديث (٦٨) .

حقيقة ان رادكليف براون هو الذى ادخل مفهوم « البنية » فى مجال الانثروبولوجيا ، الا انه نظر اليها على انها « نظام من الوقائع » أى شئ معطى لوصف مجتمع معين . بينما تكمن اصالة ليفى ستروس فى انه نظر الى البنية ليس باعتبارها مجرد ظاهرة ناتجة عن تجمع البشر وانما باعتبارها نسقا يحكمه انساق داخلى ويتكشف هذا الانساق - الذى يفلت من الملاحظ العادى للنسق المعزول - فى دراسة التحولات . ويمكن عن طريق هذه الدراسة اعادة كشف عناصر اخرى شبيهة فى انساق تبسـدو ظاهريا مختلفة . وكل الانساق - مثل نماذج القرابة او مجموعة الاساطير - تقبل مثل اللغة الترجمة الى انساق اخرى . لقد راي

(67) Ibid. p. 308.

(68) S. Thlon. Structurologie, p. 222.

رادكليف براون ان البنية ليست الا الطريقة المستمرة التى يملكها كل من الافراد والجماعات فى اثناء تكوينهم لذواتهم وفى تجميع انفسهم داخل المجتمع : ومن هنا فقد اعتبر كل بنية مستقلة بذاتها ولا تترجم الى غيرها . بينما رأى ليفى ستروس ان البنية هى النسق ، والنسق تحكمه قواعد ورموز تتيح الترجمة الى نسق آخر . كما رأى ليفى ستروس ، على عكس مالبينوفسكى وراى كليف براون ، ان المقولات *catégories* اللاواعية او اللاشعورية ابعد ما تكون عن كونها لا عقلية او وظيفية ذات عقلانية متعالية . وبينما رأى الانثروبولوجيون الانجلوساكسونيون ان اللغة هى فرع من الانثروبولوجيا فقد دعى ليفى ستروس الى اعتبار الانثروبولوجيا فرعاً من اللغويات اى جزءاً من علم عام مستقبلى عن العلاقات (٦٩) .

ان اللغة ، على الرغم من كونها موضوعاً لعلم معين ، مثل العلوم الاخرى ، الا انها تصبغ العلوم جميعاً بصبغتها . فالعلوم الاجتماعية لا توجد بدونها ، ولا نستطيع ان نضع الوقائع اللغوية على نفس مستوى الوقائع الاقتصادية او القانونية ، فالاولى ممكنة الوجود فى غياب الثانية بينما لا توجد الثانية فى غياب الاولى (٧٠) .

ان اللغويات هى العلم الانسانى الوحيد الذى من الممكن ان يوضع على نفس المستوى مع العلوم الطبيعية . وذلك لاسباب ثلاث :

١ - انها تملك موضوعاً عاماً هو اللغة التى لا تخلو منها اى جماعة انسانية .

(69) O. Paz. Claude Lévi-Strauss . An Introduction. Translated by J. S. Benstein and M. Benstein London : Cornell University Press, 1970, p. 10.

(70) C. Lévi-strauss. Critères scientifiques dans les disciplines sociales et humaines. Aleteia op. cit. p. 197.

٢ - ان منهجها متجانس لا يتغير مهما كانت اللغة التى ينطبق عليها
- حديثة او قديمة ، بدائية او متحضرة .

٣ - ان منهج اللغة يقوم على مبادئ رئيسية يتفق المتخصصون حول
صدقها .

لا يوجد اذن - فى رأى ليفى ستروس - أى علم اجتماعى او
انسانى آخر تتوافر فيه هذه الشروط . ان موضوع علم الاقتصاد ليس عاما
وانما يرتبط بقطاع صغير من التطور الانسانى ، والمنهج الديموجرافى
(الخاص بعلم السكان demographie) ليس متجانسا ، كما ان
الانثولوجيين ابعد ما يكونوا على الاتفاق حول المبادئ التى تعتبر عند
علماء اللغويات شيئا مفروغا منه (٧١) .

ولما كان رأى ليفى ستروس ان اللغة قد وصلت الى مستوى
شبيه بمستوى العلوم الطبيعية ، فقد استقى من اللغويات الحديثة الاساس
الذى اقام عليه منهجه فى التحليل . ولا يعنى هذا ان ليفى شتراوس من
اتباع الاتجاه الوضعى وانما يشير هذا فقط الى سعيه ، اثناء قياده بفهم
وتفسير الوقائع ، الى الدقة الثابتة والى مستوى مقبول من النعميم .

لقد ميز ليفى ستروس بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية
والانسانية . ووجد ان هناك اختلافات بينهما . فالمجموعة الاولى اهتمت
- على عكس الثانية - بموضوعات لا يهتم بها غالبية الافراد فى المجتمع .
لذا تابع العلماء الطبيعيون بحوثهم فى عزلة وجاء اهتمامهم منحصرأ فى
الاشياء التى ظنوا ان باستطاعتهم تفسيرها ، وذلك بدلا من ان يفسروا
اشياء تهم الآخرين . ثانيا ، رأى ليفى ستروس ان كل بحث علمى يصارد
منذ البداية بثنائية بين الملاحظ وموضوعه . ويلعب الانسان فى مجال

العلوم الطبيعية دور الملاحظ والعالم هو موضوعه . والعالم الذى تجرى فيه الثنائية محدود كما كشف عن ذلك علمى الفيزياء والبيولوجيا المعاصرين الا انه فى نفس الوقت متسع لدرجة ان باستطاعة العلوم الدقيقة والطبيعية ان تمتد بحرية فيه . فاذا كانت العلوم الاجتماعية والانسانية علوما حقا فلا بد لها ان تحافظ على هذه الثنائية ، وعليها فقط ان تحركها حتى نصل بها الى داخل الانسان (اى بين الانسان الملاحظ والانسان او البشر الذين يخضعون للملاحظة) . واذا كانت العلوم الاجتماعية والانسانية ستأخذ العلوم الطبيعية كنموذج لها فانه يجب عليها الا تكتفى باجراء التجارب على البشر (وهو شيء مقبول نظريا ، فى رأى ليفى ستروس ، وسهل التطبيق ومقبول خلقيا) ، وانما لا بد ايضا ان يكون هؤلاء البشر غير واعين باننا نجري عليهم التجارب ، والا فان وعيهم هذا سوف يغير سير التجربة . وهكذا يبدو الوعى او الشعور كعدو خفى لعلوم الانسان سواء كان هذا الوعى على شكل تلقائى متعال على موضوع الملاحظة أو وعى منعكس - وعى الوعى - لدى العالم او الباحث .

ولا تخلو العلوم الانسانية من الطرق التى تجعلها تتغلب على تلك المشكلة والحل يوجد فى الاتجاه البنيوي . فاللاف الانساق الفونولوجية والنحوية التى توجد امام عالم اللغة ، وتعدد البنيات الاجتماعية الممتدة فى الزمان والمكان والتى تغذى حب الاستطلاع المؤرخ والاثنولوجى ، هذه الانساق والبنيات تمثل « خبرات » جاهزة لها طابع غير معكوس irreversible يضعف الفكرة التى نادى بها الوضعيون وهى ان هذه العلوم لا تهدف تماما الى التنبؤ بل الى التفسير . وفى الواقع اذا اخذنا التفسير بشكل اكثر دقة فاننا نجد انه يتضمن نوعا من التنبؤ . ولا توجد حتى فى العلوم الدقيقة والطبيعية ذاتها رابطة آلية بين التفسير والتنبؤ : فاحيانا يفسر العلم ظواهر لا يتنبأ بها ، مثل النظرية

الداروينية ، وإحيانا يقوم العلم بالتنبؤ بظواهر يعجز عن تفسيرها ، مثل
علم الارصاد الجوية métérologie (٧٢) .

ويبدو ان وظيفة العلوم الاجتماعية والانسانية تقع فى منتصف
الطريق بين التفسير والتنبؤ ، كما لو كانت عاجزة عن الاتجاه بتصميم
نحو احدهما . ولا يعنى هذا - فى رأى ليفى شتراوس - ان هذه العلوم
تخلو من الفائدة نظريا او عمليا وانما يعنى فقط ان فائدتها نفاس فى ضوء
العمليتين - التفسير والتنبؤ . ولأن هذه العلوم تأخذ من العمليتين فلها
وضع خاص وفريد تتلخص فيه مهمة العلوم الانسانية : ان هذه العلوم
لا تفسر أبدا - او نادرا ما تفعل - الى النهاية ، كما انها لا تقوم بالتنبؤ
بدرجة عالية من التاكيد (٧٣) .

ان الصعوبة فى العلوم الاجتماعية والانسانية - على حد تعبير ليفى
ستروس - تاتى من ان مختلف انساب تلك العلوم لا تقع على نفس المستوى
من الناحية المنطقية ، كما ان المستويات التى ترتبط بها متعددة ومعقدة
وكثيرا ما تكون تعريفاتها غير دقيقة . وتتخذ بعض هذه العلوم موضوعات
دراسة هى عبارة عن وجودات تجريبية تمتاز بكونها من العموميات
ومن الكليات desrealia et des tota : مثلا المجتمعات التى تمتاز
بكونها واقعية ومحددة فى مكان وزمان معين وفى نفس الوقت تخضع
للدراسة فى كليتها dans sa globalité . وكمثال على ذلك
الانثروبولوجيا (الانثروبولوجيا) والتاريخ . وترتبط علوم اخرى بوجودات
لا تقل واقعية الا انها تهتم بجزء منها او بمظهر معين ، مثلا اللغويات
تدرس اللغات ، والقانون يدرس الإشكال القانونية ، وعلم الاقتصاد يهتم

(72) C. Lévi - Strauss. Critères scientifiques, op. cit. pp. 194

- 195.

(73) Ibid. p. 196 .

بأنساق الانتاج والتبادل ، وعلم السياسة يدرس الأنظمة ذات الشكل المحدد (٧٤) .

ويرفض ليفي ستروس التمييز بين العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية بحجة ان الاولى تدرس الظواهر التى تنشأ فى الجماعة والثانية تتناول الأعمال التى ينتجها الافراد . فهذا غير صحيح كما يتضح فى احوال كثيرة ، فكل ما هو انسانى هو فى واقع الامر اجتماعى . وحينما نقول عن علم معين انه علم اجتماعى فان هذا القول يتضمن انه يهتم بالانسان (٧٥) .

واذا كنا قد رأينا كيف فسر دوركايم الظواهر بالرجوع الى الوعى الجمعى فانه ، قد اغفل ولا شك تفسير هذا الوعى الجمعى ذاته ، والطريقة التى يساهم بها الوعى الفردى فى تكوينه ، كما اغفل تفسير الصور التى تمثله أى بنيات الفكر الجمعى التى تكونه . ويؤثر هذا النقص على تفسيرات المجتمع ليس فقط حالياً وانما أيضاً تاريخياً حيث انه يغفل كيف قسام المجتمع بتكوين ذاته فى الماضى . وقد حاول ليفي ستروس سد هذا النقص فى التفسير عن طريق رد الاجتماعى الى الفردى مستخدماً طريقة خاصة وهى المصادرة « بالحالة الطبيعية » *Natural state*

الموجودة قبل ظهور الحالة الاجتماعية بالمعنى التاريخى . فمن الممكن الوصول الى الشيء الاجتماعى السابق على الواقعة اذا امكن التوصل الى الواقعية الاجتماعية « الطبيعية » باعتبارها عامة فى كل المجتمعات ، ويحدد ليفي ستروس هذه الواقعة بأنها ولا بد ان تكون متعسفة. *arbitrary* وفى نفس الوقت تتصف بالعلامة المميزة للطبيعة وهى انها ضرورية . وتتطور المشكلة فى كيفية اشتقاق الثقافة من الطبيعة . ان الطبيعة - فى نظر ليفي ستروس - مشتركة لدى الناس جميعاً وجزء من تراثهم ،

(74) Ibid. p p. 196 - 197.

(75) Ibid. p. 204 .

وهذا ما يمارسه لبشر فى استقلال عن تأثير المجتمع والتقاليد . بينما الثقافة هى القطب المقابل . فهى كل ما هو ليس بمشترك ، وكل ما يحتاج الى تعلم ، وكل ما هو معتمد على الحياة الاجتماعية وعلى معاييرها الجمعية . ان الشيء الثقافى هو المحتل والمنعطف The contingent and arbitrary والشيء الطبيعى هو « الضرورى والمطلق The necessary and absolute » وبالتالي تكون عملية تناول الطعام (الاكل) طبيعية لان البشر يفعلونها بناء على الغريزة ، بينما آداب المائدة او طريقة تناول الطعام ذاتها مختلفة من مجتمع الى آخر ، وبالتالي فهى ثقافية . لقد اراد ليفى ستروس ان يصل الى الواقعة التى تعتبر اجتماعية وطبيعية فى وقت واحد . لذا لجأ الى النشاط السلوكى والى الجنس بصفة خاصة ، فقد رأى انسه طبيعى وغريزى وفى نفس الوقت اجتماعى لانه يحتاج الى شخصين (٧٦) . ومن هنا كانت تحليلاته للزواج ونسق القرابة .

وتعتبر اهم خاصية فى المنهج البنيوى محاولة دراسة الشبكة المعقدة من العلاقات التى تربط وتجمع عناصر الكل ، وليس دراسة هذه العناصر ذاتها . وقد بين ليفى ستروس فى كتبه الثلاث عن الاساطير تحت عنوان Mythologique ، بين اننا لسنا بصدد تفسير تقليدى لسلسلة من الاساطير او حتى من الاحداث او الشخصيات التى تحدث فيها ، وانما نحن بصدد بيان للعلاقات بين الاساطير وبعضها ، والعلاقات بين الاحداث والكليات .

وتبحث البنيوية عن بنيتها تحت او خلف الواقع التجريبي وليس على السطح او على مستوى الشيء الملاحظ . لقد بين ليفى ستروس فى افتتاحية كتابه « الفج والمطهى » Le Cru et le cuit

(76) C. R. Badcock. Lévi - strauss. Structuralism and Sociological Theory. New York, Holmes and Meir Publishers 1976 p,34.

ان علينا الانستبعد ان البشر الذين انتجوا بانفسهم هذه الاساطير وعاشوها من الممكن ان يكونوا متنبهين لبنيتها وطريقة عملها ، الا ان ه ذا يعتبر شيئا غير عادى ولا يحدث الا بشكل عارض للغاية (٧٧) ان البشر الذين يقومون باستخدام اللغة يطبقون القوانين الفونولوجية والنحوية على كلامهم الا انهم غير واعين بهذه القوانين ، ولا يستطيعون ان يذكروها اذا طلب منهم ذلك . ويصدق نفس الشيء على النشاط الاجتماعى .

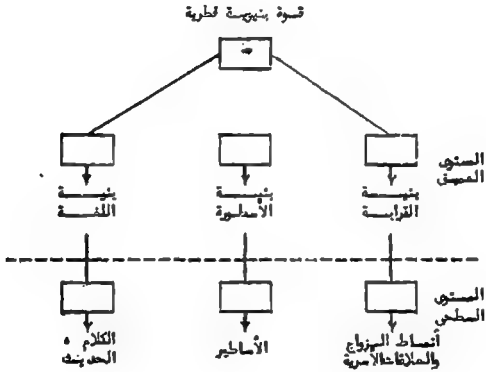
لا سبيل الى فهم الاساطير اذن الا باعتبارها « لغة » او لغات رمزية تمثل نظاما متسقا من التقابلات . والفكرة الاساسية التى يصدر عنها ليفى شتراوس هى ان العقل البشرى واحد ، وان التفكير الاسطورى ليس تفكيرا سابقا على المنطق *prélogique* بل هو تفكير منطقى على مستوى المحسوس ، بمعنى انه تفكير تصنيفى يستعين بمجموعة من المقولات التجريبية (فج ومطهى ، طازج وفاسد ، مبلل وبحروق ... الخ) . وليست هذه المقولات التجريبية سوى ادوات تصويرية ناجحة تصلح لاستخلاص بعض المعانى المجردة والربط بينها وبين بعض على شكل سلسلة من القضايا . والواقع ان مضمون الاسطورة لا يمثل العنصر الا هم من عناصرها ، بل ربما كان افدح خطأ يمكن ان يرتكبه الباحث هو أن يعمد الى تفسير كل رمز على حده . والحق ان الرمز ليس مستقلا او قائما بذاته بالمقياس الى السياق الذى يرد فيه ، وانما لا بد من الاقرار بأن دلالة أى رمز هى فى صميمها دلالة « موضوعية » تتحدد بالسياق الذى يرد فيه ويتسب ليفى مستروس الى الاساطير ضريا من الموضوعية ، ويقول ان لها « بنيتها » او « بنياتها » الخاصة (٧٨) .

ولا يمكن رؤية البنية ذاتها فهى تشتت فقط مما هو مرئى ، فتوجد

(77) C. Lévi - Strauss. *Le cru et le cuit*. Paris, Librairie Plon 1964 , p. 15.

(٧٨) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٨٨ .

البنية العميقة فى مقابل البنية السطحية - وهو ما نراه بالفعل أو نسمعه ،
 ويبدو ان هناك موافقة عامة بين بعض البنويين ، خاصة ليفى ستروس
 فى الانثروبولوجيا وجاكوبسون فى اللغويات وبياجيه فى علم النفس ،
 على انه يوجد فى داخل الانسان آلية محددة وفطرية تنتقل ارتقائيا
 وتمثل قوة بنوية Structuring force . ويمثل الرسم التالى
 تصور البنية عند ليفى ستروس وزملاؤه (٧٩) .



ونرى من هذا النموذج الاسباب التى دعت البنيويين الى التاكيد على عدم تقسيم كافة الظواهر الاجتماعية فى مجتمع معين . فاذا كانت الظواهر تتبع هذا النموذج فاننا ننتظر ان نرى تماثلات وتوافقات فى البنية بين جوانب المجتمع . وقد اقترح ليفى ستروس ان تقوم المجتمعات بتطوير وسائل بنيوية لحل الصراعات والاختلافات والتضاربات التى تنشأ بين العناصر المختلفة فى البنية السطحية اثناء مرورها بالبنية العميقة عن طريق البنيات التى اسماها ليفى شتراوس البنيات الوسيطة mediating (٨٠) .

ويهتم التحليل البنيوي اساسا بالبنيات المتزامنة فى مقابل البنيات المتعاقبة ويركز اهتمامه على العلاقات الموجودة فى لحظة معينة فى الزمان وليس عبر الزمان . وتعتبر البنية السانكرونية محددة بواسطة العلاقات البنيوية الموجودة حاليا وليس بواسطة أى عملية تاريخية .

وكتيجة لهذا الاهتمام يعتبر الاتجاه البنيوي لا سببى anti-causal فلغة التحليل البنيوي فى شكلها الخالص لا تستعين بمفاهيم السبب والنتيجة أو العلة والمعلول : انها ترفض هذا التصور للعالم مفضلة عليه « قوانين التحولات » . وتعنى هذه القوانين الاطرادات التى تشبه القوانين law-like regularities التى لا يمكن ملاحظتها ، أو اشتقاقها من الملاحظة ، وعن طريقها يتحول الشكل البنيوي الى شكل آخر .

ان ما يقدمه البنيويون هو ما يلى : اذا قارنا نمطين من العلاقات اجتماعية (قد تكون اساطير أو علاقات قرابة أو نماذج من السلطة ...) منفصلين فى الزمان والمكان ، مجتمع واحد فى موضعين مختلفين من التاريخ أو مجتمعين فى نفس الموضع من التاريخ ، فاننا نلاحظ اختلافات فى الصورة البنيوية أى فى نظام وطبيعة اشكال العلاقات . فاذا فسرنا

الموقف بطريقة تقليدية فاننا نقول ان هناك عامل او عوامل سببت اختلاف بين العلاقات اما الاتجاه البنيوي فهو يؤكد على تحول البنية الى بنية اخرى ، واذا استمرت الملاحظات فاننا نستطيع القول بان البنية المحددة تتحول دائما بطريقة معينة فينتج عن ذلك قوانين التحول وهى ليست القوانين السببية أو العلبة (٨١) .

رابعا : نظرية نقدية الى الاتجاه البنيوي :

لا شك ان النقد الاول الذى يوجه الى الاتجاه البنيوي هو صعوبة اللغة . التى يعبر بها البنيويون عن آرائهم . كما أنهم لم يصوغوا المبادئ الاساسية للاتجاه البنيوي بطريقة واضحة فجاءت تعبيراتهم جزئية ومحتوية على كثير من المعانى الضمنية .

وقد قدمت البنيوية فى الواقع افتراضات نظرية كثيرة تعتبر هامة الا انها لا تخضع للاختبار . هذه الافتراضات هى كالتالى :

١ - ان كل انماط السلوك الاجتماعى هى عبارة عن رموز او قواعد codes لها نفس خصائص اللغات .

٢ - ان الانسان يملك قدرة بنيوية نظرية تجعله يدرك الحدود التى تتكون بداخلها بنية كل انماط الظواهر الاجتماعية .

٣ - ان العلاقات قابلة لأن ترد الى تقابلات ثنائية binary (وعلى الرغم من انه فى الامكان منطقيا تقسيم العالم الى مجموعات موجبة ومجموعات سالبة الا ان هذا النوع من التقابل تافه ومجذب) (٨٢) .

(81) Ibid. p. 17 .

(82) Lane op. cit. p. 18.

ان ليفى ستروس عندما حاول التقريب بين الفكر الاسطورى والفكر العلمى لم يلجأ الى التحقيق العلمى الصرف . لقد أراد ليفى شتراوس تحويل منهجه الى نظرية كاملة فتحوّلت تلك النظرية الى ايدىولوجيا دون اعتراف من جانبها بذلك ودون التعرف على آثار تلك النتيجة .

ان ليفى ستروس على الرغم من انه قد حدد - شأنه فى ذلك شأن ماركس ، وفرويد وغيرهما - موقفه العلمى بمعارضته للفلسفة ، وثورته على كل تفكير فلسفى ، الا أننا نلمح لديه مواقف « ميتا - علمية » توقعه من جديد فى حبال الايدىولوجيا . صحيح انه قد كسب بعض النقاط فى معركته الضارية مع الفلسفة ، ولكن من المؤكد ان الكثير مما اعتبره هو « تصورات علمية » ، تم التثبيت من صحتها ، قد بقى حتى النهاية - مجرد نظريات فلسفية تفتقر الى التحقيق العلمى الدقيق ، وبالتالي مجرد « افتراضات ميتافيزيقية » لا اكثر ولا اقل (٨٣) .

لقد رفض البعض اعتبار نظرية ليفى شتراوس نظرية متميزة او منهجه منهجا أصيلا ، اعتبروا كل ما يميزه هو تقديمه للنماذج وتطبيقها على السلوك الاجتماعى ، سواء على المجتمعات ككل او على مظاهر من المجتمع كالعادات والمعتقدات (٨٤) .

اما الهجوم العنيف على الاتجاه البنىوى فهو الذى انصب على اهمال هذا الاتجاه للتاريخ . ان وضع التاريخ كبعد متساو مع أى بعد آخر فى الدراسة سلب التاريخ اهم خصائصه وهى الحركة عبر الزمان .

ان المرء قد يتفق مع ليفى ستروس على ضرورة التليم بانفصال الزمان وتقطعه وتنوعه وعدم تجانسه ، وقد نقبل فكرة التقدم المستمر

(٨٣) د. زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٥ .

(84) Runciman op. cit. p. 202.

السائر دائما فى خط مستقيم وحيد الاتجاه ، ولكنه لن يستطيع الأخذ بوجهة نظر لا زمانية ، تضع التاريخ بين قوسين ، ونقرر أن التزامن (السانكرونى) تعبير عن تعاقب (دياكرونى) ثابت . والدافع ان ليفى ستروس عندما يقول عن التاريخ انه مجرد اسطورة حديثة يكفى لتفسيرها تفسيراً عميقاً ، ان نرتد الى مجموعة من البنيات ، وضروب عديدة من التوافق والتناظر ٠٠٠ الخ ، فانه - فى الحقيقة - انما يستبعد المشكلة الأصلية ولكنه لا يحلها (٨٥) .

لقد استخدم البنويون النماذج *modèles* البنوية للانسان والمجتمع كوسائل للكشف والمساعدة على الفهم ، الا ان المجتمع ليس على الصورة التى قدمها البنويون ذلك انهم اغفلوا الواقع وذهبوا الى ما وراء المسطح الظاهر ، ونادوا بالكشف عن البنيات اللا واعية والعميقة . وفى الواقع ان محاولة البنوية الكشف عن البنيات العميقة ومحاولة ليفى ستروس اقامة نموذج او بنية وسيطة تحل كافة الاختلافات والصراعات هو تصور ذهنى بعيد عن الواقع .

والتساؤل هو كيف تكون البنية متطابقة مع الواقع وفى الوقت نفسه صادرة عن الذهن أو العقل البشرى الذى يصفه ليفى ستروس بأنه يظل باستمرار متطابقاً مع نفسه ، مساوياً لذاته ؟ انه ليفى ستروس على خلاف دوركايم يرفض اعطاء الصدارة للعامل الاجتماعى على العامل العقلى لأنه يبين ان النشاط الذهني لدى الانسان ليس مجرد انعكاس للتنظيم الواقعي للمجتمع ، ولكنه حين يرد البنيات الى هذا النشاط الذهني ، فقد يكون من حقنا ان نقسال : ماذا عسى أن يكون نمط الموجود الذى يمتلكه الذهن أو العقل ، خصوصاً وان ليفى ستروتوس يقول انه ليس اجتماعياً ولا نفسياً ولا عضوياً ؟ (٨٦)

(٨٥) د. زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٤ .

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

وقد تعرضت قوانين التحول لدى البنيوية للنقد . فقد رفضت البنيوية القوانين السببية ودعت الى قوانين التحول . والواقع ان التفسير يحتاج الى ذكر الاسباب او العلل فاذا استبعدت فمعنى ذلك - فى رأى بعض النقاد - استبعاد لامكانية التوصل الى تفسيرات سليمة وصالحة (٨٧) .

الا ان الانتقادات السابقة لم تستبعد النواحي الايجابية فى الاتجاه البنيوى خاصة وأنه يمثل محاولة أصيلة لحل مشكلة العلوم الاجتماعية بشكل عام والصراع بين الاتجاهات المثالية والتجريبية بشكل خاص . لقد اهتم ليفى ستروس بنظرية المعرفة *epistemologie* وبمنهج العلم وحاول تفسير الثقافة بالرجوع الى مكونات العقل الانسانى . وهذا ما جعل يستحق ان يسمى بالفيلسوف الكانطى وقد قبل ليفى ستروس هذه التسمية بشرط ان يكون معلوما انه يسعى نحو كانطية فى مجال الاثنولوجيا وليست كانطية متعالية (٨٨) .

لقد اراد ليفى ستروس التوصل الى وعى جديد بالمجتمع عن طريق التحليل البنيوى . ويقوم التحليل البنيوى على رد كافة العناصر الثقافية الى عناصر بنيوية ومن هنا امكن تعريف علاقات التقابل والارتباط والتعديل والتحويل بين العناصر وهكذا توصل ليفى ستروس الى تفسير التماثلات *homologies* بين الانظمة داخل مجتمع واحد لو بين مجتمعات متعددة . ويحدث هذا التفسير فى ضوء منهج جدلى وليس فى ضوء عملية ميكانيكية صرفه وقد استعان ليفى شتراوس ، من اجل تسجيل الاتفاق والاختلاف بالاشكال النسقية اى بالنماذج التى استطاع تجريدها فى مستويات مختلفة وامكنه ان يقارن بينها .

(87) Lane op. cit. p. 18.

(88) C. Lévi. Strauss. Le cru et le cuit p. 19 Quoted in Runciman op. cit. p. 109.

وتتجلى رغبة ليفى ستروس فى التوصل الى مبدأ للتفسير فى قوله
بضرورة التوصل الى البنية اللا واعية او اللا شعورية الكامنة وراء كل
نظام اجتماعى ، وسيتيح مبدأ التفسير الذى نتوصل اليه المقارنة بين
مجتمعات مختلفة مما يسهل لنا تفسيرها .

اما عن اهتمام ليفى ستروس بالأساطير ودراسته لها فهو اهتمام
نابع من اعتقاد بان هناك طبيعة بشرية واحدة تجمع بين العقلية البدائية
والعقلية العلمية فى صورتها الحديثة .

ان الأساطير لا تعنى عند ليفى ستروس سوى العقل البشرى الذى
يضعها مستعينا فى ذلك بالعالم ، على اعتبار انه هو نفسه جزء منه
(أى جزء من العالم) ويهوى الانسجام ، الا انه يقرر فى الوقت نفسه
ان الأساطير ترسم لنا صورة محسوسة عن العالم ، على اعتبار ان هذه
الصورة مسجلة منذ البداية فى صميم التكوين العمارى للعقل
البشرى(٨٩) . لقد اعتبر ليفى ستروس كافة الأساطير مرتبطة ببعضها
البعض ، ذلك انها تحكى قصة مستعينة فى ذلك بالتاريخ والأدب ،
ولأنها تملك بنية خاصة بها فهى ترتبط ايضا بالموسيقى . ان الأساطير
بسبب طبيعتها لا بد وان تضى بطريقة دياكرونية أى منذ البداية الى
النهاية وكل حدث يسلم الى غيره من الأحداث . وللأسطورة ايضا بعد
سانكرونى فى داخلها ، وهى مثل الموسيقى تخضع للتحويلات سواء على
شكل تكرارات أى اطراادات او اختلافات(٩٠) .

ولا شك ان ليفى ستروس قد نجح فى كشف قصور المناهج الوضعية
فى دراسة الظواهر الانسانية لوقوفها عند سطح الظواهر وتجزئتها الى
ذرات . واستطاع كذلك أن يبرز الى الضوء تفرقة جوهرية بين عالم

(٨٩) د. زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٩١ .

(90) Badcock op. cit. p. 54.

الخبرة العينية المباشرة ، والصورة العلمية التى تهدف الى كشف أعماقه ،
والتميز بين متغيراته وثوابته ، كما لا يمكننا ان نغفل أهمية تعيين
مجالات النماذج الميكانيكية والاحصائية التى يؤدى الخلط بينها الى
الكثير من اختلاف التفسيرات وتشقت النتائج (٩١) .

وترجع أصالة ليفى شتراوس على تأكيده على الشكل وعلى أولوية
العلاقات على الكيانات القائمة بذاتها . وعلى أهمية العلاقة بين العمل
الميدانى والنظري ، اى بين وصف الظواهر وتحليلها بنيويا . انه ينظر
الى الانثولوجيا (الانثروبولوجيا) باعتبارها دراسة للانسان فى الماضى
 والحاضر ، وفى كل المظاهر - الطبيعية واللغوية والثقافية سواء الواعية
او اللا واعية . وقد حاول ربط السانكرونى بالدياكرونى ، والفرد
بالثقافة ، والفسولوجى بالميكولوجى ، والتحليل الموضوعى للأنظمة
بالخبرة الذاتية للأفراد . وبهذا كله قدم شيئا جديدا واصيلا .

(٩١) د. صلاح قنصوه : الموضوعية فى العلوم الانسانية . دار
الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٨١

خاتمة

حاولنا فى الفصول السابقة ان نعالج ، ووضوع التفسير من زوايا عدة فتحديثنا عنه كعملية منهجية اساسية فى العلم بصفة عامة والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة ، وبيننا الاشكال التى يوجد عليها فى العلم ، وقد حاولنا ان نتبّع فكر المدارس والاتجاهات المختلفة للنصل الى رؤية كل منها الى هذا الموضوع الهام ، وذلك فى اطار نظرة نقدية تبين النواحي الايجابية والسلبية فى كل اتجاه .

وترجع اهمية موضوع التفسير وخطورته فى الوقت نفسه الى عاملين رئيسيين :

اولا : ان أحد الاسس التى يقوم عليها العلم هو التوصل الى كشف الغامض واطهار الخفى بقصد الفهم والتنبؤ وان امكن التحكم ، ولا يتسنى هذا الكشف الا بعملية منهجية دقيقة هى تفسير الظواهر تفسيراً يقوم على اجلاء ما خفى فى الطبيعة سواء الفيزيائية ام الانسانية والاجتماعية .

ثانيا : اذا اعتبرنا العلوم الاجتماعية علوماً - وهو ما استقر عليه الراى بين كافة العلماء وفلاسفة العلم - فان معنى ذلك هو انها تحاول تطوير نظريات تفسر بها الوقائع الاجتماعية . وتعتبر دراسة التفسير هى دراسة لمدى علمية العلوم الاجتماعية وقدرتها على الوقوف على قديمها فى استقلال عن العلوم الطبيعية مع احتفاظها فى الوقت نفسه بالنظرة الموضوعية وسيرها على اسس ومبادئ منهجية علمية .

وقد حاولنا فى البداية ان نعطى فكرة سريعة عن العلم فى اطاره العام ، ووجدنا انه عملية مستمرة متطورة تقوم اساساً على

منهج : فلا يكفى معرفة نتائج العلوم ، وانما الاهم هو معرفة الخطوات والعمليات التى ادت الى تلك النتائج . ومن هنا جاء الاهتمام بمنهج العلم . فناقشنا فى هذا الاطار فلسفة العلوم الاجتماعية من حيث موضوع الدراسة ومنهج البحث الملائم وإبرزنا بعض المشكلات التى لم تحسم بعد ولا زالت محل خلاف فى الراى .

ولقد كان الراى السائد بشكل عام هو أن العلم فى حاجة ، بصفة دائمة ، الى منهج للدراسة ، منهج يكون محددا منذ البداية يلتزم به الباحث ويسير على دربه حتى يصل الى نتائج تثرى المعرفة . الا أن بعض الآراء المعاصرة - التى نتفق معها ترى عدم التقيد بمنهج واحد محدد ، والمطلوب هو ترك حرية الاختيار مفتوحة امام الباحث العلمى . ان الطبيعة تكشف عن نفسها بواسطة مجموعة من المناهج وليس بواسطة منهج بعينه ، ومن الخطأ أن نقيد انفسنا مقدما (١) ويخطئ الباحث اذا ظن ان الاساطير الموجودة لدى الشعوب البدائية اسقاطات او خيالات ، وانما هى استبصارات عميقة فى داخل طبيعة الاشياء ، تفوق أحيانا قدرة العلم الحديث . فالأسطورة اعمق فى النفاذ الى الواقع عن العلم الذى يظل مرتبطا بالسطح . وقد رأينا كيف اكد ليفى ستروس دور الأساطير فى دراسة المجتمعات الانسانية ، واننا لنؤكد بدورنا أهمية دراسة الاعراف والعادات والمعايير السائدة فى المجتمعات كأحد العوامل المساعدة فى البحث العلمى .

ان معالجتنا لموضوع التفسير وضعنا فى قلب مشكلة العلوم الاجتماعية فتعدد الآراء وتباينها وتصارعها أحيانا يرجع ولا شك الى تعقد موضوع

(1) P. Feyerabend , Against Method, Outline of an Anarchist Theory of Knowledge . London : New Left Books 1975, p. 20 .

الدراسة الاجتماعية . وبينما نجد أن التفسير في العلوم الطبيعية يقوم على قاعدة صلبة متمثلة في اتفاق العلماء ، نفاجئ بعكس ذلك في مجال العلوم الاجتماعية حيث العلماء لا زالوا مختلفين حول موضوع الدراسة وايضا حول الموقف الذى يتخذونه بازاءه (اى المنهج) . ولا شك ان أحد المهام الخطيرة لفلسفة العلم هى حل تلك المشاكل والتقريب من وجهات النظر المتباينة . ان اضطلاع فلسفة العلوم الاجتماعية بتحليل المناهج والنظريات والافتراضات لكفيل بحل كثير من المشكلات التى تواجه العلوم الاجتماعية . وتدخل الدراسة التى قدمناها فى اطار هذه المحاولات .

ان الازمة الحالية فى التفسير ، والمتمثلة فى عدم اتفاق الآراء ، تؤثر تأثيرا سلبيا على العلوم الاجتماعية ، وتضعف من قدرتها على التطور والنمو على نحو يجعلها تلحق بركب العلوم الدقيقة .

ان طبيعة موضوع الدراسة الاجتماعية متعدد الجوانب مما يجعل الباحث مرتبطا به على نحو يصعب معه الوصول الى نظرة موضوعية وهذا ما دعى الوضعية والاتجاه الطبيعى الى الابتعاد عن موضوع الدراسة والى الاكتفاء بتطبيق المناهج التجريبية للعلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية من أجل الوصول الى تفسير سليم للظواهر . ويكفى - فى رأيهم - أن تكون تلك المناهج هى المحك الذى يقيس تطور كافة العلوم . وقد نتج عن هذا الاتجاه دعوتهم الى الشكل الاستنباطى للتفسير واخذهم بالاسباب أو العلل فى تفسير الظواهر الاجتماعية . لقة اهتبت الاتجاهات الوضعية بالوقائع مبعدة الميتافيزيقا والايديولوجيا ، منكرة الفلسفة والنظرية ، مما ادى بها الى الاستسلام الكامل للمعطى والتعلق بالسطح دون النفاذ الى ما وراءه .

لقد اغفل هذا الاتجاه عملية الفهم واهميتها فى الدراسة الاجتماعية . ان التفسير يتطلب منا ، الى جانب كشف اسباب الفعل أو الظاهرة موضع الدراسة ، فهم هذا الفعل أو تلك الظاهرة ، ولا يتسنى هذا الا عن طريق

ادراك المعتقدات والميول المرتبطة بكل من السياق الاجتماعى والنظم الاجتماعية وقيم الأفراد المنتمين الى الموقف .

ولما كانت الفنونولوجيا معنية بالمعنى الكامن وراء الظواهر من اجل ادراك الماهيات ، فانها رفضت التفسير القائم على اعطاء الاسباب ، خاصة وانه يغفل الدوافع والأهداف ، واتجهت الى الفهم كوسيلة لكشف ما خفى ، منهجها فى ذلك الوصف والتحليل . الا ان اتجاهها هذا جعلها تغفل كثيرا من الاسئلة الهامة فى مجال العلوم الاجتماعية . وتتمثل هذه الاسئلة فى الآتى : لماذا توجد أنظمة متعددة فى المجتمع ؟ ولماذا تحدث عمليات تغير اجتماعى ؟ ولماذا يتميز هذا التغير باطرادات معينة ؟ ... الخ . ولا شك ان الاجابة على امثال هذه الاسئلة يحتاج الى الوصول الى قوانين سببية . وقد ادى تركيز الاتجاه الفنونولوجى على المعنى ، والنموذج المثالى ، والماهية ... الخ الى الاقتراب من موضوع الدراسة الى حد يصعب معه التوصل الى نظرية اجتماعية علمية .

واذ اكانت الوظيفية ارادت الابتعاد عن موضوع الدراسة من اجل كشف الوظيفة داخل النسق الا ان ذلك ادى بها الى استبعاد العوامل الخارجية التى قد تؤثر بالفعل على هذا النسق . وقد تطور هذا الموقف الى استبعاد احد العناصر الهامة فى التفسير وهو التاريخ . ان الواقعة أو الظاهرة موضع البحث ، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية ، ليست منفصلة عن جذورها بل هى مرتبطة بما حدث من قبل تماما مثل ارتباطها بالاهداف المستقبلية .

وحاولت البنوية التوصل الى معرفة بالعلاقات بين العناصر المكونة للموقف ، ولم تكتف بالسطح الظاهر وانما حاولت الوصول الى النماذج أو البنيات العميقة . ولا شك ان هذا الاتجاه يعد تطورا بالنسبة للاتجاهات السابقة عليه ، الا انه أهمل كما أهمل اهل الاتجاه الوظيفى من قبل عنصر

التاريخ وتأثيره على الموقف كما استبعد الاسباب التي اذا استبعدت قلت احتمالات التوصل الى تفسيرات سليمة وكاملة .

ولا شك ان هناك علاقة جدلية بين الباحث وموضوعه ، خاصة فى الدراسات الاجتماعية ، فاذا استطاع الباحث الاقتراب من موضوعه ، وفى نفس الوقت الاحتفاظ بما يسمى « المسافة النفسية » - كما اطلق عليها عالم اللغويات تشومسكى (٢) - فان هذا يتيح بالتأكيد القدرة على التثبت والتحقق ويصل بنا الى نوع من الموضوعية .

وانما لنرى ان التفسير عملية اساسية فى منهج العلوم الاجتماعية . وكما عملية علمية تحتاج الى ان تأخذ شكلا متفقا عليه ، وقد قدم النموذج الاستنباطى شكلا جديرا بالدراسة ، مدخلا القوانين او القضايا العامة فى مقدماته . الا ان هذا وحده غير كاف ، فالتفسير يستدعى الفهم ، ومن الخطا القول بتعارضهما - الفهم والتفسير - فى قطبين متقابلين ، وانما لا بد ان يكمل احدهما الآخر فى علاقة جدلية داخل عملية واحدة : ان التفسير بدون الوصول الى فهم الاطار الذى تقع فيه الاحداث ودوافع وغايات الافراد ثم المعنى الكامن فى الموقف ، هذا التفسير مستحيل ، كما ان الفهم بدون ادراك العلل والاسباب وكافة العناصر الداخلة فى الموقف مستبعد .

وقد اثارت الاتجاهات الوظيفية والبنائية موضوعات هامة لا بد من اخذها فى الاعتبار عند تفسيرنا للظواهر ، فالوظيفة التى يؤديها كل عنصر فى النسق تلعب دورا لا شك فى اهميته ، كما ان تراكيب البنينة وشكل العلاقات التى تربط عناصره يؤثر بدرجة كبيرة ، خاصة اذا اخذنا فى اعتبارنا المستوى العميق الكامن وراء السطح الظاهر . ونتيح دراسة

(٢) تحدثنا عنه بالتفصيل فى الفصل الخامس .

البنيات الموجودة فى نسق معين ثم العلاقات بينها وبين الاتساق الأخرى ،
التوصل الى دمج كافة العناصر الاجتماعية المحدودة فى اطار اوسع يضمها
جميعا ، ويتيح كشف الظواهر الاجتماعية الشاملة او الكلية . واهمية
الظاهرة الاجتماعية الشاملة ترجع الى كونها تشير من جهة الى الكلية
الموضوعية للمجتمع ، ومن جهة أخرى الى الوعى الذى يدرك هذا
الواقع . ان الظاهرة الكلية او الشاملة تكشف عن الوعى فى تعقده وفى
ابداعه مما يسهل التوصل الى تفسير توليدى وديناميكى .

وعلىنا الا نفعل اهمية المعطيات التاريخية فى تفسير الظواهر
الاجتماعية . فبينما تحوى الطبيعة عوامل غير واعية تؤثر على بعضها
البعض وينتج عنها قوانين عامة فان المجتمع يتأثر بمجرى التاريخ ،
ويعتبر الواقع التاريخى جزءا هاما واساسيا من الواقع الاجتماعى .

ويرتبط العامل التاريخى بالتطور والتغير ، وهو ما غفلت عنه
بعض المدارس الفكرية . واذا كان ماركس قد سبق ان كتب فى أطروحته
الشهيرة عن فيورباخ يقول : « ان الفلاسفة قد صرفوا كل اهتماماتهم
حتى الآن الى تفسير العالم على انحاء متعددة فى حين ان بيت القصيد
هو تغييره » (٣) فاننا نضيف ان التفسير اذا سار بشكل سليم يتضمن التغير .
فاذا أخذ التفسير فى اعتباره العوامل التاريخية وتطور المجتمعات فان
معنى ذلك هو كشف التغير والتطور والازمات التى هى جزء من الظواهر
الاجتماعية التى ندرسها . ان التاريخ يرتبط بشكل مباشر بالعلوم
الاجتماعية وخاصة فى مجال التفسير . ان الموقف الواقعى الكامل
يتضمن كل من السببية والحتمية مما يتيح التوصل الى الأشكال التفسيرية
السليمة .

ان علينا من جهة ان ندرك الطابع التاريخى لموضوع الدراسة
الاجتماعى - وهو ما يميزه عن العلوم الطبيعية - ومن جهة أخرى ندخل

طرق التحليل التاريخى فى الدراسات الاجتماعية • ونستطيع القول اننا لا نستطيع ان نفهم او نفهم اى موضوع فى المجال الاجتماعى بدون الاشارة الى التاريخ ، ولا يعنى هذا ان نرد الدراسة الاجتماعية الى علم التاريخ ، ذلك ان التفسير فى ضوء التاريخ وحده غير كاف ولا بد من الاعتبارات الأخرى التى ذكرناها من قبل (السبب ، المعنى ، الوظيفة ، المستوى العميق الخ) •

ولا يسعنا فى نهاية هذه الدراسة الا ان نقول اننا حاولنا القضاء بعض الضوء على احد الموضوعات الهامة فى فلسفة العلوم الاجتماعية ، وقد كان يمكن لهذه الدراسة ان تأخذ اشكالا أخرى تحت نفس العنوان ، فلا توجد كلمة نهائية فى العلم ، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية ، الا اننا نؤمن ان اى جهد و اى فكر لكفيل بوضع لبنة فى الصرح الشامل للعلم والفكر •

المراجع

اولا : المراجع العربية :

- ١ - د . احمد ابو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ، عالم الفكر ، الكويت ، المجلد الثامن ، العدد الاول ابريل - مايو - يونية ١٩٧٧) .
- ٢ - د . اميره مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ، ١٩٦٥ .
- ٣ - د . توفيق الطويل : اسس الفلسفة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .
- ٤ - جان بياجيه : البنيوية ، ترجمة عارف منيمه ويشير لوبرى ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٧١ .
- ٥ - جورج مارتون : تاريخا لعلم ، الجزء الاول ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .
- ٦ - حامد عمار : المنهج العلمى فى دراسة المجتمع ، (وصفه وحدوده) ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ .
- ٧ - د . حسن حنفى : الظاهريات وازمة العلوم الاوروبية ، الفكر المعاصر ، عدد ٥٩ ، يناير ١٩٧٠ .
- ٨ - د . صلاح قنصوه : الموضوعية فى العلوم الانسانية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨١ .

٩ - ف . ريدنيك : ما هي ميكانيكا الكم ، موسكو ، دار ميرال للطباعة والنشر ، ١٩٧١ .

١٠ - د . زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ .

١١ - _____ : المنطق الوضعي ، جزآن ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ .

١٢ - د . زكريا ابراهيم : قيمة العلم بين النظر والتطبيق ، الفكر المعاصر ، عدد ١٠ فبراير ١٩٦٦ .

١٣ - _____ : مشكلات فلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ص ١٢٩ .

١٤ - _____ : مشكلة البنية ، أو اضاء على البنيوية - القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ .

١٥ - د . على سامي النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ .

١٧ - : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، مجلة الطلبة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ .

١٨ - كارل بوبر : عقم المذهب التاريخي ، ترجمة د . عبد الحيد صبره ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩ .

١٩ - د . محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع ، جزآن ، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ .

- ٢٠ - د . محمود رجب : المنهج الظاهراتى فى الفلسفة ، رسالة
دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ، ١٩٧١ .
- ٢١ - د . محمود زيدان : الاستقراء والمنهج العلمى ، بيروت ،
مكتبة الجامعة الامريكية ، ١٩٦٦ .
- ٢٢ - د . مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول
تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، ١٩٦٦ .
- ٢٣ - هوسرل : التأملات الديكارتية ، ترجمة د . نازلى اسماعيل
حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ .
- ٢٤ - د . يحيى هويدى : باركلى ، القاهرة ، دار المعارف ،
نوابغ الفكر الغربى ، ١٩٦٠ .

* * *

ثانيا - المراجع الاجنبية

1 — Achulstein, P. and S. F. Barker (eds). : The Legacy of Logical Positivism. Baltimore : The John Hopkins Press, 1969.

2 — Arron, R. : Main Curents in Sociological Thought.
(2) trans. by R. Howard and H . Weaver . Middle sex :
Pengwin Books INC, 1972.

3 — Badcock, C. R. : Levi . Strauss, Sturcturalism and
Sociological Theory. New York : Holmes and Meier publishers,
1976 .

4 — Bierstedt, R. . : Emile Durkheim. New York : Dell
publishing Co. INC. 1966.

5 — Borger, R. and F. and F. Cioffi (eds). : Explanation
in the Behavioural Sciences. Cambridge : The University Press,
1970.

6 — Boudon, R. : The Logic of Sociological Explanation.
Translated by T. Burno London : Pengwin Education, 1974.

7 — Braithwaite, R. B. : Scientific Explanation. New York?
Hayer & Brothers 1953.

8 — Brown, R. : Explanation in Social Science London .
Routledge and KeganPaul 1963 .

9 — Campbell, N. : What is Science ? New York Dover
Publications 1952.

10 — Chisholm, R., H. Feigl , W. F. Frankena et al . :
Philosophy. New Jersey : Prentice Hall Inc. Englewood Cliffs,
1964 .

11 — Chomsky, N. : Problems of Explanation in Linguistics.
in R. Borger and F. Cioffi (eds.) . Explanation in the
Behavioural Sciences pp. 425 - 451.

12 — Churman, C. W. : On the Unification of the Social
Sciences. Proceedings of the Fourth International Conference on
the Unity of the Sciences 1975 New York pp. 101 - 110.

13 — Cohen, M. : Reason in Social Science . in H. Feigl and
M. Brodbeck Readings in the philosophy of Science pp. 663 - 673.

14 — Comte , A. : Cours de philosophie positive. (1ere et
2em Lecon) Introduction et note par Ch. Lalo Librairie Hachette,
1931 .

15 — Dore, R. P. : Function and Cause, in Ryan (ed). b The
philosophy of Social Explanation pp. 65 - 81.

16 — Dray, W. : Laws and explanation in history. Lond . .
Oxford University Press 1957 .

17 — Durkeim , E. Montesquieu and Rousseau transl . by
Manheim R, Michigan, University of Michigan Press 1960.

18 — Durkeim, E. : La Science positive de la morale en
Allemagne, Revue philosophique XXIV, 1887.

19 — Durkeim , E., M. Mauss : Primitive Classification, trans by Rodney Niedharm Chicago, the University of Chicago Press, 1963 .

20 — Durkeim, E. : Les Formes élémentaires de la vie religieuse Paris : Felix Alcan , 1912.

21 — Durkeim, E. Les règles de La Méthode Sociologique, Paris : Presse Universitaire de France 1949.

22 — Durkeim, E. : Evolution pédagogique en France, 11. Paris : Librairie Felix Alcan 1912.

23 — Durkeim, E. : Suicide , a study in sociology trans, by J. A. Spaulding. and Simpson London : Routledge and Kegan Paul, 1952 .

24 — Emmet, D. and A. Macintyre (eds) . : Sociological theory and philosophical analysis. London : MacMillan and Co. Ltd . 1970.

25 — Feigl, H. and M. Brodbeck May (eds) . : Readings in the philosophy of Science , New York : Appletoncentury crofts inc. 1953 .

26 — Flew, F. (ed) . : Essays in conceptual Analysis, London Macmillan and Co. Ltd. 1960.

27 — Fodor, J. A . : Functiona! Explanation in psychology, in M. Brodbeck (ed.) . Readings in the philosophy of the Social Sciences. New York : The Macmillan Co. 1968 pp. 223 - 238,

28 — Freides, T. : Literature and Bibliography of the Social Sciences , California : Melville Publishing Co., 1973.

29 — Gibson, Q. : The Logic of Social Inquiry London : Routledge and Kegan Paul 1960.

30 — Giddens, A. Functionalism : Après la lutte in social Research . Vol. 43 No. 2 Summer 1976 pp. 325 - 366.

31 — Girod , R. : Le passage de la Description à l'explication dans le cadre de la Sociologie concrète , cahiers Internationaux de la Sociologie Vol. XXI 1956, pp. 100 - 113 .

32 — Goldstein, L. J. : The two theses of methodological individualism in British Journal for the philosophy of Science Vol. IX May 1958, pp. 1 - 11.

33 — Greenwood. Explanation in D. D. Runes (ed.) : Dictionary of philosophy New York philosophical Library. 1972

34 — Grawitz, M. : Méthodes des Sciences Sociales Paris : Dalloz , 1974 .

35 — Grunbaum, Causality and the Science of human behavior in H. Feigl and M. Brodbeck , Readings in the philosophy of Science New York. Appleton century crofts Inc. 1953 pp. 766 - 778 .

36 — Gruner, R. : Teleological and Functional Explanation, in Mind, October pp. 516 - 526 .

37 — Gurvitch, G. : Le concept de Structure Sociale. Cahiers Internationaux de Sociologie . 1955 pp. 3 - 44 .

38 — Gurvitch, G. : La crise de l'Explication en Sociologie Cahiers Internationaux de la Sociologie Vol, XXI, 1956 pp. 3 - 18.

39 — Hayek, F. A. : Degrees of explanation . British Journal for the Philosophy of Sciences, Vol. VI, August 1955, pp. 209 - 225 .

40 — Hempel, C. G. : Logical positivism in the Social Sciences, in The Legacy of Logical positivism, ed . by p. Achinstein and S. F. Barker, Baltimore : The John Hopkins Press, 1969, pp. 192 - 209 .

41 — Hempel, C. G. : Aspects of Scientific Explanation, New York. The Free Press, 1965.

42 — Hempel, G. C. and P. Oppenheim. : The Logic of explanation in H. Feigl and M. Scriven (ed.) Readings in the philosophy of Science New York. Apolton century cofts Inc. 1953 pp. 319 - 352.

43 — Hempel, C. G. : Typological Methods in the Social Sciences in Natanson (ed.) , Philosophy of the Social Sciences, a reader pp. 210 - 230 .

44 — Hempel , C. G. : Philosophy of Natural Sciences . New York. Prentice Hall Foundations of Philosophy

45 — Hirst. P. Q. : Durkeim , Bernard and Epistemology
London : Routledge and Kegan Paul 1955.

46 — Homans, G. C. : The Nature of Social Science. New
York Harcourt Brace and World 1967 .

47 — Homans, G. C. : Bringing men back , in . A . Ryan
(ed). The Philosophy of Social Explanation pp. 50 - 64.

48 — Homans, G. C. : The relevance of psychology to the
explanation of social phenomena in R. Berger and E. Cioffi
(ed.) Explanation in the Behavioral Sciences Cambridge Univ.
Press 1970, pp. 313 - 325 .

49 — Hospers, p. Q. : What is explanation, in Essays in con-
ceptual analysis, Flew A. (ed.) London Macmillan and Co. Ltd.
1960, pp. 94 - 119 .

50 — Jeans, J. (Sir) : Physics and philosophy Cambridge
Univ. press, 1948 .

51 — Kaplan, A. : The Conduct of Inquiry . Methodoogy
for Behavioral Science, New York Chandler Publishing Co., 1964 .

52 — Kaufman, F. : Methodology of the Social Sciences.
New York. The Humanities Press 1958.

53 — Kolakowski , L. : Positivist philosophy. Translated by
Norbert Guterman - Middlessex : Pelican Books, 1972.

54 — Kuypers, K. : The Sciences of Man and the Theory of
Husserl's two Attitudes. in the Latter Husserl pp. 186 - 195.

55 — Lane. M. (ed.) : Introduction to Structuralism . New
York Basic Books. Inc , Publishers , 1970.

56 — Levi - Strauss, C. : Anthropologie Sturcturale. Paris
Librarie Plon, 1958 .

57 — Levi - Strauss, C. : Le cru et le cuit paris : Librairie
plon 1964.

58 — Levi - Strauss, C. : Critères scientifiques dans les
disciplines sociales et humaines. Aletheia No. 4 Mai 1966, pp.
189 - 212 .

59 — Lukes, S. : Emile Durkeim . New York : Harper an
Row Publishers, 1972.

60 — Lundberg , G. A. : The Postulates of Science and their
Implications for sociology . in M. Natanson (ed .) . philoeoph
of the Social Sciences pp. 33 - 72.

61 — Machlup, F. : Are the Social Sciences Really Inferior
in M. Natanson (ed.) . Philosophy of the Social Sciences, a reader
pp. 158 - 180 .

62 — Mac Iver . : Levels of Explanation in History . in A.
Brodbeck (ed.) Readnigs in the Philosogily of the Social Sciences
New York : The Macmillan Company. 1968. pp, 304 - 316.

63 — Macleod, R. B. : Phenomenology . in D. L. Stills (ed.).
International Encyclopedia of the Social Sciences Vol. 12 London:
The Macmillan Company and The Free Press, 1968.

64 — Malinowski, B. : Anthropology. Eucyclopedia Britannica
Suppl. Vo 1. 1. New York and London, 1936, pp . 132 - 33 .

65 — Malinowski, B. : A Scientific Theory of Culture in
P. Wiener (ed.) : Readings in Philosophy of Science New York:
Charles Scribner's Sons . 1953, pp. 387 - 393.

66 — Martin , J. R. : The doctrine of Verstehen in Explaining,
Understanding and teaching. New York : Mc Graw Hill, 1970.

67 — Magee, B. : Popper. Glasgow : William Collins and
Sons Co. 1975 .

68 — Marcus, H. : Reason and Revolution. London:Routledge
and Kegan Paul, 1955 .

69 — Don Matindale (ed.). Functionalism in The Social
Sciences . Philadelphia : The American Academy of Political and
Social Sciences, 1965.

70 — Merton, R. M. : Manifest and Latent Functions, in
Demerath and Peterson (eds.) : System, Change and Conflict.
New York : The Free Press . 1967.

71 — Nagel, E. : The Structure of Science : Problems in the

Logic of Scientific Explanation. New York, Harcourt, Brace and World Inc ., 1961 .

72 — Nagel, E. : Problems of concept and Theory Formation. in Natanson (ed.) : Philosophy of the Social Science. pp. 189 209 .

73 — Nagel, E. : The Logic of Historical Analysis in M. Feigl and M. Brodbeck (eds.) : Readings in the Philosophy of Science, pp. 688 - 700.

74 — Natanson , M. (ed.) : Philosophy of the Social Science, a reader. New York : Random House, 1963.

75 — Pap, A. : An Introduction to the Philosophy of Science London : Eyre and Spottis Woode, 1963.

76 — Poincaré . : Science et Méthode . Paris : Ernest Flammarion 1908.

77 — Passmore, J. : Explanation in everyday life, in Science and in History . in History and Theory . Vol. 11 No. 2, 1962, pp. 105 - 125 .

78 — Paz , O. : Claude Lévi-Strauss. An Introduction. Translated by J.S. Benstein and M. Benstein. London : Cornell University Press, 1970.

79 — Piaget, J. : Le Structuralisme Paris : P. U. F. 1968. Cornell University Press, 1970.

80 — Pivcevic. : · Husserl and Phenomenology . London :
Hutchinson University Librairy, 1970.

81 — Popper. K. : The Open Society and its Enemies.
Vol. II. London : Routledge and Kegan Paul, 1962.

82 — Popper, K. : The Poverty of Historicism. London :
Routledge and Kegan Paul, 1957.

83 — Popper, K. : Unity of Method in the Natural and Social
Sciences. in D. Braybrooke (ed.) . Philosophical Problems of
the Social Sciences. New York : The Macmillan Co. 1965, pp. 32
41 .

84 — Radcliffe - Brown, A. R. : Structure and Function in
Primitive Society. London : 1952 .

85 — Radcliffe - Brown, A. R. : A Natural Science of Society
Illinois : The Free Press, 1957.

86 — Raison, T. (ed.) : The Founding Fathers of Social
Science . London : Pengwin Books , 1969.

87 — Rescher, N. : Sciesntific Explanation. New York :
The Free Press, 1970 .

88 — Runciman, W. G. : What is Structuralism ? in A
Ryan (ed.) : The Philosophy of Social Explanation pp. 189 -
202.

89 — Ryan, A. (ed.) : The Philosophy of Social Explanation
London : Oxford University Press, 1973.

90 — Ryan, A. (ed.) . The Philosophy of the Social Sciences,
London : Macmillan Co. Ltd., 1970.

91 — Sartre, J. P. : Critique de la Raison Dialectique. Paris:
Gallimard, 1960.

92 — Schutz , A. : Concept and Theory Formation in the
Social Sciences. in Natanson (ed.) Philosophy of the Social
Sciences pp. 231 - 249.

93 — O'Neill (ed.) . Modes of Individualism and Collectivism
London, Heinemann, 1973.

94 — Schutz , A. and T. Juckmann . : The structures of The
Life - World. trans by R. M. Zaner and H. T. Engelhardt .
London . Heineman 1974 .

95 — Schutz, A. : The Social World and The Theory of Social
Action in Braybrook (ed.) p. p. 53 - 67.

96 — Schlick, M. : Description and explanation in philip .
P. Wiener (ed.) : Readings in Philosophy of Science, New York :
Charles Scribner's Sons 1953 pp. 470 - 473.

96 — Skinner, B. F. : Is a Science of Human Behaviour
Possible ? in Philosophical Problems of the Social Sciences ed.
by D. Braybrook, New York : The Macmillan Co. 1965 pp.
19 - 26 .

98 — Skinner, B. F. : The scheme of Behaviour explanations
in Braybrook (ed.) . pp. 42 - 52.

99 — Stroker, E. : Edmund Husserl's Phenomenology as Foundation of Natural Science, in The Latter Husserl and The Idea of Phenomenology . Papers and conference. Univ . of Waterloo Ap. 9-14, 1969 V. 2 . 1972 , pp. 245 - 257 .

100 — Spiegelberg : The Phenomenological Movement : a historical introudction The Hage : Martinus Nijhoff 1969.

101 — Stinch, Combe, A. L. : Constructing Social Theroy. New York Hancourt Brace & World Inc., 1968 .

102 — Taylor, C. : The Explanation of Purposive Behaviour. in T. Borger and Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences . Cambridge : The University Press, 1970, pp. 49-51.

103 — Theobald, D. W. : Introduction to the philosophy of Science. London Methuen & Co. Lth. 1968.

104 — Thion, S. : - Structurologie. Aletheia : Le Structura-
lisme No. 4 Mai 1966, pp. 219 - 227.

105 — Thompson , K : Auguste Compte. The Foundation of Sociology . New York : John Willy and Sons, 1975.

106 — Tiryakian, E. A. Sociologism and ~~Ex~~istentism, Engl. wood, Cliff : Prentice Hall Inc.. 1962.

107 — Toulmin, S. E. : Foresight and Understanding : An Inquiry into The Aims of Science. New York : Harper Torop Books, 1961 .

108 — Von Wright, G. H. : *Explanation and Understanding*.
London : Routledge and Kegan Paul, 1971.

109 — Watkins, J. : *Ideal type and historical explanation* in
H. Feigl and M. Brodbeck (ed.) : *Readings in the Philosophy of
Science*, N. Y. Appleton century crofts Inc. 1963, pp. 723 - 743.

110 — Weber, M. : *The Methodology of the Social Sciences*.
trans. by E. A. Shils and H. A. Finch. Illinois : The Free Press,
1949 .

111 — Wiener, P. : *Readings in Philosophy of Science*. New
York : Charles Scibner's Sons, 1953 .

112 — Winch, P. *The idea of a social science*. London :
Routledge and Kegan Paul, 1958 .

113 — Weingartner, R. H. : *The quarrel about historical
explanation* in : M. Brodbeck (ed.) : *Readings in the Philosophy
of the Social Sciences* . New York : The Macmillan Company
1968, pp. pp. 345 - 362 .

114 — Yolton , J. W. : *Explanation*, in *British Journal for the
Philosophy of Science* Vol. 10, 1959, 60.

* * *

المحتويات

الصفحة

١١	الفصل الأول : فلسفة العلوم الاجتماعية :
١٣	تمهيد : العلم
	اولا : الآراء المتعارضة حول منهج البحث الملائم للعلوم
٢١	الاجتماعية :
	(ا) الاتجاه الأول : وحدة المنهج فى العلوم الاجتماعية
٢٣	والعلوم الطبيعية
	(ب) الاتجاه الثانى : هناك مناهج للعلوم الاجتماعية
٢٨	متميزة عن مناهج العلوم الطبيعية
٣٢	ثانيا : الظاهرة الاجتماعية او موضوع الدراسة :
٣٢	(ا) الموقف الطبيعى
٣٨	(ب) الموقف اللطبيعى
٤١	ثالثا : مشكلات منهجية :
٤٢	(ا) شكل البحث الاجتماعى
٤٦	(ب) التعميم والتنبؤ
٥٥	(ج) القيم والبحث الاجتماعى
٦٣	الفصل الثانى : معنى التفسير :
٦٥	اولا : الآراء المختلفة فى التفسير
٧٨	ثانيا : شروط التفسير :

الصفحة

(أ) المتطلبات المنطقية	٧٩
(ب) المتطلبات المعرفية	٨٨
ثالثا : التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :	٩٤
(أ) التفسير والوصف	٩٤
(ب) التفسير والتنبؤ	٩٩
(ج) التفسير والتعميم	١٠٤
الفصل الثالث : الاتجاه الوضعي :	١٠٩
تمهيد : لمحة تاريخية	١١١
أولا : اتجاه أوجت كونت ونظرته الى التفسير	١١٧
ثانيا : نظرة نقدية الى اتجاه كونت	١٢٧
ثالثا : اتجاه إميل دوركايم ونظرته الى التفسير	١٣٠
رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم	١٣٧
خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ونظرتها	
الى التفسير	١٦٤
سادسا : نظرة نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية	١٨٩
الفصل الرابع : الاتجاه الفنونولوجي ومنهج الفهم الذاتى :	١٩٧
تمهيد : ما هى الفنونولوجيا ؟	١٩٩
أولا : اتجاه فيلهلم دلتاي ونظرته الى التفسير	٢١٠
ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظرته الى التفسير	٢٢٢

الصفحة

ثالثا : اتجاه آدموند هوسرل ونظريته الى التفسير	٢٣٤
رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظريته الى التفسير	٢٥٠
خامسا : نظرة نقدية الى الفنونولوجيا	٢٦٢
الفصل الخامس : الاتجاه للوظيفي ، والاتجاه البنوي :	٢٧٥
تمهيد :	٢٧٧
اولا : الاتجاه الوظيفي ونظريته الى التفسير	٢٨٠
ثانيا : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفي	٢٩٥
ثالثا : الاتجاه البنوي ونظريته الى التفسير	٣٠٠
رابعا : نظرة نقدية الى الاتجاه البنوي	٣٢٤
خاتمة	٣٣١
المراجع	٣٣٩
اولا : المراجع العربية	٣٣٩
ثانيا : المراجع الأجنبية	٣٤٢

رقم الايداع ٤٦٤٨ / ١٩١٨

قَلَّز التَّوْفِيقِ الرَّبِّمَوْفِقِينَ

لِلطَّبَاعَةِ وَالْمَجْمَعِ الدَّارِ
الْمَدِينَةِ: مَدِينَةُ الدَّارِ: مَدِينَةُ الدَّارِ

ت ٩٢٥٣٠٤

